

يوم الفرع الأكبر

الشيخ محمد متولي الشعراوي

أشراط الساعة

علوم الآخرة

المهدي المنتظر

الوقوف للحساب

عذاب النار

غرائب الصراط

الميزان

مقدمة

ليس هذا حديثاً عن وصف النار بسلاسلها وأغلالها وجحيمها وألوان العذاب فيها. ولكنه حديث عمن يستحقون دخول النار، ممن أعدت لهم النار من الكافرين والمنافقين الذين سيخلدون فيها.

وإذا كانت الجنة درجات، يسكنها أهلها على حسب أعمالهم ودرجاتهم ومقاماتهم، فإن النار دركات أسفلها تلك الخاصة بالمنافقين الذين هم شر من الكافرين.

وفضيلة الشيخ الشعراوي وإن كان يحدثنا في هذا الكتاب عن أهل النار من: الساعين في الأرض فساداً، والمولّين الدبر عند الزحف، وقاتل المؤمن عمداً، ومن يكتز الذهب والفضة، فإنه يحدثنا في ثنایا كلامه بكلام بديع في وصف النار وعذابها.

نرجو أن ينفعنا الله بعلمه، ويجعلنا من المترسّمين خُطَاه.



أصحاب الجحيم

أولاً

النار حق

رؤية الجحيم:

﴿لَتَرُوْنَ الْجَحِيْمَ * ثُمَّ لَتَرُوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

أي: أنكم في الآخرة سوف ترونها بأعينكم بعد أن كنتم مؤمنين بها كعلم يقين، أما الآن فقد أصبحت عين يقين أي: مشاهدة بالعين. وفي هذه السورة أعطانا الحق مرحلتين من مراحل اليقين هما: علم اليقين وعين اليقين، ففي الآخرة سوف يُضرب الصراط على جهنم، ويرى الناس - كل الناس، المؤمن منهم والكافر - نار جهنم، وهم يمرون فوق الصراط، ويرونها مشتعلة متأججة، وحين يمر المؤمن فوق الصراط ويرى جهنم وهولها، يعرف كيف نجاة الإيمان من هذا العذاب الرهيب فيفرح؛ فإذا دخل الجنة ورأى نعيمها يزداد فرحه؛ فله فرحة بأنه نجا من العذاب، وفرحة بالنعم وبالمنعم، ويقول المؤمن: الحمد لله الذي أنقذني من النار. وهذه نعمة كبيرة وفوز عظيم ولذلك يقول الحق:

﴿فَمَنْ رُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فالنجاة من النار وحدها فضل كبير، ودخول الجنة فضل أكبر، والحق هو القائل:

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

ويرد الشيء أي: يصل إليه دون أن يدخل فيه^(١)، ويقال: ورد الماء أي:

(١) اختلف الناس في الورد على أقوال:

١ - الورد: الدخول. عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورد الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم.. ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً»، أخرجه الإمام أحمد (٣/٣٢٩) والحاكم في مستدركه (٤/٥٨٧) وصححه وأقره الذهبي.

وصل إلى مكانه دون أن يشرب منه. إذن: فكل منا سوف يرى جهنم، ويعرف المؤمن نعمة الله عليه؛ لأنه أنجاه منها، ويندم الكافر؛ لأنه يُعَذَّب فيها.

وقد ضربت من قبل مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقراءة عن مدينة نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعرف القارئ أنها مبنية على عدة جزر، وفيها ناطحات سحاب وأنها مزدحمة بالسكان، وهذه القراءة هي علم يقين، فإذا ركب الإنسان الطائرة ورآها من الجو يكون ذلك عين يقين، فإذا ما نزل وعاش على أرضها بين ناطحاتها وعایش ازدحامها بالسكان يكون ذلك حق اليقين.

وفي سورة التكاثر جاء الله سبحانه وتعالى بمرحلتين فقط من مراحل اليقين، وجاء بالمرحلة الثالثة في سورة الواقعة، فقال:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَنَصْلَةٌ حَمِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٥].

الزحزحة عن النار:

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة، فما بالك بمن زُحِزِحَ عن النار وأدخل الجنة؟ لقد نال نعمتين.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذُوكُمْ﴾ وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هي: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]،

= ٢ - الورود: الممر على الصراط. ويستدل أصحابه بحديث المرور على الصراط.

٣ - الورود: ورود إشراف واطلاع وقرب. وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ويصار بهم إلى الجنة ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أشرف عليه لا أنه دخله.

٤ - ورود المؤمنين النار هو الحمى التي تصيب المؤمن في دار الدنيا، وهي حظ المؤمن من النار فلا يردّها.

٥ - الورود: النظر إليها في القبر، فينجي منها الفائز، ويصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعاة أو غيرها من رحمة الله تعالى، واحتجوا بحديث ابن عمر: «إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغدّة والعشي».

وقد جمع الإمام القرطبي في تفسيره (٤٣٠٧/٦) بين هذه الأقوال فقال: ظاهر الورود الدخول، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين وينجون منها سالمين، قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا: ألم يقل ربنا: إنّنا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رماداً.

لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون؟ هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عباداً صالحين، أو تجحدونها وتكفرونها؟ فالإنسان ظلوم كفار.

وكلمة «ينظر» إذا جاءت على الإنسان فهم المراد منها أي: يراك بناظره. وإذا أُسندت لله فالأمر مختلف، فتعالى الله أن تكون له عين مثل عيوننا. لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره؛ لأنه هو - سبحانه - عالمه قبل أن يقع. ونعلم أن هناك فارقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق، وبين الحكم على المخلوق بعلم المخلوق.

مثال ذلك نجد الأستاذ في مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه. وعميد الكلية يقول له: ما رأيك؟ فيقول: فلان طالب يستحق النجاح بتقدير مرتفع، والثاني لا بد أن يرسب. الأستاذ يقول هذا الحكم بناءً على علمه بحال كل طالب. لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناءً على تقديره دون امتحان فالطالب الذي رسب قد يقول لأستاذه: أنت شططت في الحكم؛ ولو مكنتني من الامتحان لنجحت. وحين يقرر العميد امتحان الطالب، ويؤدي الامتحان بالفعل؛ ولكنه يرسب، هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب في الامتحان.

انظروا إلى دقة العبارة: ﴿وَلَئِنَّمَا تُوَفُّونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم في هذه الدنيا، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثواباً في الدنيا فهذا زمن زائل ينتهي، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون في الآخرة لكي يكون ثواباً لا ينتهي.

ونعرف ما حدث في بيعة العقبة الثانية؛ حينما أخذ رسول الله ﷺ على الأنصار عهداً، قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ ولم يقل لهم ﷺ: ستنتصرون أو ستملكون الدنيا، بل قال: «الجنة»، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، فلو وعدهم بأي شيء في الدنيا لقال له أي واحد فطن منهم: ما أهونها، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه: أنا أحبك قدر الدنيا، فقال له: وهل أنا تافه عندك لهذه الدرجة؟

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول: إياكم أن تفهموا أن جزاء الإيمان يكون في الدنيا؛ لأنه لو كان في الدنيا لكان زائلاً وكان قليلاً كجزاء على الإيمان، لأن الإيمان وصل بغير منته وهو الله، فلا بد أن يكون لجزاء غير منته وهو الجنة، فقال: ﴿وَلَئِنَّمَا تُوَفُّونَ أَجُورَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وأخذ أهل الملح من كلمة «توفون» أن هناك مقدمات؛ لأن معنى «وفيته أجره» أي: أعطيته وبقي له حاجة وأكمل له، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات الإيمان، ويكفي إشراقة الإيمان في

نفس المؤمن، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل في معركة، وما دام قد مات في معركة فهو لم ير انتصاراً، ولم ير غنائم ولا أي شيء، فماذا يكون نصيبه؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة «توفون» فمن نال منها شيئاً في الدنيا بالنصر، بالغنائم، بالزهو الإيماني على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون في الآخرة، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكميلها يكون في يوم القيامة، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور التي يستحقها العاملون.

ويقول الحق: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها. اقرأوا إن شئتم: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾»^(١) [آل عمران: ١٨٥].

وعندما تقول: زحزحت فلاناً، معناها أنه كان متوقفاً برعب، فكيف يحدث ذلك عند النار؟ نعرف أن النار سببها المعصية، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة، ويأتي الإيمان ليشهدهم فتأخذهم جاذبية المعصية، فكذلك يكون الجزاء بالنار. إذن: فالنار لها جاذبية لأنها ستكون في حالة غيظ.. ولذلك يقول ربنا:

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

النار تتميز من الغيظ على الكافرين. وما معنى تتميز من الغيظ؟ أما رأيت قدراً يفور؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقايع تخرج منه وتنفصل عما في القدر، وهذا «تميز» أي: تفرق، والإنسان منا عندما يكون في حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقايع غليان القدر، إنه يرغب ويزد أي: اشتد غضبه، هذه الفقايع تحرق من يقف أمامها أو يلمسها، وهي من شدة الفوران تتميز بعضها وانفصل عن القدر، كذلك النار، ولماذا تتميز من الغيظ؟ إنها تتميز من الغيظ من الكافرين؛ لأن أصلها مُسَبَّحَةٌ حامدة شاكرة، وبعد ذلك يقول الحق:

﴿هَلْ أَمْتَلَأْتُ﴾ وتقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وذلك مما يدل على أن كلمة: ﴿تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ حقيقة؛ ولذلك يبين لنا رسول الله ﷺ أن النار لها جاذبية، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية في الدنيا، والمعصية في الدنيا هي التي تجذب العصاة، يقول الرسول ﷺ في ذلك: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبهن عنها،

(١) رواه ابن أبي حاتم، ورواه البخاري ومسلم من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه.

وأنا آخذ بحُجْزكم عن النار وأنتم تَفَلَّتُون من يدي»^(١)، انظر إلى التشبيه الجميل - حين توقد ناراً في خلاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوام والبعوض تأتي على النار؛ ولذلك يقولون: رُب نفس عشقت مصرعها.

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور، إننا نرى ذلك عندما نُشعل موقداً في الخلاء فأنت تجد حوله الكثير من هذه الحشرات صرعى، تلك الحشرات عشقت مصرعها، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها، كذلك الإنسان العاصي يعشق مصرعه؛ لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار.

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾ أي: أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان، ومجرد الزحزحة عن النار، حتى وإن وقف بينهما لا في النار ولا في الجنة، فهذا حسن، فما بالك إن زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة؟ لقد زال منه عطب وأعطي صالحاً. وهذه حاجة حسنة، وهذا هو السبب في أن النار مضروب على متنها الصراط الذي سنمر عليه، لماذا؟ حتى يرى المؤمن النار. وهو ماشٍ على الصراط التي لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها، فيقول: الحمد لله الذي نَجَّاني من تلك النار.

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والفوز هو النجاة مما تكره، ولقاء ما تحب، مجرد النجاة مما تكره نعمة، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة، فهذا فوز. ونلاحظ في «زُحِرَ» أن أحداً غيره قد زحزحه. نعم لأن الله تكرم عليه أولاً في حياته بفيض الإيمان وهو الذي زحزحه عن النار أيضاً.

﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

لأنه إذا زُحِرَ عن النار ولم يعد في نار ولا في جنة فهذا حسن، فما بالك إذا زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة؟ إن هذا هو الفوز الكبير، وهذا هو السبب في أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيرينا النار ونمر عليها، لماذا؟ كي نعرف كيف نَجَّانا الإيمان من هذه، وما الوسيلة كي نفلح ونتقي النار؟ إن الوسيلة هي اتباع منهج الله الذي جاء به على لسان رسوله.

ويقول الحق سبحانه:

﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦].

فكان من لا يُصرف عنه هذا العذاب هو من ينجذب إلى قوة العذاب؛ لأن لنار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الذين قُدِّرَ عليهم العذاب. ويقول سبحانه:

(١) رواه أحمد ومسلم عن جابر.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَبَسَ الْأَمِيزُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾
[الملك: ٦، ٧].

والذين يكفرون بالله لهم العذاب الذي يبدأ بسماع شهيق جهنم في أثناء فورانها، والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهي تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب؟ وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

إذن: ففوة العذاب التي جعلها الله مهمة لجهنم هي التي تلح وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين. وسبحانه خلق كل شيء ليؤدي مهمة، والنار مهمتها أن تمثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها؛ لذلك فهي تلح في طلب الذين سيتلقون العذاب، ولا تخرج النار أبداً عن أمر الله وقدره، فإن صرف الحق العذاب عن عبد من العباد فالنار تمثل لذلك الأمر. ﴿مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ﴾، وسبحانه فعال لما يريد، وهو إن حاسبنا بالعدل فكل منا سيمسه شيء من عذاب جهنم؛ ولكن رحمة الله هي التي تجعل النار لا تمس المؤمنين؛ لأنه سبحانه وتعالى يعفو عن كثير؛ ولأن للنار شهيقاً، فهي تستنشق المكتوب عليهم العذاب، ونعلم أن الشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير. والشهيق في الحياة يكون للهواء.

والسبب ازدياد سرعة الشهيق عن الزفير أن في الشهيق مهمة استدامة الحياة الأولى وهي إمداد الجسم بالهواء، والإنسان - كما نعلم - لا يصبر على الهواء إلا لأقل مدة ممكنة. ومن رحمة الله أنه لم يُملِكْ الهواء لأحد. وهذا الشهيق الذي يعطي الحياة في الأرض يوجد - أيضاً - في الآخرة وهو منسوب إلى النار، إنها تشهق لتبتلع العصاة، وهي بذلك تؤدي مهمتها الموكولة لها. ونعرف أيضاً أن النار تؤدي مهمتها بغيظ طبقاً لما قاله الحق سبحانه:

﴿نَكَادُ نَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

فهل تؤدي النار مهمتها وهي غير راضية عنها؟ وهل تختلف النار عن كل كائنات الحق التي تؤدي مهمتها بسعادة وانسجام؟ إن النار تَمِيزُ من الغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان، وللنار مشاعر مثل بقية المخلوقات. وللكون كله مشاعر؛ فالكون - على سبيل المثال - قد فرح بميلاد محمد ﷺ؛ فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرح بمقدم الرسول الكريم ﷺ؛ لأن كل هذه الكائنات مسخرة للإنسان وهي مُسَبَّحة لله وطاعة بطبيعتها، مثلما يأتي البشير ليهدي الإنسان

إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً، فهي تفرح بمقدم هذا البشير.

ونعرف أن المكان الذي يوجد به الإنسان، هذا المكان يفرح إن كان الإنسان فيه طائعاً، وهذا المكان نفسه يحزن إن كان الإنسان عاصياً، ويضج المكان - أي مكان - بوجود أي عاص فيه. ونرى ذلك واضحاً في قول الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَاوٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

والأرض التي كان بها قوم فرعون لها مشاعر، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التي ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس، وهي تغضب وتسخط وتضج بوجود الكافرين بنعمة الله فيها، ولذلك لا تبكي السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين، بينما تبكي السماء والأرض إن فارقها مؤمن، ولنا في قول الإمام علي - كرم الله وجهه - إيضاح لهذا؛ فقد قال: إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع في السماء، وموضع في الأرض. أما موضعه في السماء فهو مصعد عمله الطيب، وأما موضعه في الأرض فهو موضع مُصلاه.

وفي الحديث: «إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»^(١).

إذن: فموضع صعود عمل الإنسان في السماء يحزن؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمر فيه، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجود إنسان خشوعاً لله، ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر، وكل شيء في الكون يؤدي مهمته بقانون التسيير والتسخير لا قانون التخيير، والإنسان - فقط - هو الذي يحيا بقانون التخيير في بعض أحواله؛ لأنه قادر على الطاعة، وقادر على المعصية. ولذلك فعندما نرى السجود لله في القرآن فإننا نسمع قول الحق:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

إذن: فكل الكائنات تسجد له ما عدا كل أفراد الإنسان؛ فكثير منه يسجد لله وكثير منه يحق عليه العذاب لأنه لا يطيع الحق. ومن يعص منهج الله غير مؤمن به يطرده الله من رحمته، ومن يهينه الله بذلك فليس له تكريم أبداً. وقد أجمع الكون

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر.

على السجود لله، إلا الإنسان فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله، ويفرح به الكون، ومنه من يغضب منه الكون لأنه يعصي الله.

إن اللغة العربية توضح لنا ذلك؛ فالعرب يقولون: فلان نَبَتْ به الأرض من النَّبْوة وهي الجفوة والبعد والإعراض.. أي: أن الأرض تكره شخصاً بعينه؛ لأنه لا انسجام للأرض مع كائن عاصٍ.

ويقول الحق عن الذين يصرف عنهم العذاب من فرط رحمته بعباده لأنهم أطاعوه وكانت معاصيهم تغلبهم في بعض الأحيان فيتوبون عنه:

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦].

ونعلم أن هذا الفوز هو أرقى درجات الفوز؛ ذلك أن الفوز درجات؛ فالفوز في الدنيا كالنجاح أو المال أو غير ذلك هو فوز مُعَرَّضٌ لأن يضيع، وهو عُرضة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان، لكن فوز الآخرة هو الفوز الدائم الذي لا ينتهي.

وهذا هو الفارق بين نعم الدنيا ونعم الآخرة، والإنسان يتنعم في الدنيا على قدر تصوره للنعيم، فنجد الريفي - مثلاً - يتصور النعيم أن تكون له مصطبة أمام داره يجلس عليها، وعدد من القلل التي تمتلئ بالماء النقي، فإذا ما انتقل هذا الريفي إلى المدينة فهو يتصور النعيم في منزل متسع فيه أثاث فاخر وأدوات كهربائية من ثلاجة وغير ذلك، إذن: فإمكانات النعيم مختلفة على حسب تصور الإنسان، أما نعيم الآخرة فهو نعيم لا يفوته الإنسان ولا يفوت الإنسان؛ لأنه نعيم من صنع الخالق الواسع العطاء.. إن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولذلك فالفوز بنعيم الآخرة هو الفوز المبين.

والحق سبحانه يقول عن أبي لهب:

﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسكِ﴾ [المسد: ١-٥].

إذن: فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل في دين الله أبداً.

ويجيء قوله الحق: ﴿وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢].

هذا القول يفتح باب الأمل، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمر بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل إلى الإسلام. ومعجىء سورة المسد من بعد سورة النصر في الترتيب المصحفي كما أراد الله، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبي لهب وزوجه.

وتأتي من بعدها سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله، ولن يعقب أحد على حكم الله. إذن: فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ دُفِقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

عندما ننظر إلى قول الحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ دُفِقُوا عَلَى النَّارِ﴾، هنا لا نجد جواباً، مثل ما تجده في قولك: لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته. إن في كل من هاتين الجملتين جواباً، لكن في هذا القول الكريم لا نجد جواباً، وهذا من عظمة الأداء القرآني؛ فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع في المعنى مذاهبه التي يراها.

وفي حياتنا نجد مجرماً في بلد من البلاد يستشري فسادُه وإجرامه في سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات، ولا أحد يقدر عليه أبداً، ثم يمكن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه، فنرى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطي حتى لا يضع القيود في يديه. ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلاً: آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم، وهذه العبارة تؤدي كل معاني الذلة التي يتخيلها السامع، إذن: فحذف الجواب دائماً تريب لفاعلة الجواب، ليذهب كل سامع في تصور الذلة إلى ما يذهب. لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة في إطار ما رأى هو، ويحجب بذلك تخيل وتصوّر السامعين.

أما اكتفاء المشاهد بقوله: آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطي على هذا المجرم.. فهذا القول يعمم ما يرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور. وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق «لو» بلا جواب حين قال:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ دُفِقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن، ومنهم من قال: كيف تقولون إن القرآن عالي البيان، فصيح الأسلوب، معجز الأداء، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم؟

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة:

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٥].

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق، فكف تخرج هذه الشجرة من النار، أليس في ذلك شذوذ؟ ثم تتماهى الصورة.. صورة الشجرة، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق:

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ تَنَاوَنَ الْبُطُونُ﴾ [الصافات: ٦٥، ٦٦].

نحن لم نر شجرة الزقوم، ولم نر رأس الشيطان. ويسخر الذين يتصيدون للقرآن في أقوالهم: بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان، وكذلك شجرة الزقوم، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول؟ وتساءلوا بطنطنة: ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول؟ ونقول رداً عليهم: إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم لملكة اللغة العربية هو الذي يجعلكم لا تفهمون ما في هذا القول من بلاغة.

وحين نقرب المثل نقول: هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامي «الكاريكاتير» في العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان، وستفوز أكثر الصور بشاعة، ذلك أن الفوز هنا ليس في الجمال، ولكن الفوز هنا في مهارة تصوير القبح. وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصوير شجرة الزقوم، وكذلك تصور رأس الشيطان؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التي يأكل منها أهل الكفر.

وكذلك قوله الحق: ﴿وَلَوْ رَرَوْا إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ والذي يحدث لهؤلاء الوقوف على النار لا يأتي خبره هنا، بل يكفي الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم في مثل هذا الموقف؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار. والجنة - كما نعلم من قول رسول الله ﷺ - إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ونعلم أن رؤية العين محدودة، ورقعة السمع أكثر اتساعاً، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك، لكن عينك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمفردك، ولا يكفي الحق بذلك بل يخبر رسوله ﷺ أن في الجنة ما لا يخطر على قلب بشر، أي: أن في الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس في الأشياء. والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه.

وهكذا نعلم أن ما في الجنة من نعيم لا توجد ألفاظ تؤدي كل ما تحمله للمؤمن من معانٍ، وكذلك نعلم أيضاً أن في النار عذاباً لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه. ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ﴾ لראينا أمراً مفزعاً مخيفاً مذلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطى ذلك الأثر نفسه الذي جاء به حذف الجواب.

وعندما نقرأ «وقفوا» نعرف أن فيه بناءً وكياناً موجوداً، وأن هناك من أوقفهم على النار، وهم كانوا مكذبين في الدنيا بالنار، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقفهم الله على النار ليروا العذاب الذي ينتظرهم، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشيء، كذلك يوقفهم الحق على النار التي أنكروها في الدنيا؛ فقد جاءهم الخبر في الدنيا، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق، فذلك علم يقين، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة محسنة للخبر، فهذا عين يقين. والمؤمن بإخبار ربه وصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله، لأنه يصدق ربه، ولذلك فالإمام علي - كرم الله وجهه - يقول: «لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقيناً»؛ لأنه مصدق بلاغ ربه.

لكن ماذا عن المكذبين؟ إن الإنسان يرى علم اليقين في اليوم الآخر وهو عين يقين، ويشترك في ذلك المؤمن والكافر. ولكن الكافر يرى النار عين اليقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو «حق اليقين».

هكذا نعلم أن النار «عين اليقين» يراها المؤمن والكافر، والنار كـ «حق اليقين» يعاينها ويعذب بها الكافر فقط، أما المؤمن في الجنة فيحس «حق اليقين» لأنه يعيش ويسعد بنعيمها. ويصور سبحانه ذلك في قوله:

﴿كَأَلَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ - ٧].

وجاء حق اليقين في قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الصَّالِينَ * فَنَزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَنُصْلَةٌ جَمِيمٌ * إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٥].

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين؟ لا بد أنهم يخافون أن يعانوا منها عندما تصبح حق اليقين، لذلك يقولون:

﴿يَلَيْلَتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكْذِبُ بِثَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

إنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا الإيمان. والتمني في بعض صورته هو

طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يحب أن يكون، كقول القائل:
 أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ
 أو قول القائل:

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا عُقُودَ مَدَحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمِي
 وهم قالوا: «يا ليتنا نرد»، فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل
 ويتضمن أيضاً وعداً بعدم التكذيب بآيات الله، فهل هم قادرون على ذلك؟
 ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد في طلبهم المستحيل؛ لأنهم
 سيفعلون مثلما فعلوا من قبل، كفراً ونكراً وجحوداً. إنهم لجأوا إلى هذا القول من
 فرط الخوف مما أعده الله لهم؛ بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يفعلونه في الدنيا من
 كفر وجحود. ويقال عن يوم القيامة: «يوم الفاضحة»؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه
 في عنقه، ويقال له:

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فإذا كنا في الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق
 لنا؟ ويرى الإنسان مكره يوم القيامة بالصوت والصورة، وكل فعل فعله سيراه بطريقة
 لا يمكن معها أن ينكره، وكأن الحق يوضح لكل عبد: أنا لن أحاسبك بل سأترك
 لك أن تحاسب نفسك. ويفاجأ الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه: الأيدي تنطق
 بما فعل، واللسان ينطق بما قال، والقدم تحكي إلى أين ذهب بها صاحبها، فهذه
 الجوارح التي كانت تنفعل لمراد صاحبها في الدنيا، يختلف موقفها في الآخرة ولا
 تنفذ في اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسان المراد.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

مثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم
 الجنود، فإن أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها، وبعد انتهاء المعركة يسألهم القائد
 الأعلى، فيقولون سلسلة الأوامر الخاطئة التي أصدرها قائدهم المباشر.

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أعضائك مؤتمرة بقدرتك عليها دائماً، إن
 سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه، ويسلبه منك متى شاء في الدنيا. ويأتي يوم
 القيامة لنتتهي سيطرتك على الأبعاض. وأنت ترى في الدنيا بعضاً من صور سلب
 السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة الواهب الأعلى؛ فأنت ترى من لا يرى، وترى

من فقد السيطرة على جارحة أو أكثر من جارحة من جوارحه، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هي أمر موهوب من الله. وقول الحق سبحانه عن الكافرين: ﴿بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ يفصح تدليسهم في الحياة الدنيا، ثم يجيب الله على تمنيه السابق المليء بالذلة والمسكنة، التمني بالعودة إلى الدنيا، فيقول سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

فهم كاذبون في الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا، يوضح ذلك قول الحق سبحانه:

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

إنهم لم يأخذوا في أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكون منظم مرتب محكم التكوين، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظام والإحكام والترتيب موجود في علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة، ونعلم أن هناك صفات يشترك في كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدهم؛ فالملحد إن سرق من زميله، ألا يعاقب؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه، وفي كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب، بل هناك جزاء بإحسان. والإيمان لا يمنع أن يصطليح الناس على شيء من الإحسان، والمحرومون من الإيمان تلجئهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب.

إننا نجد أن تجريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطري وضروري للإنسان؛ فهم يجرّمون أفعال السوء بعد أن تعصّهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوي جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمي كرامة الإنسان. ويوم القيامة يقفون في صغار وفي اضطراب ليروا ما فعلوا:

﴿بَلْ بَدَاهُمْ مَّا كَانُوا يَخْشَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسي فعلون مثلما فعلوا، ولم يقولوا مثل هذا القول في اليوم الآخر إلا لأنهم مقهورون. وكانوا من قبل يقولون:

﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ففي دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هي الدنيا. ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا في الدنيا على قدر قوته، وويل للضعيف من القوي. والقوي إنما يخاف من قانون يعاقبه، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه، ولذلك نجد القاضي المؤمن يقول دائماً: لئن عمّيت على قضاء الأرض، فلا تعمّوا على قضاء السماء.

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض: «الحياة الدنيا» وهي في حقيقتها دنيا، وما داموا قد حكموا وعرفوا أنها «دنيا» فلا بد أن يقابلها حياة عليا. إن كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار، والنار جند من جنود الجبار، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين؟

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

هم - إذن - قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا، لأن ما شاهدوه هول كبير، فما بالك إذا وقفوا على الله؟ إنه موقف مرعب. وإذا كان الحق قد حذف - من قبل - الجواب عندما أوقفهم على النار؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى. . إنه ارتقاء في الهول.

وهكذا نرى التبكيك لهم في قول الحق لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم، فيقولون: «بلى»، لأن الأمر لا يحتاج - إذن - إلى مكابرة. و«بلى» حرف يجعل النفي إثباتاً.

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفي حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب ويصدر حكم الحق: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وهكذا يذوقون العذاب الذي كانوا به يكذبون. وذوق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك:

﴿فَدَحَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال، فهذا يعني الخسارة مرتين: مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فني وذهب وضاع، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال.

إذن: فقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر. وكل إنسان منا يريد أن يثمر عمله ويحاول أن يعطي قليلاً ليأخذ كثيراً.

وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقطع مقدار كيلتين من أرادب القمح التي في مخزنه ليبذرهما في الأرض بعد أن تحرث. وهذا يعني النقص القليل في مخزن هذا الفلاح، ولكنه نقص لزيادة قادمة؛ فعندما وضع البذور في الأرض المحروثة نجد الحق سبحانه وتعالى ينبتها له أضعافاً مضاعفة. والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل من أجل أن يأخذ الآجل الكبير.

وهذه أصول حركة العاقل الذي يزن خطواته، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته، فعليه أن يبذل الجهد. أما إن كانت الحركة لا تأتي له إلا بالقليل فلن يتحرك. ولأن العاقل لا يحب الخسارة نجده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذي سيأتي إليه. أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين: حياة مظنونة، وحياة متيقنة؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة.

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها؛ فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره في الدنيا بالضبط، وله أجل محدود. إنه فإن وذهب وميت، ولكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها، إنها دائمة، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه، أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبب وهو الله، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَّطْنَا فِيهَا﴾

[الأنعام: ٣١].

ونعلم أن «حتى» هي جسر بين أمرين؛ فالأمر الذي نريد أن نصل إليه هو غاية، كقول إنسان ما: «سرت حتى وصلت المنزل»، والمنزل هنا هو غاية السير.

والذين كفروا كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الخسران، فمجيء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف، ولكنه وصول إلى أول الخسران؛ لأن خسرانهم لا ينتهي من فور مجيء الساعة، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم. فهم يفاجأون بوقوع ما كانوا يكذبون به، ويعلمون جيداً أن ما صنعوه في الدنيا لا يستوجب إلا العذاب.

وهنا تبدأ الحسرة التي لا يقدرון على كتمانها، ولذلك يقولون: ﴿يَحْشَرُنَا عَلَىٰ

مَا قَرَّطْنَا فِيهَا﴾. أي: على تفريطنا وإسرافنا في أمرنا وذلك في أثناء وجودنا في الدنيا. وبذلك نعرف أن عدم التفريط في الدنيا والأخذ بالأسباب فيها أمر غير مذموم، ولكن التفريط في أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المذموم؛ لأنه إضاعة للوقت وإفساد في الأرض.

إنني أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع في الدنيا أمر مذموم في حد ذاته، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هي موضوع الدين؛ لأن الدنيا هي موضوع الدين أيضاً، والجزاء في الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة في الدنيا؛ فمن يحسن السلوك في الدنيا يَنَلُّ ثواب الآخرة، ومن يَسئ يَنَلُّ عقاب الآخرة. ولذلك لا يصح على الإطلاق أن نقارن الدين بالدنيا.

إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون: «دين ودنيا» فالدين ليس مقابلًا للدنيا. بل الدنيا هي موضوع الدين. أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد في زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما في الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات.

نقول: إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذي يبني الحضارات ويُثاب المصلح في الدنيا يوم الجزاء، ولنا أن نعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة، والدين يشملهما معاً؛ يشمل الدنيا موضوعاً، والآخرة جزاءً. والذين يفتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿يَحْسَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾. والأوزار المعنوية في الدنيا - وهي الذنوب - ستتجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفضيحة علنية؛ فمن سرق غنمة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره، ومن سرق بقرة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على كتفه وهي تخور، وكذلك من سرق طناً من حديد عمارة سيبعث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره، وكذلك يفضحه الله يوم القيامة.

وهكذا يكون موقف أهل النار؛ لذلك يقول الحق: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ ونعلم أنهم لا يحملون أوزاراً فقط بل يحملون من أوزار الذين اتخذهم قدوة له، فهذا وزر الإضلال، ويعرفون - جميعاً - أن حمل الوزر يتجسد في الإحساس بعبئه؛ فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم، ونعلم أن نتيجة كل عمل هي الهدف منه، فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله، ومن أساء فسيجد عمله السيئ.

إننا نرى الأمثلة العملية لذلك في حياتنا اليومية؛ فهذان شقيقان يعملان بالزراعة، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلاً: الأول منهما يقوم مع طلوع الفجر ليعتني بأرضه ويحراثها ويحمل إليها السباخ ويعتني بمواقيت الري ويسعى إلى يوم الحصاد بجهد واهتمام. والآخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون، ولا يقوم من النوم إلا في منتصف النهار، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد. ثم يأتي يوم الحصاد فينال الأول ناتج اجتهاده محصولاً وفيراً، وينال الآخر محصولاً قليلاً بالإضافة إلى الحسرة التي يتجرعها بسبب إهماله وكسله. إذن: فالعاقل هو من

يدرس ما تعطيه حركته في الحياة. ويختار نوعية الحركة في الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة، واطمئنان النفس في الدنيا والآخرة.

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يحب نفسه، ومن قام في بكرة الفجر إلى عمله يحب نفسه أيضاً، ولكن هناك فارقاً بين حب أحرق عقباه الندم، وحب أعمق لمعنى الحياة وعقباه الجزاء الوافر.



ثانياً

أهل الخلود في النار

ناس خلقوا للنار :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

وذراً، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء :
﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ٤] .

كما يقول الحق أيضاً : ﴿ يَذَرُوكُم فِيهِ ﴾ [الشورى: ١١] .

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن ؛
لأن كلاً منهما في سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن :
﴿ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن: ٣١] .

وذراً معناها بثنا ونشرنا وكثرنا، وكلمة كثير لا تعني أن المقابل قليل،
فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه
الكریم :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجِبَالَ
وَالشَّجَرَ وَالْدَّوَابَّ ﴾ [الحج: ١٨] .

إذن: كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه
وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق في ذات الآية :
﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨] .

أي: هناك كثير يسجدون ويخضعون لله . ومقابل ذلك كثير كفروا ولم
يسجدوا وحق عليهم العذاب . وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :
﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ .

فقد يثور في الأذهان سؤال هو: هل أنت خالقهم يا رب لجهنم . ماذا
يستطيعون إذن؟ ولا شيء في قدرتهم ما دمت قد خلقتهم لذلك؟

ونقول: لا . ولنلفت الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى «لام العاقبة»، وهو ما

يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكفّ عن المنهي عنه، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعي وجود طائع ووجود عاصٍ، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى - ونزّه سبحانه وتعالى: يأتي لك من يروي لمحة من سيرة إنسان ويقول لك: لماذا يقف منك هذا الموقف العدائي، أليس هو الذي أخذته معك لتوظفه؟ فتد عليه: «زرعته ليقلّعني». هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلّعك؟ لا. ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار. لكنه عزّ وجلّ خلقهم ليعبدوه، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه «لام العاقبة»، أي: ما صار إليه الأمر غير مرادك منه، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى:

﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَاقْلِبْهُ فِي آيَةٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ * فَالْتَقِطْهُ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴿[القصص: ٧، ٨].

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا، لأن زوجة فرعون قالت:

﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْسِلُوهُ عَلَيَّ أَوْ يَفْعَلْنَا﴾ [القصص: ٩].

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هي أن يكون قرة عين، لكنه صار عدواً في النهاية، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة.

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار، في قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾.

لأن علة الخلق في الأصل هي العبادة، والعبادة تقتضي طائعاً وعاصياً، فالذي يطيع يدخل الجنة، والذي يعصي يدخل النار، ولله المثل الأعلى، أذكركم بالمثل الذي ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير: إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإذا شئت أقول لك عليهم وأحددهم. لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم في إجابات الطلبة، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير. وعلى ذلك فإن قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني أننا نشرنا وبثنا لجهم كثيراً من

الجن والإنس، وهم من يُعرضون عن منهجنا، ثم يأتي الحق بالحيثيات لذلك وهي:

أولاً: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وثانياً: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وثالثاً: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولقائل أن يقول: إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم؟ وما دامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم؟ وكذلك ما دامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون؟ ونقول: لا، لم يخلقهم الله للعذاب، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان. وكل منهم يرى غير مراد الرؤية، ويسمع غير مراد السمع.

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن.. أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات. ونعلم أن الإدراكات تأتي بواسطة الحواس الخمس، فنحن نعرف باللمس أن الحرير ناعم، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق.

إذن: لكل وسيلة إدراك، وهي من المحسّات، وبعد أن تتكون المحسّات يمتلك الإنسان خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصبح قضية عقلية منتهية ومسلاً بها.

وكلنا يعرف أن النار مُحْرِقَة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه، فيعرف أن النار محرقة، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى. إذن: فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتهما الحواس الظاهرة، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل. وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العَضَل؛ لأنك حين تحمل شيئاً قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقیلاً.

دركات النار وأصحابها:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥].

لنرّ دقة التربية الإيمانية؛ فلم يأت الحق بفصل في كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين، لا، بل يأتي بلمحة عن المنافقين ثم يأتي بلقطة أخرى عن المؤمنين، حتى ينقّر السامع من وضع المنافق ويحببه في صفات المؤمن، وهنا يقول: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾. والدرك مرة تنطق

بسكون الرائ، وتنطق مرة بفتح الرائ، والدرك دائماً في نزول. والأثر الصالح يميز لنا ذلك بالقول:

«النار دركات كما أن الجنة درجات»^(١).

فالنزول إلى أسفل هو الدرك، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج. وفي عصرنا نضع مستوى سطح البحر كمقياس؛ لأن اليابسة متعرجة، أما البحر فهو مستطرق.

ونستخدم في الأمر الدقيق - أيضاً - ميزان المياه، وعندما تسقط الأمطار على الطرق تكشف لنا عمل المقاول الذي رصف الطرق، هل أتقن هذا العمل أم لا؟ ونحن نلقي دلواً من المياه في الحمام بعد تبليطه حتى ينكشف جودة أو رداءة عمل العامل، إذن: هناك شيء يفصح شيئاً آخر. والقول المصري الشائع: «إن الذي يقوم بعمل المحارة هو الذي يكشف عامل البناء». فلو أن الحائط غير مستو؛ فعامل المحارة مضطر أن يسد الفجوات والميول حتى يستوي سطح الحائط. . . والذي يكشف جودة عامل المحارة هو عامل الطلاء؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملأ المناطق غير المستوية في الحائط، وإما أن يجد الأمر سهلاً. والذي يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هي أشياء طبيعية مثل الغبار. والعامل الذي يريد أن يغش هو الذي يسرع بتسليم البناء؛ لأن الغبار الذي يوجد في الجو يمشي في خط مستقيم، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفصح من لا يتقن عمله، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعاً إلى الحق سبحانه مفضوحين، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحاً، فهؤلاء يسترهم الله بعملهم الصالح.

﴿إِنَّ التَّٰفِثِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التي لا ثبات لها على رأي، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذي يعيشون فيه فقال عنهم:

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

والذبذبة لون من أرجحة الشخصية التي لا يوجد لها مقوم ذاتي. وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه، يوضح: أن جزائي لهم حق يناسب ما فعلوه.

وقد هيأ الحق الأذهان ليجعلها مستعدة لقبول الحكم الذي أنزله عليهم حتى لا

(١) تفسير الإمام ابن كثير.

تأخذ الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم، وسبحانه حين يحكم حكماً فهو ضمن بقيوميته ووحدانيته ألا يوجد منازع له في الحكم. وكان من الممكن أن يقول: سأجعله في الدرك الأسفل من النار. ولن توجد قوة أخرى تنتشل المنافق؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي: أنه حكم مشمول بالنفاذ، ولن يُعَدِّله أحد من خلق الله، فسبحانه له الملك وحده، وقد جعل سبحانه الملك في الدنيا لأسباب الناس أيضاً، أما في الآخرة فلا ملك لأحد ولا مُلك لأحد.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المنافقين أن يعدلوا رأيهم في المسألة وأن يعلنوا إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه، إنه - سبحانه - أتاح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها فلم يغلق الباب دونهم بل قال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

إذن: فمن الممكن أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة، وحتى لا يظن أحد أن الحكم هنا نهائي، وذلك حتى لا يفقد الإنسان نفسه ويتورط في مزيد من الشرور؛ لذلك قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: تاب عن نفاقه الأول، وإذا ما كان قد ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويخلص لله نيةً وعملاً: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾. إذن: فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هي التوبة، وإصلاح ما أفسد، والاعتصام بالله، وإخلاص دينه لله.

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق، وألا يترك المنافق الفساد الذي صنعه نفاقه بل عليه أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق. الاعتصام بالله كيف يكون؟ لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين.. أي: أن نفس المنافق تطمئن إلى هؤلاء الكافرين فيفزع إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم؛ لذلك يوضح الله: انزعوا هذه الفكرة من رءوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده لأنه لا يُجِير أحد على الله، واجعلوا العزة لله والمرجع إليه وحده.

والملاحظ أن الذي يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين الإيماني بالله، لكن الحق يقول: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فلماذا أكد على الإخلاص هنا؟ لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولاً. ونعلم أن القلب قد يذنب، فذنب الجارحة أن تعتدي، مثال ذلك: العين تذنب حين تعتدي على محارم الآخرين،

واللسان يذنب إن تعرّض بالسبّ أو الشتم للناس. إذن: فكل جارحة لها مجال معصية، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور. إذن: فقلوبه الحق: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص في التوبة عن النفاق، والإخلاص محلّه القلب.

فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها. أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص. وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم يغمسوا في النفاق. وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين، فكأن الأصل في التنعيم وفي نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين. ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه. وقد جعل الحق الجزاء من جنس العمل. وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين ظواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظاهرياً وشكلياً من المسلمين، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم. وعندما تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين لله جعلهم الله مع المؤمنين، ويعطي سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً.

ويقول الحق سبحانه:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥١].

و: ﴿الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم؛ لأننا قد نجد من يقول: وهل هناك كافر حق، وكافر غير ذلك؟ نعم. فالذي لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر، لأنه لم يجد الرسول الذي يبلغه. أما الذي جاءه رسول وله صلة إيمانية به؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحي، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظيع مؤكد: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

ونلاحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يعزلهم عن الحكم والجزاء الذي ينتظرهم، بل يوجد الحكم معهم في النص الواحد. ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوّفه. ويقول رسول الله ﷺ: «إن الجنة عرضت عليّ ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت»^(١).

(١) رواه البخاري في الأذان، وابن ماجه في الإقامة، وأحمد.

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول ﷺ، ولو شاء الرسول أن يأتي للمؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل. فإياكم أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم، أو كم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعيماً على قدر عددهم، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون ولهم مكان في الجنة، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن في النار. فيأتي المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن في الجنة التي سبق إعدادها لمن كفر. مصداقاً لقوله الحق: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

فسبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذي آمن ومن الذي كفر، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذي يأتي إليه من البشر قد يكون مؤمناً، لذلك أعد لكل منهم مكاناً في الجنة، أو أن يكون كافراً، فأعد لكل منهم مكاناً في النار. ونجد السؤال في الآخرة للنار:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

فالنار تطلب المزيد للأماكن التي كانت مُعدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله. ويرث الذين آمنوا الأماكن التي كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وفرق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض. ويأتي من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون، هذا هو المقابل المنطقي.

والمجيء بالمقابلات أدعى لرسوخها في الذهن. مثال ذلك: عندما ينظر مدير المدرسة إلى شابين، كل منهما في الثانوية العامة، فيقول: فلان قد نجح لأنه اجتهد، والثاني قد خاب وفشل. هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الإثنين.

الكافرون والظالمون:

يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ والكفر هو ستر الوجود الأعلى، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشري لا يؤدي لهم متاعاً ولا سعادة في حياتهم الدنيا، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم. ومن بعد ذلك يقودهم

هذا المنهج إلى عذاب الآخرة. والذي كفر ستر وجود الله وحرّم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذي يأتي به الله. إنه بذلك قد ضلّ ضلالاً بعيداً. وسبحانه القائل:

﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا تُصَلُّوا وَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخْشَوْنَ كُنُوزَهُمْ ۚ وَالَّذِي يُغْنِي عَنْكُمْ وَالَّذِي يُعَذِّبُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ ۚ﴾ [طه: ١٢٣].

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق:

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

والذي يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكاً ضيقة شديدة. ولا يظن ظان أن الذي يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها، لا؛ لأن الذي يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويعيش فيه ولا ينفك عنه من بعد ذلك، وهكذا يظلم نفسه.

وقد يقول قائل: لقد ظلموا أنفسهم، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم. فمن هو الظالم ومن هو المظلوم؟ كل واحد منهم الظالم، وكل ولد منهم المظلوم؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم.

وفي حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة لملكة الشهوات أن تظلم ملكة القيم. والإسلام إنما جاء ليوازي بين الملكات لتتساند في النفس البشرية، فلا يطغى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

هذا هو حكم الحق في الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم، لن ينالوا مغفرة الله وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً.

تبديل جلود الكافرين في النار:

يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَايَنُونَنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُفَّاءً نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

و ﴿نُصَلِّيهِمْ﴾ من الاصطلاء، قد يقول قائل: ما دام يُصَلِّي النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهي إلى عدم، وحين ينتهي إلى عدم إذن فلا يوجد ألم!

ونقول: لتنبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا الأمر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. . . إذن: فالعذاب ليس كنار الدنيا، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهي المسألة. أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدي دائم مكرر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. . . فإذا ما حرّقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتي، أهى عين الأولى أم غيرها؟ وحتى أوضح ذلك: أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً، ثم تقول: أنا صنعت من الخاتم خاتماً آخر، فالمادة واحدة أيضاً، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد «دُمْل» يتعبه ولا يقدر على ألمه. . . وبعد ذلك يغفل فينام، بمجرد أن ينام فلا ألم. لكن عندما يستيقظ يتألم من جديد.

إذن: فالألم ليس للعضو بل للنفس الواعية، بدليل أننا عندما ارتقينا في الطب، قلنا إن النفس الواعية نستطيع أن نخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به، ويفتح «الدُمْل» بالمشروط ولا يحس صاحبه بأي ألم. وهكذا تجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب، إنما هي موصلة للمعذب، والمعذب هو النفس الواعية. . . بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة. . . تشهد الجلود والجوارح، وستكون آلة لتوصيل العذاب. . . ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب.

إنه نظام إلهي فلا تتعجبوا من القرآن، فإن العلم كلما تقدم هدانا إلى شيء من آيات الله في الكون. أنتم - الآن - تخدرون النفس الواعية وتشقون الجسد بالمشارط كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم، وعرفتم أن الألم ليس للعضو، إنما الألم للنفس الواعية، إذن: فكل الجوارح هي آلات توصل الألم للنفس الواعية، وتكون مسرورة؛ لأن النفس الواعية تعذب، وهذه يشبهونها - مثلاً - بواحد عنده «حكة» في جلده، فيهرش، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذاً.

إذن: فقلوه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية، وهكذا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

جزاء الكافرين النار:

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضَحُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ

حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿[الأنفال: ٣٦].

ويبين المولى في هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة، وكأن الحق يغري الكافر بأن يتمادى في الإنفاق ضد الإيمان، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ١٠].

وحين نسمع قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ تنزل النفوس رهبة من تلك الصحبة التي نبرأ منها، فالصحبة تدل على التلازم وتعني الارتباط معاً، وألا يترك أحدهما الآخر؛ كأن الجحيم لا تتركهم، وهم لا يتركون الجحيم، بل تكون الجحيم نفسها في اشتياق لهم. وللجحيم يوم القيامة عملاق؛ **العمل الأول**: الصحبة التي لا يقدر الكافر على الفكك منها، **والثاني**: لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك منها. ويقول الحق عن النار:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وحين سمعوا قول الله سبحانه تعالى:

﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

[الأنفال: ٣٦].

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة، ومصادق الأحداث يؤكد أن كل ما يجيء به القرآن الكريم حق.

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك؟ ولم يدخروا أموالهم؛ وقد نصر الله دينه؟

إذن: هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء. وحين يأتي القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ أي: أن الإنفاق سيكون في المستقبل، والاستقبال له مرحلتان: استقبال قريب، واستقبال بعيد. فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾، وأما إن كان بعيداً فيقول: فسوف ينفقونها، مثلما قال القرآن أيضاً:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ آلِي كَاؤُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله، وجهراً من الصحابة بالخبر، وأعلمهم القرآن الكريم أيضاً، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذي صار من بعد ذلك خبراً يروي دليل افتقادهم لصفاء الفطرة؛ لذلك تجيء لهم الحسرة بعد أن

أنفقوا المال، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم. وينهي سبحانه وتعالى هذه الآية فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التي تحدث للكفار من عذاب عظيم في جهنم، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار، لكنه يخوفهم ويذهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا في جهنم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التي تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى: هذه المعارك إنما هي أمر مراد من الله تعالى: لأن الزلزلة التي تحدث، حتى لمن آمن، إنما هي تصفية لعنصر الإيمان، ومثال ذلك ما حدث في الإسراء، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل: أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس في ليلة؟! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبي بكر يقول: إن كان قد قال فقد صدق. إن الثابت والقوي إيمانه يصدق، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب. وهكذا كانت أحداث الإسلام، فقد جاءت كلها لتمييز الخبيث من الطيب، وتجمع الخبيث بفضه إلى بعض ليصير ركائماً ثم يضعهم الله في النار.

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص، مثلما تضع الحديد في النار لتستخرج منه الخبث ويصير صافياً، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين، ويقوى إيمانهم؛ لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة.

ومثل هذه التصفيات تحدث في المجال الرياضي، فحملة الأثقال - على سبيل المثال - يدخلون في مباريات أولية، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذي يكون مؤهلاً لأن يدخل المباريات الدولية، ليبقى الأقوى:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالاً لأحداث تميز الخبيث من الطيب، فالناس في الأحوال العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا

يواجهون خطراً؛ ادَّعوا الشجاعة والكرم والشهامة، وادَّعوا الإيمان القوي المستعد لأي تضحية في سبيل الله، فإذا جاءت الأحداث فهي الاختبار الحقيقي لما في القلوب. فقد يقول إنسان لصديقه: أنا ومالي لك. وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة، يتهرب منه. فما الذي يحدد - إذن - صدق الحديث عن النفس؟ إنها الأحداث. وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث، وزال الطلاء عن ذوي العقيدة الهشة؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة. وحين يميز الله - سبحانه - الخبيث من الطيب، فهو سبحانه وتعالى يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث. والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع متعددة، فهذا خبيث في ناحية، وذلك خبيث في ناحية أخرى، وثالث خبيث في ناحية ثالثة، وغيرهم في ناحية رابعة، وخامسة إلى ما شاء الله، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه في النار جميعاً.

وفي قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

نجد أنه قد حذف جواب «لو»، والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمراً عظيماً فظيماً، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار في المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية؟ كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه، فإذا أدار وجهه ليتقي الضرب، يضربونه على ظهره، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة؛ فالمقبل عليهم من المؤمنين يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربه على ظهره وعلى رأسه.

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين. ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة. أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة. ويقال: إن الملائكة معهم مقامع من حديد. أي: قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم. ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

إذن: فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جداً ولكن هذا الضرب رغم قسوته، والشرر الذي يخرج منه لا ينجيهم في الآخرة من عذاب الحريق.

ولذلك أقبل صحابي على رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، لقد رأيت في ظهر أبي جهل مثل شراك النعل، أي: علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده، فقال رسول الله ﷺ: ذلك ضرب الملائكة، وجاء صحابي آخر وقال: يا رسول الله، لقد هممت بأن أقتل فلاناً فتوجهت إليه بسيفي، وقبل أن يصل سيفي إلى رقبته رأيت رأسه قد طار من فوق جسده. فقال له رسول الله ﷺ: سبقك إليه الملك. وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَبْعَثُ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ بِجُوهِهِمْ وَأَدْبَارِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

أي: أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاًماً. فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أخذ وعُذِّبَ ربما تحمّل العذاب بجلد، ولكنّه إذا ضُرب أمام الناس كان ذلك أشدّ إهانة له، فإذا كان الضرب من الذي وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر.

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار، بل يدخلون إلى أشدّ العذاب يوم القيامة، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله، ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد في الأرض.

ويقول الحق سبحانه:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ يَمَآ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَآؤُهُمْ نَارٌ وَيَسَسَ مَتَوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وألقى الحق في قلوبهم الرعب بالفعل. فساعة قالوا لأبي سفيان: إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل، وقادم إليكم في حمراء الأسد. ماذا صنع أبو سفيان وقومه؟ ألقى الله الرعب في قلوبهم وفرّوا.

وكلمة «سنلقي» مأخوذة من «الإلقاء» وهو لا يكون إلا لمادة وعين. ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول: «فألقي الألواح» هذه حجة مادية. قال تعالى:

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

إنه أمر مادي... ونحن نقول: ألقى الحجر. الحق سبحانه يقول:

﴿فَأَلْقُوا جِهَانَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

إنها حبال، أي: أمر مادي.. وسبحانه وتعالى يقول عن الوحي لأم موسى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

فالإلقاء أمر مادي، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعاً، فقال: أنا سأجمع الرعب وأضعه في القلب، ويكون عمله مادياً. فإذا ما استقر الرعب في القلب جاء الخور، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلاً، فيقول: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فكانه مثل لنا الرعب، والرعب أمر معنوي وهو التخوف من كل شيء، فأوضح: بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه في القلب، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ انظروا إلى التعبيرات الصادرة عن الله. إنه هنا يأتي بـ«نون العظمة»، «سنلقي» ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتي بـ«نون العظمة» كقوله:

﴿إِنَّا لَنَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة، فنأتي بـ«نون العظمة»؛ لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة، وننزله بعلم وننزله بسمع، وننزله ببصر، وننزله بقيومية، وننزله بقبض، وننزله ببسط، فقلوه: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فكان نون العظمة تأتي هنا، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول: «إني أنا الله». لم يقل: إنا، ولكن في الإنزال يقول:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

لأن هذه عملية عظيمة جليلة؛ فـ«نون العظمة» تأتي فيما يكون من شأنه حدث يُفعل؛ وهذا الحدث الذي يُفعل يحتاج لصفات كثيرة، لذلك قلنا ساعة تبتدىء أي عمل تقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» لماذا؟ لأن العمل الذي ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله، ويحتاج إلى حكمة، أي: أنه يحتاج إلى صفات كثيرة، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذي يُقْدِرُك؛ وباسم العليم الذي يعلمك، وباسم الحكيم الذي يحكمك. وكل هذه الصفات ستتكاثر في إبراز العمل كي يرحمك حتى في الاستعانة، فلا يقول لك: هات الصفات كلها التي يحتاج إليها فعلك؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها، فيقول لك: هات الاسم

الجامع لكل صفات الكمال. قل: «باسم الله»، وهي تضم كل صفات الكمال.

إذن: فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت «نون العظمة» التي نسميها «نون الجمع» نجد أننا نقول: «نحن» للجماعة، أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه، ولذلك نلاحظها حتى في قانون البشر. ألم يقولوا في الملكية: «نحن الملك»، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة. إنما هي «نون العظمة»، العظمة الجامعة لكل صفات الكمال التي يتطلبها أي فعل من الأفعال، لذلك قال سبحانه:

﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه. إذن: فتأتي نون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة.

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بإلقاء الرعب، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقي في قلوبهم الرعب، لماذا؟ «بما أشركوا». إن الإشراك بالله هو الذي جاء لهم بالرعب؛ لأن الله يفعل، والشركاء لا يفعلون. ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم. فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى، ولو كان لهم آلهة قادرة - كما يدعون - لقالوا لتلك الآلهة: رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع، بل ضره أقرب من نفعه.

﴿يِمَّا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة «السين واللام والطاء» ونقول: فلان تسلط على فلان، أي: أرغمه بقدرته عليه. ويقولون: فلان سليلت اللسان، أي: قادر على أن يسب، إذن: فالسلطة هي: القهر، والقوة التي ترغم على الفعل، وفي المعنويات هي الحجة والبرهان. والمؤمنون دائماً ذوو سلطان من الله؛ لأنهم إن انتصروا مادياً فذلك سلطان القهر، وإن انهزموا مادياً فعندهم سلطان الحق والدليل؛ ولذلك قلنا سابقاً: إن إبليس يأتي يوم القيامة ويقول:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقلنا: إن السلطان نوعان: إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية.

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راضٍ عن الفعل. أما سلطان الدليل فيقتنعك بأن تفعل؛ فتكون قد فعلت برضاك، فمرة يأتي السلطان بمعنى: قوة تقهرك على أن تفعل الفعل وأنت

مرغم. إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل، فيأتي الشيطان ليقر على نفسه في الآخرة ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ليس معي قوة تقهركم على المعصية، وليس معي دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية، لا هذا ولا ذاك، فما الحكاية إذن؟ قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾. أي: أنكم أطعتموني واستجبتم لدعوتي بلا سلطان قوة أقهركم به على شيء، ولا سلطان دليل أفنعمكم به.

وينهي الحق الآية بقوله: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: أن المرجع الذي يأوون إليه هو النار، والمأوى هو الموضع الذي ترجع أنت إليه. وكأن في هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقيه على النار فهو - أي: الكافر - مأواه ومثواه الذي يرجع إليه هو النار. ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق في بعض الأساليب: ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقوله: ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ و﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾. أي: مثوى لا مفر بعده أبداً، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه، لكن المثوى الذي سيبقى خلوداً للظالمين هو النار وهو بئس المثوى.

ويقول الحق سبحانه:

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾. والمقصود الإيمان بما جاء في منهج إبراهيم والرسول الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك، أو «منهم» أي: من أهل الكتاب من آمن برسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار مثلاً، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: أن منهم من كفر بمنهج الله؛ لذلك يقول سبحانه بعدها: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ فكأن نتيجة الصّد عن المنهج أنه لا يأتي بعده إلا العذاب بجهم ليصلوا بنارها، وتكون مسعرة عليهم جزاء على ما فعلوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

هذه من أرجى الآيات في كتاب الله، ولذلك فحينما سئل رسول الله ﷺ: ما موجبات الإيمان؟ أي: ما الذي يعطينا الإيمان؟ فقال ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة».

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١).

ونحن نقول: إن من يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العقدية العظمى، وقد

أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً. هب أن جماعة قاموا بحركة، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة في نفع خاص له، وواحد آخر استغل الحركة في أن تكون له لا للآخر، أي: ينقلب عليه، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى، أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ولكنه يظلم الناس فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه وليس على الخيانة العظمى. إذن: ففي قانون البشر أيضاً خيانة عظمى، وفيه انحراف وهو الذي لا يتعرض للسيادة، لكن أي حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه.

فالحق سبحانه وتعالى يوضح: أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذي لا شريك له؛ فأنت تدخل حصن الأمان، ولذلك يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«أشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاك منهما إلا دخل الجنة»^(١).

وأبو ذر عندما قال للنبي ﷺ في محاورة بينهما حول هذه الآية، قال له: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً) ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر».

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله، فهل ساعة قال رسول الله: على رغم أنف أبي ذر؛ هل هذه أحزنت أبا ذر؟ لا، لم تحزنه، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبي ذر، وهو مسرور، لماذا؟ لأنها فتحت باب رحمة الحق، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها؟ فلا بد أن يكون لها تمييز.

عدم قبول الفداء ممن كفر:

يقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُ مَعَكُمْ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقَبَّلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والقصاص والتقتيل والتقطيع، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقي الله ونبتغي إليه الوسيلة ونجاهد في سبيله حتى نفلح، وكان لا بد أن يأتي لنا الحق بالمقابل، فالعقاب الذي جاء من قبل كقصاص وقتل هو عقاب دنيوي. ولكن ما سيأتي في الآخرة أدهى وأمر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا نُقِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التي تتكبر في الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالجبروت، فماذا عن موقفهم يوم القيامة؟ قد أقمت الجبروت بقوتكم على غيركم، وها هي ذي القُوَّةُ تضيع وتفلت. لقد كانت القوة تعيش معكم في الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم. ولم تضنَّ عليكم سُننُ الله أن ترتقوا، وسبحانه قد خلق السُّننَ، ومن يبحث في أسباب الله ينل نتيجة ما بذل من جهد، لكن ها هو ذا يوم القيامة، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية. وأن قوتكم لم تكن إلا عطاءً من الله. ها أنتم أولاء أمام المشهد الحي، فلو أن ما في الدنيا جميعاً معكم وحتى ولو كان ضعف ما في الدنيا وتريدون أن تقدموه فدية لكم من عذاب جهنم فالله لا يتقبله، وتلك قِمةُ الخزي، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم.

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً، ولكن هي في منتهى الجِدِّ. وعلى الإنسان أن يقدّر العقوبة قبل أن يستلذ بالجريمة. والذي يجعل الناس تستشري في الإسراف على أنفسهم، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة. ولو قارن الإنسان - قبل أن يسرف على نفسه - العقوبة بالجريمة؛ لما ارتكبها. وكذلك الذي يكسل عن الطاعة؛ لو يقارن الطاعة بجرائها لأسرع إليها.

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نفترض أن إنساناً في صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح، واستدلَّ على التفاح بأن رأى تفاحة عطبة واقعة على الأرض، وقال الرجل لنفسه: هأنذا أرى مصارع الناس؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته. وذلك تهاجمه الذئاب. وثالث يتوه عن الطريق. كل ذلك على أمل أن في الشجرة ثماراً. ولا بد لي من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار. والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة.

وأيضاً: الطالب المجتهد الذي يتغلب على النعاس ويتوضأ ويصلي ويخرج إلى مدرسته في برد الشتاء ليحصل الدروس، ويعود إلى المنزل لتقدّم له أمه الطعام،

ولكنه مشغول بالدرس. إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد؛ لذلك فكل تعب في سبيل التعلم صار سهلاً عليه، ولو أهمل ونام ولم يقيم مبكراً إلى المدرسة، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع في الطرقات مع أمثاله؛ يكون في مثل هذه الحالة غير مُقدّر للنتيجة التي تقوده إليها الصَّعَلْكة. والعيب في البشر أنهم يعزلون العمل عن نتيجته، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها، والطاعة عن ثوابها. إننا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد في طاعة.

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين في الدنيا وهم في نار جهنم، هم بطشوا في الدنيا ونهبوا، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما في الدنيا - على الرغم من أن هذا مستحيل - وفوق ذلك أخذ مثل ما في الدنيا معه ويرى أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه ﴿مَا نُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وتلك هي قمة الخزي التي يجب أن يتعد عنها الإنسان.

ويقول الحق سبحانه:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وكلما مَسَّهم لَفْحُ النار يريدون أن يخرجوا منها، لكن كيف تأتي لهم إرادة الخروج من النار. لا بد - إذن - أن لحظة لفحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى. ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أماننا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ [الكهف: ٢٩].

هذا القول يُوحى أولاً بأن رحمة ما ستصل إليهم، ولكن ما يأتي بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسده:

﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمَهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذه قمة الهول. وهناك فرق بين الابتداء المُطْمَع والانتهاء المؤيس.

مثال ذلك: السجين العطشان الذي يطلب كوب ماء. ويستطيع السجان أن يقول له: لا. ليس هناك ماء. أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له: سأتي لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال، ويمد السجين يده لكوب الماء، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً. هذا هو الابتداء المُطْمَع والانتهاء المؤيس. وكذلك رغبتهم في الخروج من النار؛ فلا إرادة لهم في الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقلب ألسنة اللهب لهم، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء: ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ [آل عمران: ٢١].

وتشير البُشرى في النفس الأمل في العفو، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هي:

﴿يُعَذَّبُ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٢١].

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم المؤيس بعد الرجاء المطمع.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

أي: أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعي الإغاثة، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقذهم ولكن بما يزيد عذابهم.

وساعة يسمعون «يغاثوا» تنفرج أساريهم وتسكن وتطمئن نفوسهم، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماعهم: ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾، إذن: فكلمة «مثوبة» تأتي لهم بشيء من الانبساط يتلوه العذاب.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْنَصَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

أي: أنهم لو طبقوا التوراة والإنجيل دون تحريف، وآمنوا بالقرآن لكان خيراً لهم. والتوراة كتاب اليهود، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع وهو القرآن الكريم، وأراد لهم الحق بالإيمان بما جاء في التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله ﷺ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل - من قبل تحريفهما - إنما يقود إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزله الله إليه. واليهود - كما عرفنا - هم الذين توعدوا العرب بمجيء رسول الله، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبد الله «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به».

لقد كانوا - أهل كتاب - يملكون المدخل الطبيعي للإيمان بالقرآن وهو الإيمان بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح؛ لأن فيهما نعت رسول الله ﷺ. وكان سيدنا عبد الله بن سلام - وكان من أحبار اليهود - يقول: «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد». وحينما يعد الحق أهل الكتاب إن آمنوا واتقوا بأن يكفر عنهم السيئات ويدخلهم جنات النعيم، فسبحانه لن يُكفر عنهم سيئاتهم ويقيهم من عذاب النار فحسب، ولكن سيمحو هذه السيئات ويدخلهم الجنة. وسبحانه هو الأعلم بهم، ويعلم أن منهم الماديين المرتبطين بالدنيا؛ لذلك جاء لهم بخير الإيمان في الدنيا فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فسبحانه يمد لهم أيضاً يد الأسباب في الدنيا، والمؤمن هو من يرتقي في الأخذ بالأسباب فيأخذ نعيم الدنيا والآخرة، أما الكافر فيأخذ الأسباب دون أن يشكر الخالق عليها.

لقد أراد الحق لأهل الكتاب أن يحسنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وبصحيح الإنجيل حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعي للإيمان بالقرآن، فهذا هو السبيل إلى تكفير السيئات بالألا يدخلوا النار، بل ويدخلون الجنة في الآخرة.

لقد قال اليهود:

﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

لقد ظنوا أن الحق سيعاقبهم فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أي شيء آخر. وكان هذا ظناً خاطئاً. إن المنهج لم يأت لينجي أناساً بذواتهم مهما فعلوا، ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل. ومن العجيب أنهم ظنوا الظن الخاطيء ولم يقوموا بحساب الأمر بحسابه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق في العد والحساب، فالحساب هو الذي يضمن صحة أمر أو يكذبه. ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعة يؤاخذهم فهو يقول: لك كذا وعليك كذا. لكن ساعة يرزقهم فهو يرزقهم بغير حساب.

تبشير المنافقين:

يقول الحق سبحانه:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتي من أصيل في الإيمان، بل تأتي من متلون في الإيمان، تبدو له أسباب فيؤمن، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر. وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء. فيقول الحق: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ونحن نعلم أن المنافق هو الذي جمع بين أمرين: إعلان إسلام، وإبطان كفر. والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهي إحدى جحوره التي يستتر ويختفي فيها، واليربوع حيوان صحراوي يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين لجحره؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر. فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ والبشارة هي الإخبار بشيء يسر سيأتي زمنه بعد. وهل المنافقون يشيرون؟ لا. إن البشارة تكون بخير؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يشيرون، ولكن لله في أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب. فلو قال: أنذرهم بعذاب أليم، لكان الكلام محتماً، فهم - كمنافقين - مستعدون لسماع الشر. ولكن الحق يقول: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية، وهي من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية. ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة. فإذا جئت إلى بخيل مثلاً، وقلت له: مرحباً بك يا حاتم. ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائي أصل الكرم. وبذلك نقلت البخيل نقتلته: نقلة من وضعه كبخيل؛ ثم السخرية منه؛ لأن قولك لبخيل ما: يا حاتم هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سام ورفيع وعظيم تحقيراً له واستهزاء به، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير. وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً، وقلت: مرحباً بك يا قزم. هذه هي المفارقة، كما تقول لقصير: مرحباً بك يا مارد. أو إذا جئت لطويل لتصافحه، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك... هذه أيضاً مفارقة. وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هي السخرية والتهكم.

وهذه المفارقات إنما تأتي للأداء البلاغي للمعنى الذي يريده المتكلم، فقوله الحق: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ معناه: أنكم أيها المنافقون قد صنعتُم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون، وكأنكم نافقتُم لأنكم تحبون العذاب. وما دمتُم قد نافقتُم لأنكم تحبون العذاب، فأنا أبشركم بأنكم ستعذبون. والذي ينافق ألا يريد من ذلك غاية؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هي العذاب، فقال الحق: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

إنك حين تريد تصعيد أمر ما، فأنت تنقل مخاطبك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض، مثال ذلك: إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء، من الممكن أن يقول له الحارس: لا. ويجعله يئس من أن يأتي له بكوب ماء، أما إن أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتي بكوب ماء ويقربه منه، فإذا مد السجين يده لياخذ كوب الماء فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض. هذا هو تصعيد العذاب. وحين يقال: ﴿بَشِّرِ﴾ فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً يسر، فإذا قال الحق: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فمعنى ذلك أن الغم يأتي مركباً. فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً، ثم أنهاها بالندارة.

وعلى سبيل المثال - ولله المثل الأعلى - يقول الأب لابنه: استذكر يا بني حتى لا ترسب، لكن الابن يستمر في اللعب ثم يقول الأب: يا بني لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر. ولا يأبه الابن لكلام الأب، ثم يأتي الامتحان ويذهب الأب يوم إعلان النتيجة، فيكون الابن راسباً؛ فيقول الأب لابنه: أهنئك لقد رسبت في الامتحان! فقلوه: «أهنئك» تبسط نفس الابن؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار، ويسمع بعدها «لقد رسبت» فتعطيه الشعور بالانقباض.

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿بَشِّرِ﴾ لها علاقة بالمدلول الاشتقاقي؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه؛ فإن كان الانفعال حزناً فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط. وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهُّم، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر، أو بخبر يحزن ويسيء، ولكنها غلبت على الخبر السار، وخضت النذارة بالخبر الذي يحزن وتنقبض النفس له.

والبشارة - كما قلنا - توحى بأن هناك خبراً ساراً، فيأتي الخبر غير سار. وكما يقول الحق في آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنه يصعد العذاب معهم:

﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ [الكهف: ٢٩].

ساعة نسمع: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ﴾ نفهم أن برداً يأتي لهم أو رحمة تهب عليهم، ولكن الإغاثة التي تأتي لهم هي: ﴿كَأَلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩].

ويتساءل السامع أو القارئ: هل هذه إغاثة أم تعذيب؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب؛ فالماء الذي يعطى لهم كالمهل يصعد الألم في نفوسهم.

والعذاب - كما نعلم - يأخذ قوته من المعدب، فإن كان المعدب ذا قوة محدودة، كان العذاب محدوداً. وإن كان المعدب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوي وهو الله فكيف يكون؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم، ومرة بأنه مهين، ومرة بأنه عظيم، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها، والعذاب العظيم هو العذاب الذي يبلغ القمة، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعدب يتجلد، وعذاب الحق يفوق قدرة متلقي العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم؛ لأن درجة تحمُّل أي إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم، ومع العذاب العظيم، نجده أليماً أيضاً، فيكون

العذاب الأليم العظيم مؤلماً للمادة، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبية ثم تنهار، حينئذ يكون العذاب مهيناً.

ولأن المنافقين والكفار غارقون في المادية آثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمادة.

البشارة بالعذاب :

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر في أمده يمكن أن يؤتى فيه الفعل الذي يسر؟ إن التبشير دائماً يكون للفعل الذي يسر، كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يسر له المؤمن، ويعطي الحق الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة والبشارة.

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجَّهاً لأبناء الذين فعلوا ذلك؟ لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لنزول هذه الآية. إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط، ويبشرهم الحق بالعذاب الأليم؛ لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صواباً. فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صواباً فلهم أيضاً البشارة بالعذاب.

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضاً، ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم، رغم أن البشارة غالباً ما تكون إخباراً بالخير، وعملية العذاب الأليم ليست خيراً؟ إن علينا أن نعرف أنه ساعة تسمع كلمة «أبشر» فإن النفس تتفتح لاستقبال خبر يسر، وعندما تستعد النفس بالسرور وانبساط الأسارير إلى أن تسمع شيئاً حسناً يأتي القول: أبشر بعذاب أليم. ماذا يحدث؟ الذي يحدث هو انقباض مفاجيء أليم، ابتداء مطمع «فبشرهم» وانتهاء مُيسس: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد، لأن الحق لو أنذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن يقول: «فبشرهم» لكان وقوع الخبر المؤلم هيناً. لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعاً صاعقاً، ومثال لذلك قول الحق:

﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

إنهم يستغيثون في الآخرة، ويغاثون بالفعل، ولكن بماذا يغيثهم الله؟ إنه يغيثهم بماء كالمهل يشوي الوجوه. إننا ساعة أن نسمع «يغاثوا» قد نظن أن هناك

فرجاً قادمًا، ولكن الذي يأتي هو ماء كالمهل يشوي الوجوه. وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لأتباع القتلة الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتلة. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكلمة «عذاب» تعني إيلام حي يحس بالألم. والعذاب هو للحَيِّ الذي يظل متألماً، أما القتل فهو ينهي النفس الواعية وهذا ليس بعذاب، بل العذاب أن يبقى الشخص حياً حتى يتألم ويشعر بالعذاب، وقول الحق: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يلفتنا إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا فَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

أي: أن الحق يديم عليهم الحياة ليديم عليهم التعذيب.

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل، ونظرية «الحسّ» - كما نعرف - شغلت العلماء الماديين، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ؟ منهم من قال: نحن نحسّ بالمخ. نقول لهم: لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها، بدليل أنه عندما يأتي واحد أمام عيني ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أغلق عيني أي: أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحسّ. وبعض العلماء قال: إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكي والحركة العكسية، ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد؛ بدليل أنك عندما تأخذ حقنة في العضل، فالحقنة فيها إبرة، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد أن تنفذ الإبرة من الجلد، وبعد ذلك لا تحس.

إذن: فمركز الإحساس في الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد، بدليل أن ربنا أوضح أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس، فهو سبحانه يبدّل لهم الجلد ليستمر الإحساس: ﴿كَلَّمًا فَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: صارت محترقة احتراقاً تاماً وتعطلت عن الإحساس بالألم، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب؛ لأنه هو الذي سيوصل للنفس الواعية فتتألم، إذن: فالآية مسّت قضية علمية معملية، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة في الإحساس تقول: يا بني آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد، لما فهموا شيئاً. لكنه تركها لتنضج في العقول على مهل.

﴿كَلَّمًا فَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فتكون علّة التبديل للجلود التي أحرقت بجلود جديدة كي يدوم العذاب. وينهي الحق الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ والعزیز: هو الذي لا يُغلب ولا تقدر أن تحتاط من قوته وقدرته وحكمته. لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق، ومرة لمدة ساعتين فما يضيرني أن

يحترق جلدي وتنتهي المسألة!! نقول له: لا. إن الذي يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر، وسبحانه حكيم. فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله، لا. هو يستعمل جبروته بعدالة.

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان، لم ينس المقابل؛ لكي يكون البيان للغايتين: غاية الملتزم وغاية المنحرف.

اتخاذ الدين لهواً ولعباً سبب للخلود في النار:

يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم في الجنة، فيقول أهل الجنة: نحن مربوطون الآن بـ«كن»، ولم يعد لنا الاختيار، وقد حرم الله عليكم أي شيء من الجنة ومنعه عنكم، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم. وحين يطلب أهل النار الماء فهم يطلبون أوليات الوجود، في نار أحاطت بهم سراقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه.

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرّم عليهم خير الجنة:

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وأول مرحلة تمر على الإنسان هي اللعب ثم تأتي له مرحلة اللهو، ونعلم أن كل فعل توجّه إليه طاقة فاعلة، وقبل أن توجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كي يحدد الغاية من الجهد. وهذا المقصود له حدود؛ إما أن يجلب له نفعاً، وإما أن يدفع عنه ضرراً. وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً، فهو لعب.

إذن: فتعريف اللعب: هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضرر أو جلب نفع. كما يلعب الأطفال بلعبهم، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له؟ لا؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لعبه. والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل، وهذا دليل

على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة .

ولكن حين تُوجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو، كأن يكون المطلوب منك شيئاً وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذي يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبي ﷺ يطلب من الأهل أن يدرّبوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرمية وركوب الخيل، ولكن خيبة البشر في زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يعاقب؛ لأن الحَكَم يرقب المباراة، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأسأل: لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب، فلماذا تركتم الجد بلا قانون؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة؛ لأن الإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهي الطاولة ويترك الشغل الذي ينتج له الرزق، ولت هذا اللهو مقصور على اللاهي، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهي ويأخذ وقته، هذا الوقت الذي كان يجب أن يستغل في طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتي من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن: فاللهو طاقة معطلة ﴿ **اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتي من الأسباب التي خلقها الله مستجيبة لهم، فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذي يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه:

﴿ **فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأعراف: ٥١]، فهل يعني قوله عز وجل: ﴿ **نَنسَهُمْ** ﴾ أنه يتركهم لما يفعلون؟ لا، بل تأخذهم جهنم لتشيويهم، ونسيانهم هنا هو أنه - سبحانه - لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلتح وجوهم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هي المكان الذي يعد فيه الإنسان مكانه في الآخرة، فإن أراد مكاناً في عليين فعليه أن يؤدي التكليف الذي يعطيه مكانه في عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدي العمل الأقل . كأن الإنسان بعمله هو الذي يحدد مكانه في الآخرة؛ لأن الحق لا يجازي الخلق استبداداً بهم وافتياتاً

أو ظلماً، ولكنه يجازي الإنسان حسب العمل؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة، وهناك أصحاب النار، وهناك أصحاب الأعراف. وهذا العلم الذي يُنزله لنا الحق قرآناً يندرنا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا في الآخرة مواقع مشرفة.

الاستهزاء بآيات الله جزاؤه جهنم:

يقول الحق سبحانه:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم، وبذلك يحمي الله وحده أهل الإيمان، ويصونهم من أي تهجم عليهم، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا، فما دمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهدن من يتهمج على الدين؛ لأنك إن هادنته كان أعز في نفسك من الإيمان، وما دمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتتحم هذا الإيمان من أن يتهمج عليه أحد، فإن اجتراً أحد على الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل.. فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس.

وكان المؤمنون في البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين، فساعة يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات الله، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن عرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء. أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون في الإيمان.. فهذا يعني أنهم أعز من الإيمان، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسبر غور الإيمان في قلوب المسلمين. أما حين يرى الكافر مؤمناً يهيب وينفر من أي حديث فيه سخرية من الإسلام، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه.

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هي إشارة إلى حكم سبق، ونعرف أنها نزلت في المدينة؛ فالحق يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل في مكة؛ ويقول فيها الحق:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً في البداية، وهو الحكم الذي نزل مع الكافرين في مكة؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين، ولم يكن المنهج الإيماني قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم: إن ولغ هؤلاء الكافرون في الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان.

والحق سبحانه يذكر المؤمنين في سورة النساء بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو في الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام، والحكم مستمر أيضاً في المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب. والتكليف من الله هو تكليف بما يطيقه الجنس البشري؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله. وقد نزل في القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها فليغادروا المكان، ونلاحظ أن الذي نزل في الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ويأتي السماع: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا﴾ والمهم هو مجرد العلم سواء أكان رؤية أو سماعاً بأنهم يخوضون في دين الله؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يرى، وقد يخوضون بما يسمع، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم.

وقوله الحق:

﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ يوحى أنهم إذا ما خاضوا في حديث

غير الخوض في آيات الله فليقعد المؤمنون معهم. وكان ذلك في صدر الإسلام، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب، ولا يستطيع المجتمع الإسلامي آنئذ أن يتميز بوحدته، فلو قال لهم الحق على لسان رسوله: لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً. لكان في ذلك قطع لمصالح المؤمنين.

وكلمة «يخوضون» تعطي معنى واضحاً مجسماً؛ لأن الأصل في الخوض أن تدخل في مائع.. أي: سائل، مثل الخوض في المياه أو الطين. والقصد في الدخول في سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية.

وساعة تخوض في مائع فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً، بل مجرد أن يمشي الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى، ولذلك يستحيل أن تصنع في المائع طريقاً لك. أما إذا دخل الإنسان في

طريق رمليّ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً. ولا تعود الرمال إلى سدّ الطريق إلا بفعل فاعل، وأخذوا من هذا المعنى وصف الأمر الباطل بأنه خوض؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك، والجدال في الباطل لا ينتهي إلى نتيجة.

إذن: «الخوض» هو الدخول في باطل، أو الدخول إلى ما لا ينتهي الكلام فيه إلى غاية. ويقرر العلماء: لا تخوضوا في مسألة الصفات العلية؛ لأنه لا يصح الخوض فيها، والكلام فيها لن ينتهي إلى غاية. ولذلك يقول الحق في موضع آخر بالقرآن الكريم:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا وَيُكَفِّرُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذي أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذي أنزل من قبل التوراة فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر، ثم بعد البلاغ تركهم يخوضون في باطلهم.

وفي موضع آخر يتكلم الحق عن الخوض:

﴿يَحْذَرُ الْمُتَنَفِّقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنَّا اللَّهُ مَخْرِجٌ مَّا يُخْتَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٤، ٦٥].

إذن: الخوض هو الدخول في مائع، وما دامت قد دخلت في مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول فيه بالمدخول عليه فلا تتميز الأشياء، وأخذ منه الخوض بالباطل أو الخوض باللعب الذي ليس فيه غاية.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

وتأتي الكلمة التي ترهب المؤمن وترعبه: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ أي: أنكم إذا قعدتم معهم وهم يخوضون في آيات الله تكفرون مثلهم؛ لأنكم تسمعون الخوض في الدين بالباطل، ومن يرض بالكفر يكفر.

لقد أعطتنا الآية مرحلية أولية، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين، ولا نوالهم إلا إذا والونا؛ لأن الجلوس معهم في أثناء الخوض في الدين يجربهم على منهج الله، وعلى

المؤمن أن ينهر أيّ ساحر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عمّن ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل ؛ وفي ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا في الدين بالباطل .

لكن لو أعرضنا عن ذلك فسيلتمس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجترأ على الدين والخوض بالباطل في دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتي من أننا نرى من يخوض في دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومنزلة .

وقوله الحق : ﴿ وَقد نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ﴾ نعلم منه وسيلة للإعلام البشري هي أن يرى الإنسان فعلاً أو يسمع قولاً . فإن رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد في الأرض فاعلم أن ذلك خوض في دين الله بالباطل .

وقوله الحق : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ هو إيذان بالمقاطعة ؛ فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن في منزل ، ويذهب إلى البقال ليشتري منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أي إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذي آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يروونه في مجتمعهم ، ولو رأى هؤلاء المنحرفون والموغلون في الباطل المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شيء آخر ومجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ ولا تستبطئوا هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هي عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهي فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقي الله مسلماً في الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين في جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنٌ مِّنَ اللَّهِ فَاقُولُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] .

وقوله الحق : ﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ ﴾ وصف للمنافقين ، ويطربص فلان بفلان .

أي: أن واحداً يتحضر ليتحسس أخبار آخر، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم في باطنهم كفار. وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجيء.

﴿الَّذِينَ يَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فإن فتح الله بنصره على المؤمنين في معركة وأخذوا مغنم قال المنافقون: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، فلا بد لنا من سهم في هذه الغنيمة. وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم: لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم، ولا بد لنا من نصيب. ويقول الحق على ألسنتهم: ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واستحذ على الشيء أي: حازه وجعله في حيزه وملكه وسلطانه. والحق هو القائل:

﴿أَسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

أي: جعلهم الشيطان في حيزه، وقول المنافقين للكافرين: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكري الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور من يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين. ثم يقولون للكافرين: نحن استحوذنا عليكم أي: منعناكم أن يقتلكم المؤمنون، ويطلبون منهم الثمن.

ولنشاهد الأداء البياني للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتي بكلمة «نصيب» أي مجرد شيء من الغلبة المؤقتة. ثم يأتي القول الفصل من الحق: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع وعمره ليراه في الدنيا، فيأتي له بالمسألة المقطوع بها؛ لذلك لا يقول للمؤمن: إنك سوف تنتصر. فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار. ولذلك يأتي

بالأمر المقطوع وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيراً مؤكداً لكل مؤمن؛ لأن الحياة أتفه من أن تكون ثمناً للإيمان.

ويعلمنا الرسول ﷺ ألا نطلب الثمن في الدنيا؛ لأن الغايات تأتي لها الأغيار في هذه الدنيا؛ فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته الإنسان. وثمر الإيمان باقٍ ببقاء من آمن به. إن القاعدة الإيمانية تقول: من يعمل صالحاً يدخل الجنة، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين:

﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

أي: أن الجنة باقية بإبقاء الله لها، وهو قادر على إفنائها، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من صفاته وهو الدائم أبداً. وحين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: لن يوجد نقض لهذا الحكم؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية. وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد ﷺ، لقد حكم الله على عم الرسول، فقال فيه:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسِينٍ﴾ [المسد: ١-٥].

قوله الحق سبحانه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يدل على أنا أبا لهب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله ﷺ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عدد من صناديده، ذهبوا إلى معسكر الإيمان، فها هو ذا عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا. فما الذي كان يُدري محمداً ﷺ أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء؟ ولماذا لم يقل أبو لهب: قال ابن أخي: إنني سأصلي ناراً ذات لهب، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان. لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذي حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان.

ألم يكن باستطاعة أبي لهب وزوجه أن يقولوا في جمع: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويتم انتهاء المسألة؟ ولكن الله الذي لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل في أبي لهب وزوجه يأتي قول الحق في ترتيبه المصحفي ليقول ما يوضح: إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض، فسيصلي أبو لهب ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب.



ثالثاً

أهل العذاب في النار

السعي في الأرض فساداً:

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

أول شيء في الحرب هو الاستيلاء، فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أي: يرغبون في الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر. فكيف يحارب قوم الله وهو غيب؟ وأول حرب لله هي محاولة الاستيلاء على سلطانه، وهو تشريعه. فإن حاولت أيها الإنسان أن تُشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولي على حق الله في التشريع. وهذه أول حرب لله.

والذين يحاربون الله أهم الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله؟ لا؛ لأن يد الله في ملكه أزلاً، وستبقى أبداً وسبحانه لن يسلمه لأحد من عباده. فعلى ماذا - إذن - يريدون الاستيلاء؟ إنهم يريدون تزييف تشريعات الله، بينما الحق سبحانه هو المُشرع وحده. والتشريع - كما قلنا - هو قانون صيانة للصناعة. إذن: لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التي تصون البشر؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يشرعون لأنفسهم؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان - الذي هو منه - قانون صيانة نقول له: إنك تستولي على حق الله.

وكيف يحاربون الرسول؟

نعرف أن الرسول ﷺ له وضعان؛ فالله غيب؛ لكن الرسول ﷺ كان مشهداً من مشاهدنا في يوم من الأيام، وقد حارب بالسيف، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله، فنأخذ سلطته في التشريع، وهي السلطة الثانية ونقول لها: نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول، أو أن يقول نظام ما: سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما ينتشر في بعض البلدان. ونقول لكل واحد من هؤلاء: أتؤدي الصلاة؟ فيقول: نعم. نسأله: كم ركعة صليت المغرب؟

فيجيب: ثلاث ركعات. نسأله: من أين أتيت بذلك؟ ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهي لم تُذكر في القرآن الكريم؟ هنا سيصمت.

ونسأله: كيف تُخرج الزكاة وبأي حساب تحسبها؟ فيقول: أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف في المائة في النقيدين والتجارة مثلاً.

نقول له: كيف - إذن - عرفت؟ وأيضاً كيف عرفت الحج؟ إذن: فللرسول ﷺ مهمة، وحرب النبي تكون في ترك قول أو فعل أو تقرير له - عليه الصلاة والسلام.

ومثال ذلك: هؤلاء الذين يقولون: إن أحاديث رسول الله كثيرة. ونقول لهم: كانت مدة رسالة رسول الله ﷺ ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها، وكل كلام سمعته وأقره من غيره هو حديث، وكل فعل فعله غيره أمامه وأقره ولم يعترض عليه هو حديث، فكم تكون أحاديث رسول الله ﷺ؟ وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التي وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة؟؛ لأنهم قالوا: لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله. إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه، وأن رسول الله ﷺ قد وضع القواعد لغريبة الأحاديث فقال: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وها هو ذا البخاري ينقل عن المعاصرين لرسول الله ﷺ والذين قابلوه، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنها مظنة المقابلة وتحري كل منهما الدقة الفائقة. وأي شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم: «أنا يكفيني أن أقول لا إله إلا الله»، تساءلت: كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله؟ وكيف يمكن أن يؤدي الأذان للصلاة؟ وكيف يؤدي الصلاة؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ٧].

وهذا تفويض من الله في أن يكون لمحمد ﷺ تشريع.

وكذلك الاجترارات على الأئمة، هم يجترئون أولاً على النبي ثم يزحفون على الدين كله. وجاء فيهم قول الحق: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾ أي: يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً. الجزاء أن يقتلوا أو يُصلَّبوا، وهذا التفعيل في قوله: ﴿أَن يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ جاء للشدة

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم عن علي كرم الله وجهه.

والتقوية؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيماني العام موقف القائم على هذا الأمر، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع في هذا الأمر، كما يقال: إن النائب العام نائب عن الشعب في أن يرفع الدعوى، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر.

﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾. وهل «أو» هنا تخييرية، أو أنّ هنا - كما يقال - «لفاً ونشراً»؟ واللف هو الطي. والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه.

فما اللف، وما النشر - إذن؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر:

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللِّسَانُ وَخَالِقِي

لقد ذكر مُتَعَدِّد ولكن الأحكام غير مذكورة، هذ هو اللف؛ فجمع المبتدئات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه، فأكمل بيت الشعر بقوله:

رَاضٍ وَبَاكِ شَاكِرٌ وَغَفُورٌ

ولنقرأ البيت كاملاً:

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللِّسَانُ وَخَالِقِي رَاضٍ وَبَاكِ شَاكِرٌ وَغَفُورٌ

والحق سبحانه يقول: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ راجع إلى الليل، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ راجع إلى النهار. وهنا جاء باللف، ثم جاء بالنشر.

والفساد - كما نعلم - له صور متعددة، فالفساد في الإنسان قد يعني قتله. أو قتله وأخذ ماله. أو الاستيلاء على ماله دون قتله. أو إثارة الرعب في نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله. فكأن كلمة الفساد طوي فيها ألوان الفساد، نفس تقتل، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ، أو مال يؤخذ دون نفس تقتل، أو تخويف وتفزع.

ويقول الحق: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، والنفي معناه الطرد والإبعاد، والطرْد لا يتأتى إلا لثابت مُستقر، والإبعاد لا يتأتى إلا لمتمكّن. إذن: فقبل أن يُنْفَى لا بد أن يكون له ثبوت وتمكّن في موضع ما، وهو ما نسماه اصطلاحاً السكن، أو الوطن، أو المكان الذي يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه. ومعنى ثابت فيه. أي: له

حركة في دائرته، إلا أنه يأوي إلى مكان مُستقر ثابت، ولذلك سُمِّي سكناً؛ أي: يسكن فيه من بعد تحركه في مجالاته المختلفة. ومعنى النفي على هذا هو إخراجه من مسكنه ومن وطنه الذي اتخذهُ موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه. ولكن إلى أي مكان نُخرج إليه هذا الذي نحكم عليه بالنفي؟ قد يقول قائل: أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فسادهُ!

لا؛ لأن النفي لا يتيح له ذلك الإفساد، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان، وإلفاً بمن يخيفهم؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلاناً وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا. ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه، ومواطن الضعف فيهم. وعلى ذلك يكون النفي هو منعٌ لإفساد الفاسد.

وحين يقول سبحانه: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ نعرف أن كلمة «الأرض» لها مدلول، ونسمي الأرض الآن: الكرة الأرضية. وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه، وبعد أن عرفنا أن جوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءاً من الأرض. ولذلك قلنا في المقدسات المكانية: إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه؛ فجو الكعبة كعبة؛ بدليل أن الذي يصلي في الدور الثالث من الحرم؛ ويتجه إلى الكعبة. يصلي متجهاً إلى جو الكعبة. ومن يستقل طائرة ويرغب في إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة، وعندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه. إذن: فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط، ولكن جوه أيضاً له قدسية؛ فإن بنينا كذا طابقاً فهي تصلح أيضاً كمسعى.

إذن: فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض. ولذلك كانوا يُحرمون - قبل أن يوجد طيارون مسلمون - أن يحوم في جو الحرم طيار غير مسلم؛ لأن الطيار غير المسلم محرّم عليه أن يدخل الكعبة والحرم. وما دام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضاً ممنوع من الطيران في جوَّ الكعبة.

لأن جوَّ المكان يأخذ قدسية المكان أو حكمه؛ فالجوَّ من الأرض، ونعرف أن الغلاف الجوي يدور مع الأرض. ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه. وما دام القائل للقرآن هو الخالق للكون، إذن: لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية. وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين: إما أن نعتبر الأمر الذي لا يزال في طور النظرية حقيقة في حين أنها لم تصبح حقيقة بعد؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية، على الرغم من أنه ليس

كذلك، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق، وحقيقة قرآنية بحق، فلا تضارب على الإطلاق. ودليل ذلك - على سبيل المثال - قول الحق سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

ويأتي العلم الحديث بالبحث والتحليل، ويقول بعض السطحين: لا، إن العلم يعرف ما في الرحم من ذكر أو أنثى. ونقول: نحن لا نناقش ذلك؛ لأنها حقيقة كونية وهي لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية؛ لكننا نسأل: متى يعرف العلماء ذلك؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضي مُدَّة زمنية، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية. ثم مَنْ قال: إن الحق يقصد بـ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ذكراً أو أنثى فحسب؟ وهل لمدلولها وجه واحد؟ لا، بل له وجوه متعددة، فلن يعرف أحد أن ما في الرحم سيكون من بعد إنساناً طويلاً أو قصيراً؛ ذكياً أو غيباً؛ شقيّاً أو سعيداً؛ طويل العمر أو قصير العمر؛ حليماً أو غضوباً. فلماذا نحصر «ما» في مسألة الذكر والأنثى فقط؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أي عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة. ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذي تحمله في بطنها؟ طبعاً لا، ونحن لا نعلم ماذا في بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم. ثم هل تذهب كل النساء الحوامل في العالم لطبيب واحد؟ بالطبع لا، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما في كل الأرحام.

إذن: فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية، لكن الصدام يحدث عندما نفهم فهماً خطأ أن الحقيقة القرآنية في قوله الحق: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط.

ومثال آخر، يقول الحق: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَهَا﴾ [الحجر: ١٩].

ويُخطئ البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان. وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هي أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة؛ وظهور أعالي الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك، ثم صارت في عصرنا مشاهدة من الأقمار الصناعية. إذن: هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية. والفهم الصواب في مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَهَا﴾؛ أننا كلما وقفنا في مكان نجد أرضاً، أي: أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة.

إذن: فسبحانه قد مدَّ الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار في أي اتجاه؛ يجد

أرضاً، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية. لهذا كان الخطأ في فهم مدلول الحقيقة القرآنية؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهي ليست كذلك، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطيء، إنهما لا تتعارضان، فالقائل هو الخالق سبحانه، ولهذا عرفنا أخيراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوي يدور مع الأرض، وكنا نقول: سرنا على الأرض، لكنه سبحانه قال وهو العليم: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١].

وهو سبحانه علم أولاً أن الجو جزء من الأرض. فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوي. إذن: فالإنسان إنما يمشي في الأرض وليس على الأرض. أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوي فهو يسير فوق الأرض.

ونعود إلى قوله الحق: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ وقد عرفنا أن النفي هو الطرد والإبعاد، فأى أرض ينفون منها وإلى أي أرض؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر ولا الإبعاد إلا لثابت. وحتى في اللغة نعرف ما يسمى النفي والإثبات. وكل ذلك مأخوذ من شيء حسي؛ فعندما نأخذ الماء من البئر ننزل إلى قاع البئر دلواً، وكل دلو ينزل إلى البئر له «رشاء» وهو الحبل الذي نُنزل بواسطته الدلو.

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه. فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطرار الماء إلى تمام حافة الدلو؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن؛ بل نجد قليلاً من الماء يتساقط من حوافي الدلو، وهذا الماء المتساقط يُسمى «النَّفْي»؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطرار الماء.

إن الماء - كما نعلم - له استطرار دقيق إلى الدرجة التي جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء. ومن «النَّفْي» تؤخذ معانٍ كثيرة، فهناك «النفاية» وهي الشيء الزائد. إذن: كيف يكون النفي من الأرض؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص؟ أي: الأرض التي حدث فيها قطع الطريق؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفي يكون لأي أرض أخرى، وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفي؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال في موضع آخر من القرآن:

﴿وَقُلْنَا مَنْ بَعْدِهِ لَبِئَ إِسْرَءِيلَ أَتَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

هم بلا جدال يسكنون في الأرض. وجاء هذا القول لمعنى مقصود، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تحييز مكان في الأرض، كأن يقول قائل:

« اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا »، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم في الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقروا في مكان أبداً. وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه:

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فليس لهم وطن خاص. وتمت بَعَثَتْهُمْ في كل الأرض، وهذا هو الواقع الذي حدث في الكون. فهل وُجِدَ لبني إسرائيل استقرار في أي وطن؟ لا. وحتى الوطن الذي أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره. بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده. وما زال اليهود بطبيعتهم شتاتاً في أنحاء الأرض. ولهم في كل وطن حي خاص بهم. وتحفظ كل جماعة منهم في أي بلد بذاتيهم ولا يذوبون في غيرهم:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وحين يأتي بهم الحق في الجولة الآخرة سيأتون لفيفاً أي: مجتمعين؛ لأن الأمة المؤمنة حين يقويها الله لتضرب هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مجتمعين. وكأن الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القومي » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً؛ لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن، فقد جاء بهم لفيفاً.

ولكن كيف يكون النفي من الأرض؟ على سبيل المثال حين يرى الله تحيز مكان فهو يقول:

﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾ [المائدة: ٢١].

إذن فقد نفى غيرها. وهو يقول أيضاً:

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ [الأعراف: ١١٠].

وكان المقصود بها مصر.

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حكم ﴿ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ والنفي هو صورة من صور العقوبات للإفساد، والإفساد في الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام: قتل، وقتل وأخذ مال، وأخذ مال فقط، وترويع. وقد زاد رسول الله ﷺ شيئاً وفعله في سيرته، فقد جاء لنا بأمر جديد في أمر الإفساد. وكان على العلماء أن يتنبهوا له، فأول نفي حصل في الإسلام كان نفي رسول الله ﷺ للحكم بن أبي العاص من المدينة إلى الطائف؛ لأن الحكم - والعياذ بالله - كان يُقلد مشية النبي

باستهزاء، وكان النبي ﷺ إذا مشى تكفأً تكفوًّا كأنما يتحدَّر من صَبَبٍ. فقد كانت مشية النبي مشية خاصة. وعلم رسول الله ﷺ أن الحَكَم يقلد مشيته في استهزاء، والتفت النبي - ذات مرة - فجأة، فوجد الحكم يقلده في مشيته فنفاه من المدينة إلى الطائف، وظل الحكم في الطائف طوال حياة رسول الله ﷺ. فلما جاءت خلافة أبي بكر الصديق ذهب أهل الحَكَم إلى أبي بكر، فقال:

- ما كنت لأحلَّ عقدة عقدها رسول الله ﷺ. وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق. وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضي الله عنه حياً وخجولاً فقال: لقد أخذت كلمة من رسول الله ﷺ تحمل شبهة الإفراج عنه. ويفرج عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وأثناء حياة الحَكَم في الطائف كان يربي بعض شويهاة وبعض غُنيمة وكان يربعاها عند جبال الطائف. وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك. فأنتم تعلمون أن معاوية رضي الله عنه أنجب يزيد الذي تولَّى الخلافة من بعده. وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم.

وكان خالد بن يزيد الذي ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً في الكيمياء وله أخ اسمه عبد الله، وكان لعبد الله جياذ يتسابق بها. وكان لولد من أولاد عبد الملك بن مروان جياذ أيضاً، وجرت جياذ عبد الله مع جياذ ابن عبد الملك في مضمار سباق، فلما جاءت خيل عبد الله لتسبق... حدث خلاف بين عبد الله وابن عبد الملك؛ فنهز ابن عبد الملك عبد الله، فذهب عبد الله واشتكى لأخيه خالد. وهنا ذهب خالد لعبد الملك بن مروان، وقال له:

- لقد حدث من ابنك كذا وكذا، وكان عبد الملك فصيحاً في العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً. وربّي أولاده على ألا يلحنوا في اللغة. وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن.

فلما دخل خالد إلى عبد الملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به، قال عبد الملك لخالد: أتكلمني في عبد الله وقد دخل عليّ آنفاً فلم يخل لسانه من اللحن؟

وقال خالد - معرضاً بالوليد: والله يا عبد الملك لقد أعجبتني فصاحة الوليد. فقال عبد الملك: إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن. فقال خالد: وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن.

فقال عبد الملك: اسكت يا هذا فلست في العير ولا في النفير.

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة، فالعير هي التي كانت مع أبي سفيان

وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله ﷺ ثم نجا بها أبو سفيان. والنفير هم الجماعة التي استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعُتبة. فالعير كانت زعامته لأبي سفيان والنفير كانت زعامته لعُتبة بن ربيعة، وكان عتبة هو جدّ خالد لأمه، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه. فقال خالد: ومن أولى بالعير وبالنفير مني، جديّ أبو سفيان صاحب العير، وجديّ عُتبة صاحب النفير، ولكن لو قلت: غنيمات وشويهات وجبيلات وذكرات الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى. وأُسكته.

إذن: فالنفي كان أول عقاب أنزله الرسول ﷺ، فهل ما فعله «الحَكَم» يُعتبر فساداً؟ ونقول: إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذي يمس رسول الله ﷺ. وكان الحَكَم يستهزئ بمشية رسول الله ﷺ.

وقد يقول مُشرّع ما: إن السجن يقوم مقام النفي. ونقول: لا، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية. فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة. والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المُفسد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه. وذلك أمر متروك للحاكم يفعل كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة؛ بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى.

ويتبع الحق هذا بقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين في الأرض المحاربين لله ورسوله وهو: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ وهذه العقوبات خزي لهم.

إن كلمة «خزي» ترد في اللغة بمعنيين: مرة بمعنى الفضيحة، «خَزِي»، يَخْزِي، خِزياً، أي: انفضح، ومرة ثانية هي «خَزِي، يَخْزِي، خِزاية وخِزْي» بمعنى استحي. والمعنيان يلتقيان، فما دام قد افتضح أمر عبد، فهو يستحي مما فعل. وتلك الأفعال خزي، كالذي قطع طريقاً على أناس آمنين، ونقول لمثل صاحب هذا الفعل: إن قوتك ليست ذاتية بل قوّة اختلاسية؛ فلو كانت قوتك ذاتية لاستطعت أن تتأبى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك. فقد اجترأت على العُزْل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم، وفي هذا خزي لك. خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب. وخزيك الآن هو مقدمة لعذاب آخر في الآخرة، فسوف تنال عذاباً عظيماً.

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وكل جزاء في الدنيا إنما يأتي على قدر طاقات البشر في العقاب، ولكن ماذا إذا وُكلوا إلى طاقة الطاقات؟ ها هي ذي عدالة الحق تتجلى، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمُسرفين على أنفسهم؛ أولاً بالتوبة؛ لأن الله الرحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى في الأرض فساد كل من ارتكب ذنباً لأنه يئس من رحمة الله فتشتد ضراوته وقسوته.

وسبحانه فتح باب التوبة لكل من أسرف على نفسه. وإن لم توجد التوبة لصار المُسرف فاقداً. وهب أن واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك حُكم، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له.

التولي عند الزحف :

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَنْ تَحَرَّفَ لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّراً إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة لم يرتب الغضب منه إلا على من يولي الدبر هرباً وفراراً من لقاء الأعداء. أما الذي يولي الدبر احتيلاً ولايهام العدو بأنه ينسحب وفي ذات اللحظة يعاود الكرّة على العدو مطوّقاً له، فهذا هو المقاتل الحق والصادق في إيمانه الذي يمكر بالعدو. وكذلك من يولي الدبر متحيزاً إلى فئة مؤمنة ليعاود معها الهجوم على الأعداء حتى لا تضيع منه حياته بلا ثمن، فهذا أيضاً من أعمل فكره ليُنزل بالعدو الخسارة؛ لأن المؤمن يحرص دائماً على أن يكون موته بمقابل، فإذا ما وعده الله بالجنة. ألا يقاتل هو ليصيب الأعداء بالهزيمة؟ وكان ثمن المؤمن من قبل عشرة كافرين، بمعنى أن الله تعالى منح كل مؤمن قوة تغلب عشرة مصداقاً لقوله عزّ وجلّ :

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُوا عَلَى مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

ولكن علم الله أن المؤمنين ضعفاً فجعل مقابل المؤمن في المعركة اثنين من الكفار، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

ولذلك فإننا نجد الذي يفر أمام ثلاثة من الأعداء لا يسمى فارّاً في الحكم

الشرعي. لكن من يفر من مواجهة اثنين، يعد فاراً؛ لأن الحق تعالى قال قبل أن يوجد فينا الضعف:

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

أي: أن المقاتل المؤمن كان يمكنه أن يواجه عشرة من الكافرين. فإن كان المقابل أقل من عشرة كافرين، فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه حتى لا يموت رخيص الثمن. ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى أن الضعف سيصيب المؤمنين؛ لذلك قال:

﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

وهكذا انتقلت النسبة بين المؤمنين والكافرين من واحد لعشرة، إلى مؤمن مقابل اثنين من الكفار، وهذا من رحمة الله تعالى، فمن رأى نفسه في مواجهة أكثر من اثنين من الأعداء يوضح له الحق تعالى: عليك أن تنحاز إلى فئة من المؤمنين تعصمك من نيلهم منك بلا ثمن.

﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦].

وعرفنا أن المتحرف للقتال هو صاحب الحيلة، ونقول في ألفاظنا التي تجري على ألسنتنا في حياتنا اليومية: «فلان حريف» أي: لا يغلبه أمر ويحتال عليه، وهكذا يكون المتحرف في القتال الذي يكيد للكافرين ويدبر لهم أشياء فيظنون الانهزام، وهي في الواقع مقدمات للنصر، وقوله سبحانه: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ مأخوذ من «الحيز»، وهو المكان الذي يشغله الجسم، وكل واحد منا له «حيز» في مكان يشغله، أي: أن كل واحد منا متحيز، والحيز هو الطرف المكاني الذي يسع الإنسان منا واسمه ظرف مكان، وكل واحد من المخاطبين له مكان وهو متحيز بطبيعته، وجاءت كلمة «متحيز» في هذه الآية لتوجه كل مؤمن مقاتل أن يأخذ لنفسه حيزاً جيداً يمكنه من إصابة الهدف، وكذلك تفيد ضرورة انضمام المقاتل دائماً إلى فئة مع إخوانه بهدف تقوية المواجهة مع العدو. ومن لا يفعل ذلك فعليه أن يتلقى العقاب من الله، وقد بيّنه الله تعالى في قوله سبحانه:

﴿فَقَدْ بَكَاءَ يَعْصِبُ مِنْ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

و: ﴿بَكَاءَ﴾ تعني: رجع، والتعبير الأدائي في القرآن الكريم مناسب لما فعلوه؛ لأن من يعطي الأعداء دبره فهو الراجع عن الزحف والقتال. لكن من يرجع بهدف الكيد للأعداء والمناورة في القتال أو لتقوية جماعة أخرى من المؤمنين، فهذا

له وضع مختلف تماماً، إنه ناصر لدين الله، عكس المنسحب الفارّ الذي يصحبه في انسحابه غضب من الله، والغضب من الله - كما نعلم - هو سبب من أسباب إنزال العذاب، ولهذا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَقَدْ بَكَءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان، ونعلم أن الواحد منا حين يرغب في الراحة فهو يأوي إلى المكان الذي يجد فيه الراحة والأمن من كل سوء.

والفارّ من مواجهة العدو في معارك الإسلام لن يجد مأوى إلا النار، بل وترحب به النار ويدور حوار بينها وبين الحق عزّ وجلّ يوم القيامة توضحه الآية الكريمة:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

ويُثبت الحق في قرآنه الكريم أن النار تغطّأ من الكافرين لأنها جندٌ من جنود الله تعالى ومسخرة لتنفيذ حكم الله، فمن خالف المنهج في الدنيا تتلقاه النار بتغيظ وزفير، ويسمع الكافرون تغيظها حين تراهم من بعد، والحق سبحانه هو الفائل:

﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وحين تكون النار هي المأوى، أليس ذلك هو بسّ المرجع؟
كأن الراجع من الزحف والفارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أن يُقتل، سيذهب إلى شيء شر من القتل.

جزاء من قتل مؤمناً متعمداً:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

والقتل هنا لمؤمن بعمدٍ، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذي لا يدري به القاتل إلا بعد أن يقع. وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم، وليس له كفارة أبداً. هكذا يبشّر الحق لنا جريمة القتل العمد؛ لأن التعمد يعني أن القاتل قد عاش فكرة أن يقتل، ولذلك يقال في القانون: «قتل عمد مع سبق الإصرار» أي: أن القاتل قد عاش القتل في تخيله ثم فعله، وكان المفروض في الفترة التي يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الديني، وهذا يعني أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة، وما دام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله، فلو جاء الله في باله لتراجع، وما دام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ وقالوا في سبب هذه الآية: إن واحداً اسمه مقيس بن ضبابة كان له أخ اسمه هشام، فوجد أخاه مقتولاً في بني النجار، وهم قوم من الأنصار بالمدينة. فلما وجد هشاماً قتيلاً ذهب مقيس إلى سيدنا رسول الله ﷺ وأخبره بالخبر، فأرسل معه رجلاً من بني فهر وكتب إليهم أن يدفعوا إلى مقيس قاتل أخيه، فقال بنو النجار: واللّه ما نعلم له قاتلاً، ولكننا نؤدي الدية فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا مقيس على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتداً وجعل ينشد:

قَتَلْتُ بِهِ فَهْرًا وَحَمَلْتُ عَقْلَهُ سرّاء بني النجار أرباب فارح
حللت به وتري وأدركت ثورتي وكنت إلى الأوثان أول راجع

فلما بلغ سيدنا رسول الله ﷺ ذلك أهدر دمه. ومعنى «أهدر دمه»: أباح دمه، أي: أن من يقتله لا عقاب عليه، إلى أن جاء يوم الفتح فوجد «مقيس» متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمي بها، فأمر رسول الله ﷺ بقتله، ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب: جزاء جهنم، خلود في النار، غضب من الله، لعنة من الله، إعداد من الله لعذاب عظيم. فكأن جهنم ليست كل العذاب؛ ففيه عذاب وفيه خلود في النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم. وهذا ما نستعيد بالله منه. فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب، وقد يغفل بعض الناس عن أن هناك ألواناً متعددة من العذاب. وفي الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث في الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشد من الحبس.

وهنا وقفة وقف العلماء فيها: هل لهذا القاتل توبة؟ واختلف العلماء في ذلك، فعالم يقول: لا توبة لمثل هذا القاتل. وعالم آخر قال: لا، هناك توبة. وجاء سيدنا ابن عباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله: ألقاتل عمداً توبة؟ قال ابن عباس: لا. وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن عباس: ألقاتل عمداً توبة؟ فقال ابن عباس: نعم. فقال جلساؤه: كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا، واليوم تقول نعم؟!.

قال ابن عباس: سائلي أولاً كان يريد أن يقتل عمداً، أما سائلي ثانياً فقد قتل بالفعل، فالأول أرهبته والثاني لم أقنطه من رحمة ربه.

وكيف فرّق ابن عباس بين الحالتين؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التي

يبسطها الله على المفتي . فساعة يوجد النبي ﷺ في صحابته يسأله واحد قائلاً : « أي الإسلام خير؟ » فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ، ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجب كل جماعة بما هو أنفع لهم . . ويسأله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أي الأعمال أفضل؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « الصلاة على ميقاتها . قلت : ثم ماذا يا رسول الله؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك » .

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكير حول نصها ﴿ **فَجَزَاءُ** **جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا** ﴾ . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد . . بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهي؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهي لما وصف الحق المكث في النار مرة بقوله :

﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ [آل عمران : ٨٨] .

ومرة أخرى بقوله : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ [النساء : ١٦٩] .

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد في «أبدًا» فيه ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . وإذا اتحد القولان في أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد، وأن ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ تفيد التأبيد أيضاً، فمعنى ذلك أن اللفظ «أبدًا» لم يأت بشيء زائد . والقرآن كلام الله، وكلام الله منزّه عن العبث أو التكرار . إذن؛ لا بد، من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طويلاً لا ينتهي، وعلى ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى . ثم إن كلمة «خالدين» حين وردت في القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في خلود النار :

﴿ **يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [هود : ١٠٥ - ١٠٧] .

فكأن الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود ﴿ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ والاستثناء لا بد له من زمن، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأبيد، ولكن الخلود هو زمن طويل، وكذلك يقول في خلود الجنة :

﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٌ** ﴾ [هود : ١٠٨] .

وقوله الحق: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ تفيد أن الخلود عندهم ينتهي. ما دام هناك استثناء؛ فلاستثناء لا بد له من زمن، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأييداً.

وعلينا أن نتناول الآيات بهذه الروح، وفي هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد في العصر العباسي هو عمرو بن عبيد، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المنتسبين إلى العلم: «كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد»، وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلو على صغائر الحياة. وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأي، ويحكي عنه قيس بن أنس هذه الحكاية: كنت في مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمر بن عبيد يقول: «يؤتى بي يوم القيامة فيقال لي: لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له. قال: فقرأت الآية: ﴿فَجَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذي جاءه أو الرؤيا التي أراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفتى بآلا توبة لقاتل العمد، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب في ذلك.

نقول ذلك لنعرف أن الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذي علم عليمًا. ولكن عمرًا ذكر ما جاء في قوله الحق: ﴿فَجَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾. وقال قيس بن أنس: كنت أصغر الجالسين سنًا، فقلت له: لو كنت معك لقلت:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قال قيس: فوالله ما رد علي عمرو بن عبيد ما قلت. ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد.

ماذا تفيد هذه؟ تفيد ألا نأخذ كلمة: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بمعنى التأييد الذي لا نهاية له؛ لأن الله قد استثنى من الخلود في آية أخرى.

مصير المكذبين والمستكبرين:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا في حسابهم أن يكون لهم نصيب في الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق:

﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ في الدنيا، فلماذا نسي أنها موقوتة العمر؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن في الآخرة؟ عليك أن تعلم أنك في هذه الدنيا، خليفة في الأرض، وما دمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلا بد أن تكون لنا غاية متحدة؛ لأن كل شيء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية، فالغاية الأخيرة هي لقاء الله؛ لأن النهاية المتساوية في الكون هي الموت ليسلمنا لحياة ثانية، فالذي يستكبر عن آيات الله هو من دخل في صفقة خاسرة؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان في الدنيا قليل، وزمن الآخرة لا نهاية له. وعمر الإنسان في الدنيا مظنون غير متيقن، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته، لكن الآخرة متيقنة، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦].

وأصحاب النار يعني: أن يصاحب ويلازم المذهب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه؛ لأن النار على ألف بالعاصين، وهي التي تتساءل:

﴿هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]؟

ويقول سبحانه:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبَهُمْ عَذَابًا ضَعِيفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر «كن» سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً، وليدخلوا معهم إلى المصير الذي يذهبون إليه، وهم أمم خليط؛ لأن الكفر سوف يلتقي كله في الجزاء.

إن الاقتداء بالأمم التي سبقت هو الذي قادهم إلى الكفر؛ فالأمم التي سبقت كانت أسوة في الضلال للأمم التي لحقت، فإذا ما دخلوا لعنواهم.

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه، وبعد ذلك دخل عليه من كان يغريه بالجرم، ومن كان يزين له، ومن اقتدى به. بالله ساعة يلتقيان في السجن ألا يلعن الأول والثاني؟

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ

أَصْلُونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٨].

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجمعوا، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب:

﴿قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فإذا قلت الأخرى أي: التي دخلت النار متأخرة كانت الأولى هي القدوة في الضلال وقد سبقتهم إلى النار، ﴿قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأُولَهُمْ﴾، أي: أن الأولى هم القادة الذين أضلوا، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا ﴿قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا﴾ وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا﴾.

كيف يتأتى هذا؟ كان القياس أن يقول: قالت أخواهم لأولاهم أنتم أضللتونا لكن جاء هذا القول، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يُخاطبوا؛ ولأن الموقف كله في يد الله، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع: ﴿هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا﴾ فهؤلاء، هذه إشارة إليهم، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون هذا لربنا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق:

﴿فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فقال الله لهم جميعاً: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلّت وأضلّت. ونفهم أن الضّعف معناه «شيء مساوٍ لمثله»، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتكم سواكم بالأسوة أيضاً؛ لأنكم كثرت عددكم وقويت شوكتهم وأغريت الناس باتباعهم.

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتكم أيضاً، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق في الحساب، ويعطي كل إنسان حقه تماماً.

وماذا تقول أولاهم لأخواهم؟ يقول الحق سبحانه:

﴿وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرِبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

[الأعراف: ٣٩].

أي: ما دمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرؤوس: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كأن المجرم نفسه ساعة يلتقي ويستقبل مجزماً مثله، يقول له: اشرب من العذاب نفسه، وليس ذلك تجنياً من الله، ولا بسلطة القهر لعباده، ولكن بعدالة الحكم؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم.

ومعلوم أن التذوق في الطعوم، فهل هم يأكلون العذاب؟ لا، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب، والحق حين يرى شمول العذاب للجسم

يجعل لكل عضو في الجسم حساسية الذوق كالتى في اللسان .
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢] .

هذه هي الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعي في التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنع ، وفي السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعي ، وهذا هو الخطر الذي يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات . ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠] .

والحق يريد أن يعطي حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليُعرف بجريمته ، وهي جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقي حكماً وعقاباً . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأي إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عُرف بين قومه بأمانته ، هذا الإنسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً ﷺ لم يكن له من الجاه ولا السلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] .

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يُكذِّب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له أبواب السماء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠] .

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء... إنهم المؤمنون، وحين تصعد أرواحهم إلى الملاء الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى. أما المكذبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

و ﴿سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هو ثقب الإبرة، أي: الذي تدخل فيه فتلة الخيط، ولا تدخل فتلة الخيط في الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف؛ لأنها إن كانت مقصوفة وأطرافها مستوية فهي لا تدخل في الثقب؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها في ثقب الإبرة.

و حين نأتي بالجمل ونقول له: ادخل في سمّ الخياط، فهل يستطيع؟ طبعاً لا؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل.

بعض الناس قالوا: وما علاقة الجمل بسم الخياط؟

نقول: إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الغليظ المفتول من حبال، مثل حبال المركب، إننا نجده سميماً مجدولاً.

وأخذ الشعراء هذه المسألة؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول:

ولو أن ما بي من جوى وصباية
على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والصباية التي يعاني منهما هذا الشاعر، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل، إلى أن يدخل في سم الخياط، وهنا يوضح ربنا سبحانه: إن دخل الجمل في سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة.

﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجزموا.

ويقول الحق عز وجل:

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

المهاد هو الفراش، ومنه مهد الطفل، والغاشية هي الغطاء، أي: أن فرش هذا المهاد وغطاء جهنم. وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

إذن: الظلل والغواشي تغطي جهتين في التكوين البعدي للإنسان، والأبعاد ستة وهي: الأمام والخلف، واليمين والشمال، والفوق والتحت، والمهاد يشير إلى التحتية، والغواشي تشير إلى الفوقية، وكذلك الظلل من النار، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه:

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا يعني شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين.. وجهنم مأخوذة من الجهومة، وهي الشيء المخوف العابس الكريه الوجه.

جزاء اكتناز الذهب والفضة:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[التوبة: ٣٤].

وساعة تسمع كلمة: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ تعرف أن البشارة عادة تكون في خبر سار، وإن جاءت في خبر محزن تكون تهكماً، فالإنسان الذي هو عزيز قومه ويجعل الناس له اعتباراً، إن ظلم وطغى وخاف الناس أن يردوه؛ لأنه لا يخشى الله فيهم، هذا الظالم يؤتى به يوم القيامة يعذب أشد العذاب، ويقال له:

﴿ دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩].

وبطبيعة الموقف في النار هو مهان بعذاب جهنم ولا يمكن أن يكون عزيزاً كريماً، ولكن قول ملائكة النار: ﴿ دُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾، هو تهكم شديد، وهو في ذلك كقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهم ساعة يسمعون كلمة ﴿ يُعَاثُوا ﴾ يفرحون؛ لأن عطشهم شديد وهم قد استغاثوا فليل لهم إنهم سيغاثون، وهذا خبر سار بالنسبة لهم، ولكن الإغاثة تأتيهم بماء يشوي وجوههم، فهل هذه إغاثة؟ إنه تهكم عليهم وزيادة في عذابهم، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى هنا: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. ويصف لنا الحق هذا العذاب الأليم الذي سيتعرضون له، ويبيّن لنا خبر المغيب عنا في الآخرة بصورة مُحَسَّنة لنا فيقول:

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ

لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥].

نحن نعلم أن النار لا تُحمى إلا للمعادن، فإن كان ما كنزوه أوراق نقد فكيف

يُحْمَى عليها؟ وإن كان ما كنزوه معادن فهي صالحة لأن تُكْوَى بها أجسادهم، أما الورق فكيف يتم ذلك؟ ونقول: إن القادر سبحانه وتعالى يستطيع أن يجعل من غير المُحْمَى عليه مُحْمَى، أو يحولها إلى ذهب وفضة؛ وتكوى بها نواح متعددة من أجسادهم، والكية هي أن تأتي بمعدن ساخنة وتلصقه بالجلد فيحرقه ويترك أثراً.

وحين مات أحد الصحابة في عهد الرسول ﷺ وبحوثوا في ثيابه فوجدوا فيها ديناراً، قال الرسول ﷺ: «هذه كَيْة من النار»؛ لأن صاحبه كان حريصاً على أن يكنزه، كما وجدوا مع صحابي آخر دينارين كنزهما، فقال رسول الله ﷺ: «هاتان كَيْتان»^(١).

كان هذا قبل أن تشرع الزكاة، أما إذا كان صاحب المال قد أدى حق الله فيه فلا يُعَدُّ كنزاً، وإلا لو قلنا: إن الإنسان إذا أبقى بعضاً من المال لأولاده حتى ولو أدى زكاته فإن ذلك يعتبر كنزاً، لو قلنا ذلك لكننا قد أخرجنا آيات الميراث في القرآن الكريم عن معناها؛ لأن آيات الميراث جاءت لتورث ما عند المتوفى. والمال المورث المفترض فيه أنه قد أتى عن طريق حلال وأدى فيه صاحبه حق الله، لذلك لا يعتبر كنزاً.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، لماذا خَصَّ الله هذه الأماكن بالعذاب؟ لأن كل جراحة من هذه الجوارح لها مدخل في عدم إنفاق المال في سبيل الله. كيف؟ مثلاً: تجدون الوجه هو أداة المواجهة، وإذا رأيت إنساناً فقيراً جاء إليك ليطلب صدقة، وأنت تعرف أنه فقير وقد جاءك لحاجته الشديدة، فإن كان أول ما تفعله حتى لا تؤدي حق الله أن تشيح بوجهك عنه، أو تعبس ويظهر على وجهك الغضب، فإن هذا الفقير يحسُّ بالمهانة والذلة؛ لأن الغني قد تركه وابتعد عنه، فإذا لم تنفع إشاحة الوجه واستمر الفقير في تقدمه من الغني، فإنه يُعْرِضُ عنه بأن يدير له جنبه ليحسَّ بعدم الرضا، فإذا استمر الفقير واقفاً بجانبه فإنه يعطي له ظهره.

(١) عن أبي أمامة قال: توفي رجل من أهل الصُّفَّة فوجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ: كية. ثم قال: توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: كيتان. أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٥، ٢٥٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٠/١٠): رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب. وقد وثق. وهذا الحديث ونحوه رواه أحمد عن عدة من الصحابة.

وقد يقول قائل: وما دينار أو ديناران حتى يكوى بهما بالنار؟ والجواب: إن هذا رجل من أهل الصُّفَّة أي: من الفقراء المعدمين الملازمين لمسجد رسول الله ﷺ ويأكل من صدقات المسلمين، بينما هو يكتنز الذهب ولو ديناراً في طيات ثيابه فكأنه أخذ حق غيره وحرم مجتمع المسلمين مما يكتنزه ومن جهده في العمل، فلو بهذا الدينار أتى بقدم واحتطب كما فعل رسول الله ﷺ مع غيره لكان أنفع لنفسه ولأهله ولغيرهم؛ ولهذا استحق الوعيد.

إذن: فالجوارح الثلاث قد تشترك في منع الإنفاق في سبيل الله، وهي الوجه الذي أداره بعيداً، ثم أعطاه جانبه، ثم أعطاه ظهره. هذه هي الجوارح الثلاث التي تشترك في منع حق الله عن الفقير، ولذلك لا بد أن تُعَذَّب فتُكْوَى الجباه والجنوب والظهور.

ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: هذا ما منعتم فيه حق الله، فإن كنز الإنسان مالا كثيراً فسيكون عذابه أشد ممن كنز مالا قليلاً؛ لأن الكَيَّ سيكون بمساحة كبيرة، أما إن كان الكنز صغيراً فتكون الكية صغيرة. ولهذا لا يجب أن يغتر المكتنز بكمية ما كنز؛ لأن حسابه سوف يكون على قدر ما كنز.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: أن عذابكم في الآخرة سيكون بسبب كنزكم المال، فالمال الذي تفرحون بكنزه في الدنيا كان يجب أن يكون سبباً في حزنكم؛ لأنكم تكنزون عذاباً لأنفسكم يوم القيامة، ومهما أعطاكم كنز المال من تفاخر وغرور في الحياة الدنيا، فسوف يقابله في الآخرة عذاب، كل على قدر ما كنز.



حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسِبوا

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

هل خلوتُ بنفسك يوماً، فحاسبتهَا عمّا بدر منها من الأقوال والأفعال؟ وهل حاولت يوماً أن تُعدَّ سيئاتك كما تُعدُّ حسناتك؟ بل هل تأملت يوماً طاعاتك التي تفتخر بذكرها؟

فإن وجدت أن كثيراً منها مشوّبٌ بالرياء والسمعة وحظوظ النفس، فكيف تصبر على هذه الحال، وطريقك محفوف بالمكاره والأخطار؟! وكيف القُدوم على الله، وأنت مُحمَّل بالأثقال والأوزار؟
قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

وقال تعالى:

﴿وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسِبوا، وزِنوها قبل أن تُوزَنوا، فإنَّ أهونَ عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تُعرضون، لا تخفى منكم خافية).

عبادة وخشية

وقد مدح الله تعالى أهل طاعته، بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَلَّا سَافِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهُم الذين يشربون الخمر ويَزِنُون ويسْرِقون؟ فقال ﷺ: «لا يا ابنة الصديق،

ولكنهم الذين يصومون ويصلُّون، ويتصدَّقون، ويخافون ألاَّ يُتقبَّلَ منهم، أولئك يسارعون في الخيرات» [الترمذي وابن ماجه وأحمد].

أخي المسلم؛ هكذا كان سلفنا الكرام، يتقربون إلى الله بالطاعات، ويسارعون إليه بأنواع القُرْبَات، ويحاسبون أنفسهم على الزَّلَّات، ثم يخافون ألاَّ يتقبلَ الله أعمالهم.

فهذا الصَّدِّيق رضي الله عنه: كان يبكي كثيراً، ويقول: ابكوا، فإنَّ لم تبكوا فتباكوا، وقال: والله لوددتُ أنِّي كنتُ هذه الشجرة، تُؤْكَلُ وتُعَصَّد.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قرأ سورة الطور، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رِيكٍ لَوْفٌ﴾ [الطور: ٧]. فبكى واشتدَّ في بكائه، حتى مرض وعادوه (زاروه). وكان يمرُّ بالآية في ورده بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أياماً يُعاد، يحسبونه مريضاً، وكان في وجهه خَطَانُ أسودان من البكاء!!.

وقال له ابنُ عباس رضي الله عنهما: مصّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح وفعل، فقال عمر: وددتُ أني أنجو، لا أجر ولا وِزْر!!.

وهذا عثمان بن عفان - ذو النورين - رضي الله عنه: كان إذا وقف على القبر بكى حتى بللَ لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيتهما يُؤمَّر بي، لاخترتُ أن أكون رماداً، قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير!!.

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان كثيرَ البكاء والخوف، والمحاسبة لنفسه. وكان يشدُّ خوفه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى. قال: فأما طول الأمل فيُسيي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق.

واعظُ الله في القلب

عن النّوّاس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ضربَ الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنْبَيْهِ الصُّرَاطُ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى الصُّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو يَقُولُ. يَا أَيُّهَا النَّاسُ!! اسْلُكُوا الصُّرَاطَ جَمِيعاً وَلَا تَعُوجُّوا، وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فَتْحَ شيءٍ من تلك الأبواب، قال: ويلك! ألا تفتحه، فإنك إن تفتحه تَلِجْه. فالصراط: الإسلام. والسُّتُور: حدود الله. والأبواب المُفْتَحَةُ: محارم الله. والداعي من فوق: واعظُ الله يذكر في قلب كل مسلم» [أحمد والحاكم وصححه الألباني].

فهلَّا استجبت - أخي المسلم - لواعظ الله في قلبك؟ وهلَّا حفظت حدود الله ومحارمه؟ وهلَّا انتصرت على عدوِّ الله وعدوك، قال تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

عن خالد بن معدان رضي الله عنه قال: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً، فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وإذا أراد به غير ذلك، تركه على ما فيه، ثم قرأ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

أقوال في محاسبة النفس

١ - كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: (حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة، عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهمته حياته، وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة).

٢ - وقال الحسن البصري: لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ماذا أردتِ عملين؟ وماذا أردتِ تأكلين؟ وماذا أردتِ تشربين؟ والفاجر يمضي قدماً لا يحاسب نفسه.

٣ - وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، أضاع نفسه وغبنها، مع ذلك تراه حافظاً لماله، مُضيّعاً لدينه.

٤ - وقال الحسن: إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة همته.

٥ - وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبةً من الشريك لشريكه، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوآن، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

٦ - وذكر الإمام أحمد عن وهب بن منبه قال: مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يُناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يُخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات، وإجماماً للقلوب.

٧ - وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: حس يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟

٨ - وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خفف الحساب

يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول: واللَّه إنني لأشتيهك، وإنك لمن حاجتي، ولكن واللَّه ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيلَ بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردتُ إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ واللَّه لا أعود إلى هذا أبداً.

إن المؤمنين قومٌ أوقفهم القرآن، وحالَ بينهم وبين هلكتهم.

إن المؤمنَ أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكّك رقبتَه، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سمعه وفي بصره، وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذٌ عليه في ذلك كله.

٩ - وقال مالك بن دينار: رحم الله عبداً قال لنفسه: أَلستِ صاحبة كذا؟ أَلستِ صاحبة كذا؟ ثم ألزمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله عزّ وجلّ، فكان لها قائداً.

١٠ - وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاقَ على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل!!.

قال الإمام ابن الجوزي: أعجبُ العُجاب أن النقاد يخافون دخول البهرج في أموالهم، والمبهرج آمن!! هذا الصديق يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وهذا عمر يقول: يا حذيفة، هل أنا منهم - يعني من المنافقين - والمخلط على بساط الأمن!!.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: (ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير، بل التفريط والأمن).

هكذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن نفسه وعصره، فماذا نقول نحن عن أنفسنا وعصرنا!!.

فلا تضيع أيامك، فإنها رأسُ مالك، فإنك ما دُمْتَ قادراً على رأس مالك قدرتَ على الربح، وإن بضاعة الآخرة كاسدة في يومك هذا، فاجتهد حتى تجمع بضاعة الآخرة في وقت الكساد، فإنه يجيء يومٌ تصير هذه البضاعة فيه عزيزة، فاستكثر منها في يوم الكساد ليوم العِزِّ، فإنك لا تقدرُ على طلبها في ذلك اليوم.

أَقْسَامُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ

محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

النوع الأول: محاسبة النفس قبل العمل، فهو أن يقف العبد عند أول همّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه - قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همّه، فإن كان لله مضي وإن كان لغيره تأخر.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل. وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبة النفس على طاعة قصّرت فيها في حقّ الله تعالى، فلم تُوقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحقّ الله تعالى في الطاعة ستّة أمور، وهي:

١ - الإخلاص في العمل.

٢ - النصيحة لله فيه.

٣ - متابعة الرسول ﷺ فيه.

٤ - شهود مشهد الإحسان فيه.

٥ - شهود منّة الله عليه فيه.

٦ - شهود تقصيره فيه.

فيحاسب العبد نفسه.. هل وفّى هذه المقامات حقّها؟ وهل أتى بها جميعاً في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد، لمّ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة، فيكون رابحاً؟ أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح، ويفوته الظفر به.

الأسباب المعينة على محاسبة النفس

هناك أسباب تُعين الإنسان على محاسبة نفسه، وتسهّل عليه ذلك منها:

١ - معرفته أنه كلما اجتهد في محاسبة نفسه اليوم استراح من ذلك غداً، وكلما أهملها اليوم اشتدّ عليه الحساب غداً.

٢ - معرفته أن ربح محاسبة النفس ومراقبتها هو سُكْنَى الفردوس، والنظر إلى وجه الربّ سبحانه، ومجاورة الأنبياء والصالحين وأهل الفضل.

٣ - النظر فيما يؤول إليه ترك محاسبة النفس من الهلاك والدمار، ودخول النار

والحجاب عن الربّ تعالى ومجاورة أهل الكفر والضلال والخبث .

٤ - صُحْبَةُ الْأَخْيَارِ الَّذِينَ يَحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَيُطْلَعُونَهُ عَلَى عِيُوبِ نَفْسِهِ ، وَتَرَكْ صُحْبَةَ مَنْ عَدَاهُمْ .

٥ - النَّظَرُ فِي أَخْبَارِ أَهْلِ الْمَحَاسِبَةِ وَالْمِرَاقَبَةِ مِنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ .

٦ - زِيَارَةُ الْقُبُورِ وَالتَّأَمُّلُ فِي أَحْوَالِ الْمَوْتَى الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ مَحَاسِبَةَ أَنْفُسِهِمْ ، أَوْ دَرْكُ مَا فَاتَهُمْ .

٧ - حُضُورُ مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالْوَعظِ وَالتَّذْكِيرِ ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى مَحَاسِبَةِ النَّفْسِ .

٨ - قِيَامُ اللَّيْلِ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ .

٩ - الْبُعْدُ عَنْ أَمَاكِنِ اللَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ ، فَإِنَّهَا تُنْسِي الْإِنْسَانَ مَحَاسِبَةَ نَفْسِهِ .

١٠ - ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَدَعَاؤُهُ بِأَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَحَاسِبَةِ وَالْمِرَاقَبَةِ ، وَأَنْ يُؤَفِّقَهُ لِكُلِّ خَيْرٍ .

١١ - سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ ، فَإِنْ حُسِّنَ الظَّنُّ بِالنَّفْسِ يُنْسِي مَحَاسِبَةَ النَّفْسِ ، وَرَبِمَا رَأَى الْإِنْسَانُ - بِسَبَبِ حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ - عِيُوبَهُ وَمَسَاوِيَّهُ كَمَا لَا .

حَقُّ عَلَى الْحَازِمِ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَلَّا يَغْفَلَ عَنْ مَحَاسِبَةِ نَفْسِهِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا فِي حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا وَخَطَوَاتِهَا وَخَطَرَاتِهَا ، فَكُلُّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْعُمَرِ جَوْهَرَةٌ نَفِيسَةٌ ، يُمْكِنُ أَنْ يُشْتَرَى بِهَا كَنْزٌ مِنَ الْكُنُوزِ ، لَا يَتَنَاهَى نَعِيمُهُ أَبَدَ الْآبَادِ .

فِإِضَاعَةُ هَذِهِ الْأَنْفَاسِ ، أَوْ اشْتِرَاءُ صَاحِبِهَا مَا يَجْلِبُ هَلَاقَهُ خَسْرَانٌ عَظِيمٌ ، لَا يَسْمَحُ بِمِثْلِهِ إِلَّا أَجْهَلُ النَّاسِ وَأَحْمَقُهُمْ وَأَقْلَهُهُمْ عَقْلاً ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُ حَقِيقَةُ هَذَا الْخَسْرَانِ يَوْمَ التَّغَابِنِ :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

وَكَانَ تَوْبَةُ بْنُ الصَّمَةِ مِنَ الْمَحَاسِبِينَ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَحَسِبَ يَوْمًا ، فَإِذَا هُوَ ابْنُ سَتِينَ سَنَةً ، فَحَسِبَ أَيَّامَهَا فَإِذَا هِيَ أَحَدُ وَعِشْرُونَ أَلْفَ يَوْمٍ وَخَمْسَمِائَةَ يَوْمٍ فَصَرَخَ وَقَالَ : يَا وَيْلَتِي ! أَلْقَى رَبِّي بِأَحَدٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذَنْبٍ ؟ كَيْفَ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ مِنَ الذُّنُوبِ ؟ ثُمَّ خَرَّ مَعْشِيًّا عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ ، فَسَمِعُوا قَائِلًا يَقُولُ : (مَا لَكَ رَكُضَةٌ إِلَى الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى) .

كيفية محاسبة النفس

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن محاسبة النفس تكون كالتالي :

أولاً: البدء بالفرائض ، فإذا رأى فيها نقصاً تداركه .

ثانياً: ثم المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثالثاً: محاسبة النفس على الغفلة، ويتدارك ذلك بالذكر والإقبال على الله.

رابعاً: محاسبة النفس على حركات الجوارح، وكلام اللسان، ومَشْي الرِّجْلَيْن، وبَطْش اليدين، ونظر العينين، وسماع الأذنين، ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته.

فوائد محاسبة النفس

ولمحاسبة النفس فوائد جمّة منها:

- ١ - الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته.
- ٢ - التوبة والندم، وتدارك ما فات في زمن الإمكان.
- ٣ - معرفة حقّ الله تعالى، فإن أصل محاسبة النفس هو محاسبتها على تفريطها في حقّ الله تعالى.
- ٤ - انكسار العبد وذلّته بين يدي ربه تبارك وتعالى.
- ٥ - معرفة كرم الله - سبحانه وتعالى - وعفوه ورحمته بعباده، في أنه لم يعجل عقوبتهم مع ما هم عليه من المعاصي والمخالفات.
- ٦ - مَقَّت النفس والإزراء عليها، والتخلّص من العجب ورؤية العمل.
- ٧ - الاجتهاد في الطاعة وترك العصيان، لتسهيل عليه المحاسبة فيما بعد.
- ٨ - ردّ الحقوق إلى أهلها، وسلّ السّخائم، وحُسن الخلق، وهذه من أعظم ثمرات محاسبة النفس.

قطار العمر

قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة. قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تصل!!.

وقال أبو الدرداء: إنما أنت أيام، كلما مضى منك يومٌ مضى بعضُك.

فيا أبناء العشرين! كم مات من أقرانكم وتخلّفتُم؟!.

ويا أبناء الثلاثين! أصبّتم بالشباب على قُرب من العهد، فما تأسفتم؟

ويا أبناء الأربعين! ذهب الصّبا وأنتم على اللّهُو قد عكفتُم!!.

ويا أبناء الخمسين! تنصفتُم المئة وما أنصفتُم!!.

ويا أبناء الستين! أنتم على مُعترك المنايا قد أشرفتم، أنلهون وتلعبون؟ لقد أسرفتم!! .

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى مَنْ بلغَ ستين سنة» .

أخي الحبيب:

كم صلاة أضعتها؟

كم جمعة تهاونت بها؟

كم صيام تركته؟

كم زكاة بخلت بها؟

كم حج فوّته؟

كم معروف تكاسلت عنه؟

كم مُنكر سكت عليه؟

كم نظرة محرمة أصبّتها؟

كم كلمة فاحشة تكلمت بها؟

كم أغضبت والدك ولم تُرضهما؟

كم قسوت على ضعيف ولم ترحمه؟

كم من الناس ظلمته؟

كم من الناس أخذت ماله؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أندرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع؟ فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فُنيَتْ حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرِحَ في النار» [أخرجه مسلم].

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقُطِعُهَا فَاغْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا
وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ فَإِنَّمَا الرَّبْحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.



شهادة أعضاء جسم الإنسان على نفسه

يوجد لكل مخلوق حياة في هذا الكون، حياة قد تجهلها، وحياة قد تعرف منها أشياء، وتجهل أشياء، وحياة قد تعرفها كلها، لكن لكل ما خلق الله في هذا الكون حياة تناسب مهمته على الأرض.

إذن: بما أنك وصلت إلى هذه النتيجة، فلا تستغرب قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَ وَهَّا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِيُجْلُوهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

لأن الجلود هي من خلق الله - سبحانه وتعالى - ولها لغة تُسَبِّحُ بها، ولكن لا نفهمها ولا نسمعها، وكذلك العين والأذن والأنف، وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبحة لله طائعة له، ولكنها مُسَخَّرَةٌ لنا، فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكيناً، أو رجلاً أعمى، وأن أبطش بها بالضعيف.

واللسان في الحياة الدنيا مُسَخَّرٌ لي، أستطيع أن أقول به الحق، وأن أقول به الكذب، وأنطق بكلمة الإيمان أو كلمة الكفر، وهو في هذا يُطِيعُني، وفي هذا يطيعني.

وكذلك كل أعضاء الجسد، فإذا جاءت الآخرة انتهى هذا التسخير وزال، وأصبح اللسان الذي كان مُسَخَّرًا لخدمتي في الحياة الدنيا بأمر الله، خارجاً عن أن يكون مُسَخَّرًا لي ويشهد عليّ، وكذلك العين، وكذلك الجلد، إلى آخره.

وحينئذٍ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد عليّ بالحق، بما فعلت في الدنيا من معاصٍ، وحينئذٍ يجعلنا نفهم لغتها، وهي تنطق وتقول: الله أنطق كل شيء وهو أعلم ببلغة الأجناس كلها ويستطيع أن يعطي، وأن يهب ما يشاء لمن يشاء.

ولقد خصّ أنبياءه في الدنيا بنفحات من هذا العلم، فأعطى سليمان مُلْكاً لم يُعْطِ لأحد بعده، وعلمه منطق الطير، وآتاه من كل شيء، وكذلك داود، وكذلك كل من ارتضى الله من عباده، يعلمه من لدنه علماً، فيفقه ويفهم ويرى ويسمع، ما لا نفهمه، وما لا نراه، ولا نسمعه ولا نفهمه، تلك عظمة الله، وتلك حكمة الله.

كَيْفَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْجِلْدَ وَالْعَيْنَ وَاللِّسَانَ؟

وهنا نقطتان :

النقطة الأولى : كيف سيعذب الله الجلود والأعين والألسنة، وهي عابدة لله مُسَبِّحة له، وذلك مصداق لقوله سبحانه وتعالى :

﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ٥٦].

نقول: إن هذه الأعضاء كلها ستكون سعيدة، وهي تحرق العاصي لله، الكافر به، كما ستكون الحجارة سعيدة، وهي مشتعلة بالنار لتحرق أولئك الذين عبدوها وكفروا بالله، كل هذه الأشياء المطيعة لله، والتي ستُستخدم في إذابة العذاب للنفس البشرية ستكون سعيدة، لأنها تُذيق العذاب لعاصٍ كفر بنعمة الله.

النقطة الثانية : هي قول الله سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

ولقد حاول العلماء أن يصلوا إلى معنى الحي ومعنى الميت، وما دام كل شيء حياً، فكيف يخلق الله الحي من الميت.

نقول: إن الحياة في خلق الله هي أن يؤدي الموجود مهمته، أي: أن كل شيء حي له مهمة في الحياة، فإذا انتهت هذه المهمة خرج من مفهوم الحياة الدنيوية وأصبح ميتاً؛ ولذلك فإن الشجرة مثلاً إذا أعطت كل ما فيها من ثمار تموت بعد ذلك، وتخرج من الحياة لأنها أدت مهمتها.

وكذلك الإنسان عندما تنتهي مهمته في الحياة، ويمر بفترة الاختبار التي قدرها الله له، ويُمتحن ويُختبر مرة ومرة، وتنتهي حياته بعد أن انتهت المهمة التي جاء من أجلها للحياة، وهي فترة الاختبار التي مرَّ بها.

وكذلك الحيوان والنبات والجماد، فالله تعالى أعطى الإنسان حياة حسّ وحركة في الدنيا، ثم أعطاه حياة أخرى في الآخرة يُصعّد بها حياته في الدنيا ويجعل لها قيمة، فالنعم في الدنيا للمؤمن والكافر، ولكنها في الآخرة للمؤمن وحده.

هنا نتوقف عند قوله تعالى :

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥].

فما دام كل شيء في الدنيا فيه حياة، فأين هو الميت الذي ستخرج منه الحياة؟

والحياة عرفنا أنها في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فإذا كان كل ما في الكون حياً، فأين هو الميت؟

وقبل أن نبدأ الإجابة عن هذا السؤال - ونحن نعرف أن من أسماء الله الحسنی (المحيي والمميت) - لا بد أن نوضح أن أسماء الله - سبحانه وتعالى - تدل على الثبوت وعلى الحدوث معاً، فالحق تبارك وتعالى له صفة في ذاته، وصفة في متعلقات هذه الذات.

فإذا قلنا: إن الله هو الرزاق، فهذه صفة للحق - تبارك وتعالى - قبل أن يكون هناك مخلوق يرزقه الله . . والله - سبحانه وتعالى - رزاق قبل أن يخلق من يحتاج إلى الرزق، ولو أنه - سبحانه وتعالى - لم يكن رزاقاً قبل أن يوجد من يرزقه، فكيف يستطيع أن يرزق خلقه لحظة وجودهم؟

وإذا لم يكن - سبحانه وتعالى - هو الخالق قبل أن يبدأ الخلق، فبأي صفة يتم هذا الخلق ويبدأه؟ لا بد أن توجد الصفة أولاً، قبل أن يوجد الفعل.

فالله - سبحانه وتعالى - خالق قبل أن يخلق أحداً، والخلق بدأ أولاً بوجود صفة الخالق في حق الله تبارك وتعالى، حتى قبل أن يوجد مخلوق واحد. إذن: فالخلق صفة لذات الله موجودة قبل أن توجد أفعال هذه الصفة، والله محيي قبل أن توجد الحياة، ومميت قبل أن يوجد الموت.

إذن: فالصفة موجودة في الذات، فالله قبل أن يخلق كان خالقاً، وقبل أن يقدر كان قادراً، وقبل أن يحيي ويميت كان محيياً ومميتاً.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥].

قبل أن تكون هناك حياة ووجود.

وإذا أخذنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بالمعنى السطحي، فنحن لا نرى في أشياء كثيرة حياة الحس والحركة كما نفهمها، وعدد كبير من الحيوانات التي تبيض ولا تلد لا نرى في بيضها حياة، ومع ذلك يخرج الصغار من هذا البيض، والمرأة قد تلد طفلاً ميتاً، والبيض قد لا تخرج منه حياة.

ولكن إذا أردنا أن نتعمق، فإننا يجب أن نأخذ المعنى على أنه كما أن الحياة خلق، فالموت أيضاً خلق، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

إذن: فالحياة خلق، والموت خلق.

ونلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - قد ذكر الموت قبل الحياة، فقال:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

فإذا كنا نعيش في هذه الدنيا خَلَقَ الحياة، فإننا نعيشُ خَلَقَ الموت عندما نغادر هذه الحياة، وكل خَلَقَ له قوانينه، وله عالمه، وله وجوده الذي لا نُحِسُّ به، وما دامت الحياة والموت خَلَقًا، واللَّه - سبحانه وتعالى - وحده هو الخالق، فكل شيء يأتي إلى الحياة وهو من الله، وكل شيء يذهب عن هذه الحياة فهو إلى الله، وانتقال الشيء من عالم الحياة إلى عالم الموت هو ما يُطلق عليه الله - سبحانه وتعالى: ﴿الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

فنحن قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا كنا مخلوقين، ولكن كنا أمواتاً لم تكن لنا حياة في هذا العالم، ثم جئنا إلى هذا العالم فأصبحت لنا حياة، ثم نغادر هذا العالم فنصبح أمواتاً، ثم نعود مرة أخرى إلى عالم الحياة الأبدية.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

أي: أننا كنا أمواتاً قبل أن نأتي إلى هذه الحياة الدنيا، ثم انتقلنا من عالم الموت إلى عالم الحياة في الدنيا، ثم تنتقل مرة أخرى إلى عالم الحياة لِنَحْاسِبَ يوم القيامة، ثم نعود إلى الله، إما أن يُعَذِّبَنَا، وإما أن يُنْعِمَنَا.

فكأننا ونحن أحياء في عالم الذرِّ كنا أمواتاً في عالم الدنيا.

وعندما انتقلنا من عالم الذرِّ إلى عالم الحياة الدنيا أصبحنا أحياء، ثم نغادر الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ، لنعود مرة أخرى أمواتاً في عالم الدنيا، ثم نُبْعَثُ ونُخْرَجُ أحياء من نفس الأرض، ثم هناك الحساب والخلود.

وعندما يأتي الخلود لا يكون هناك موت، أي: أن عالم الموت ينتهي يوم القيامة بالنسبة للمؤمن والكافر، ولكن يكون هناك خلود: خلود في النعيم، أو خلود في العذاب. ولكن عالم الموت ينتهي.

إذن: فعالم الموت موجود حتى يوم القيامة ثم ينتهي، أما عالم الحياة فموجود كخلود بعد يوم القيامة، بهذا نكون قد عرفنا أن الحياة هي خروج من عالم خَلَقَهُ الله، له قوانينه، إلى عالم الحياة الدنيا الذي له قوانينٌ مختلفة تماماً.

والموت هو خروج من عالم الدنيا إلى عالم آخر من خَلَقَ الله، فكأن الله

سبحانه وتعالى هو القادر وحده أن يُخرج مخلوقاته من عالم الموت إلى عالم الحياة الدنيا، ويخرجها من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الموت، ولا قدرة لأحد.

تأمل دقة القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥].

أي: أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يأتي بكل شيء إلى عالم الحياة، دون أن يكتب على نفسه شيئاً، فهو يُخرج مَنْ يشاء من عالم الموت إلى عالم الحياة، ولكن متى جاء الإنسان إلى عالم الحياة ثم مات، فإن الله لا بد أن يخرج يوم القيامة من عالم الموت إلى عالم الحياة. أي: لا بد أن يبعثه.

فقبل المجيء إلى الدنيا لم يكتب الله على نفسه شيئاً، ولكن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن كل مَنْ يأتي إلى الدنيا لا بد أن يُبعث يوم القيامة، وعداً عليه حقاً، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿يَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

فكل مَنْ جاء من عالم الدُّرِّ إلى عالم الحياة الدنيا انتقل إلى عالم الموت لا بدَّ مبعوث يوم القيامة؛ لذلك اختلف التعبير، فقال الحق سبحانه:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥].

هذه هي الحياة بمفهومها العميق، وهذا هو خَلْق الحياة و خَلْق الموت، ولا بدَّ لنا أن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة، وقبلها لا بد أن نتحدث عن معنى الساعة، وعلاماتها.



معنى الساعة

قبل أن نبدأ الحديث عن أحداث يوم القيامة، فإنه لا بدّ من حديث عن معنى الساعة، ذلك أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة، ومتى تقع، إلى آخر ما نسمعه من أسئلة بين عدد من الناس، ومن تنبؤات بين عدد من العلماء.

بعضهم يقول: إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيتجمّد كل شيء. والبعض الآخر يقول: إن الأرض ستقترب من الشمس، فيحترق فيها كل شيء. والبعض الثالث يقول: إن الأوكسجين سيقبل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة.

كل هذه وغيرها تنبؤات تقوم على الظن، وليس على اليقين. فحتى الآن لا أحد يعرف يقيناً ماذا سيحدث، ولا متى سيحدث. نقول لهؤلاء جميعاً: لقد شغلتم أنفسكم بعلم لا ينفع، وجهل لا يضر، ذلك أنه مهما كان عمر الأرض ملايين السنين فأنا لا يعينيني منها إلا فترة بسيطة جداً، هي فترة عمري.

فقبل أن أولّد لا علاقة لي بالحياة على الأرض. إذن: فموعد القيامة بالنسبة لي هو موعد انتهاء حياتي على الأرض، فمن مات قامت قيامته. لماذا؟ لأنه يرى كل شيء، يرى ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ويرى أشياء كثيرة لم يكن يراها في الدنيا، وبالنسبة له تنتهي فترة الاختبار التي هي المدخل إلى يوم القيامة.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

لماذا قال الحق سبحانه: ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

لأن الذي يموت كافراً يعلم يقيناً أن لا أمل له إلا العذاب في الآخرة، ولأنه رأى فهو يعرف أن لا أمل له في دخول الجنة، وأن لا أمل له في النجاة من النار، وهذا اليأس يصبح يأساً يقينياً.

فالإنسان يعرف مصيره ساعة يُحضر، تلك اللحظات التي بين الموت والحياة

فيشاهد فيها الإنسان كل ما أخفي عنه، تلك الساعة التي تغادر فيها الروح الجسد أو سكرة الموت كما يسميها الله سبحانه وتعالى .

تلك اللحظات التي تخدم فيها بشرية الإنسان، وتنتهي فيها حياة الاستعلاء وحياة الكبر، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومن فيها .

وإذا أردت أن تشهد ذلك، فانظر إلى إنسان قد تجبر وعلا، وأعطاه الله أسباب الملك في الدنيا، تجده ساعة الاحتضار ضعيفاً ذليلاً عاجزاً، كل مظاهر الاستعلاء ذهبت، ينظر إليك في مسكنة غريبة، ويحاول أن يستنجد بكل من حوله، ولكن الكل عاجزون .

في هذه اللحظة، يأخذ الإنسان مقدمات الغيب، ويرى ما أخبره الله سبحانه وتعالى عنه، ولم يكن يُصدّقه، ذلك لأن بشريته الآن قد خمدت، وما دامت البشرية قد خمدت تهب نفحات الغيب .

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩] .

أي: ما كنت تظن أنه لن يقع، أو تحاول ألا تتذكّره، وألاً تعترف به، وكنت تظن أن هذه اللحظة لن تأتي، فإذا أتت فأنت تتوهم أن شيئاً لن يحدث فيها، في هذه اللحظات بالذات لا تنفع التوبة، ولا يُجدي الاستغفار، فمع سكرة الموت ينقطع عمل الإنسان الدنيوي، وتأتي الساعة التي ينتقل فيها كل منا إلى عالم البرزخ لينتظر الحساب .

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٥] .

أي: أن الإنسان وهو يحتضر يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله ساعة الاحتضار، ومع أن أهل المحتضر يحيطون به إحاطة لصيقة عن قرب في هذه الساعة العصيبة، فإن ملكوت الله يكون أقرب منهم إليه، وتحيط بالإنسان في هذه الحالة : إما ملائكة الرحمة إذا كان صالحاً، أو زبانية جهنم - والعياذ بالله - إذا كان فاسقاً .

رؤية الظالم للملائكة عند الاحتضار

على أننا لا بد أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ

تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [الأنعام: ٩٣].

نتوقف عند قول الحق سبحانه: ﴿**أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾، والنفس - كما قلنا - هي التقاء الروح بالجسد، فكيف يطلب الملائكة من الظالم أن يخرج نفسه؟ لكي نفهم هذه الآية لا بد أن نضع في أذهاننا أن هذا المحتضر كان كافراً بالله ومُكذِّباً للبعث، وحينئذٍ إذا جاءت ساعة الاحتضار يكون حوله ملائكة العذاب أو زبانية جهنم.

يقولون له: هأنذا ترى الآن ما كنت تُكذِّب به، وترى العذاب الذي ينتظرك فإن كانت لك قوة أو قدرة كما كنت تدَّعي في الحياة الدنيا فأخرج نفسك مما ينتظرك، اهرب من العذاب الشديد الذي سوف تلاقيه، أرنا أين ستذهب.

لقد كانت لك قدرة في الحياة الدنيا، قدرة من الله، ولكنك بدلاً من أن تستخدمها في شكر الله، انطلقت تقول على الله غير الحق، وتستكبر في الأرض، وتبارز الله بالمعاصي، ولكنك الآن لا تملك شيئاً لنفسك، ولا تملك أن تستجير بأنصارك، فأنت ترى العذاب وهو واقع بك، ولن تفلت منه.

رؤية المؤمن لملائكة الرحمة

المؤمن يرى الملائكة أيضاً، ولكنه يرى ملائكة الرحمة الذين يُبشِّرونه بالجنة، ويستقبلونه بالسلام، ويكون فرحاً مُستبشراً، فالإنسان حين يحتضر تكون قيامته قد قامت، ولا علاقة له بالأيام والأحداث القادمة إلى الدنيا، فهو قد انتهى دوره عند هذه اللحظة، وانتهت مهمته في الحياة، وانتقل إلى عالم القيامة، عالم الحساب لينتظر يوم تقوم الساعة.

ولذلك، فإننا نقول لكل مَنْ يجهدون أنفسهم في أشياء هي من علم الغيب، ولم يصلوا إليها يقيناً. نقول لهم: لا تُجهدوا أنفسكم في أشياء هي من علم الغيب، ولم تصلوا إليها يقيناً، فما دام الله قد أخفى وجعل الساعة عنده، فلا أحد يعلمها سواه، وحتى لو علمتها فماذا ستستفيد منها، لنفرض أنني علمت أن الساعة ستقوم بعد ألف سنة.. فماذا سيفيدني ذلك؟

هل سأعيش ألف عام أتأثر بأحداث الأرض والحياة وتأثر بي؟ أم أن المسألة ستنتهي بعد سنوات، طالت أم قصُرت، حتى لو قلت للناس: إن القيامة ستقوم بعد ألف سنة، فماذا يستفيدون؟ معظمهم سيقابل هذا الكلام بالسخرية وعدم التقدير. وآخرون سيقولون: ما لنا نحن وما سيحدث بعد هذه الفترة الطويلة؟

لو عرفنا موعد الساعة ما كان ذلك ليفيدنا على المدى الطويل، فإذا نظرنا إليها

على المدى القصير، وتصديقاً لقول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»، إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية، وهي أن القيامة الصغرى عندما يموت الإنسان، والقيامة الكبرى في آخر الزمان.. نجد أيضاً أن الأجل قد أُخْفِيَ عنا.. لماذا؟

لنتوقع الموت في كل لحظة ودقيقة، فيسارع كل منا إلى الخير قدر إمكانه ويتبعد عن الشر قدر استطاعته، ولو أن الأجل محدد معلوم لأثر ذلك على استمرارية الخير في الكون، ولزاد من استمرارية الشر.

فإذا علمتُ أن أجلي مثلاً خمس وستون سنة، فإنني أظل أتبع أهوائي وشهوأتي إلى سنِّ الستين، ثم أتوب بعد ذلك، وبذلك نكون قد أعطينا استمرارية للشر في الكون، وبخاصة أن ذلك سينطبق على معظم الناس.

وفي نفس الوقت، فإن كلاً منا إذا عرف أجله أجل الخير إلى السنوات الأخيرة من عمره، فنكون بذلك قد قطعنا استمرار الخير، ولكن حتى يستمر الخير في الكون، ويسارع كل منا إليه، فإن الأجل المخفي هو السبيل.

على أنه حتى لو قلت لإنسان: إن عمرك سينتهي بعد عام أو عامين، أو شهر أو شهرين، فإنه لا يُصدقك، وسيظل يراوده الأمل في أنه سيعيش أكثر، ولا يحس الإنسان بيقين الموت إلا ساعة الاحتضار، ففي هذه الساعة يعرف الإنسان يقيناً أنه سيموت، ولكن حتى قبلها بساعات، ومهما اشتد المرض عليه فإن الأمل يظل يراوده في أنه سيشفى ويعيش.

إذن: فالبحث عن موعد الساعة، سواء كان نهاية للأجل أو نهاية للكون، لا بد أن نتركه لأننا لن نصل فيه إلى شيء، وعندما ينتقل الإنسان من حياة الدنيا إلى حياة البرزخ، فإنه ينتقل من حياة لها قوانينها إلى حياة أخرى لها قوانينها المختلفة.

والله سبحانه وتعالى أراد أن يُقَرِّب ذلك إلى أذهاننا، فأعطانا قانونين مختلفين في حياتنا، هما: قانون اليقظة، وقانون النوم، فالإنسان وهو مستيقظ يحس بالأحداث، يؤثر فيها ويتأثر بها، ويحس بالزمن، ويرى بعينه، ويمشي بقدميه، إلى آخر ما نعرفه عن حياة اليقظة.

فإذا رأى نفسه يمشي وهو نائم، قدماء لم تتحركوا من فوق السرير، ويرى وعيناه مُغلقتان، ويتحدث مع مَنْ انتقلوا إلى الحياة الآخرة، ويرى أشياء عجيبة تحدث له وأماكن غريبة يذهب إليها، كيف يتم ذلك وهو مُلقًى على السرير بلا حراك، عيناه مُغمضتان لا يدري بما يحدث حوله، غائب عن الزمن.

نقول: لأن هناك قانوناً للنوم يختلف تماماً عن قانون اليقظة، فهناك بصر يرى

بخلاف العينين، وحركة تتم دون تحرّك الجسد، وأشياء تحدث لا تخضع لقوانين الجسد البشري، ولا يعرف العلمُ عنها شيئاً.

فإذا حدّثنا عن أن هناك قوانينَ بعد الموت مختلفة تماماً عن قوانين الحياة في الدنيا، فلنأخذ من الاختلاف بين قانوني اليقظة والنوم ما يُقَرِّب هذه الصورة لأذهاننا، وحينئذٍ تستطيع عقولنا أن تفهم.

لقد قستُ القلوبُ فهي ما بين شواغل الدنيا وصوارفها وملهياتها.. ثم إذا أفاقَتْ فإذا هي تفيق إلى نكبات وهموم وغموم تتجاوزها، فإذا حديث الرقائق والغائب، إذا الحديث المخوّف، والحديث المرقّق غريبٌ عن القلوب، غريب على الآذان، قلّ ما تنصتُ إليه، وقلّ ما تسمعه.

كما كان رسول الله ﷺ يتعاهد أصحابه بمواعظ توجّل منها القلوب، وتذرف منها العيون، وترتعد منها الفرائص.

يقف رسول الله ﷺ يخطبُ أصحابه بكلمات قليلات يسيرات مباركات، فيقول لهم: «أيها الناس أريْتُ الجنةَ والنارَ، فلم أرَ كالיום في الخير والشر، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولخرجتم الصُّعدات تجأرون إلى الله.»

فما أن يتأمَّ هذا الكلامُ من رسول الله ﷺ حتى يخفض الصحابةُ رؤوسهم، ويكبوا بوجوههم ولهم ضجيج وخنينٌ بالبكاء.

وقد حدّر المولى جلّ وعلا وأنذر عباده أشد التحذير، وأنذرهم غاية الإنذار من عذاب النار، ومن دار الخزي والبوار، فقال المولى جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه:

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤].

وقال: ﴿إِنَّمَا لِإِحْدَى الْكَبِيرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [المدر: ٣٥، ٣٦].

فوالله ما أنذر العباد وخوفهم بشيء قط هو أشد وأدهى من النار، فوصف لهم حرّها ولظّاهها، ووصف لهم طعامها وشرابها، ووصف أغلالها ونكّالها، ووصف حميمها وغساقها، ووصف أصفادها وسرايلها.

وصف ذلك كله، حتى إن من يقرأ القرآن بقلب حاضر، ويسمع وصفَ جهنم، فكأنما أُقيم على شفيرها، فهو يراها يحطم بعضها بعضاً، كأنما يرى أهل النار يتقلّبون في دَرَكَاتها، ويُجرّجرون في أوديتها.. كل ذلك من المولى جلّ وعلا إنذارٌ وتحذيرٌ.

وكذا خَوْفٌ نبينا ﷺ من النار، وحَذَرٌ وأنذر، وتَوَعَّد وحذَّر، وكان ﷺ شديد الإنذار، شديد التحذير من النار، فقد وقف ﷺ على منبره، فجعل ينادي ويقول: «أَنْذَرْتَكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتَكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُمْ النَّارَ». وعلا صَوْتُهُ ﷺ، حتى سمعه أهل السوق جميعاً، وحتى وقعت خميصة كانت على كتفيه ﷺ فوقعت عند رِجْلَيْهِ من شدة تأثيره وانفعاله بما يقول عليه الصلاة والسلام.

وقال ﷺ: «أَنَا آخِذٌ بِحِجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ، أَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَجَهَنَّمَ وَالْحُدُودَ، إِيَّاكُمْ وَجَهَنَّمَ وَالْحُدُودَ، إِيَّاكُمْ وَجَهَنَّمَ وَالْحُدُودَ». فهو ﷺ آخِذٌ بِحِجْزِ أُمَّتِهِ يقول: إِيَّاكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَعِصُونَهُ وَيَتَّقَحُمُونَهَا.

وقد ذَكَّرْنَا بِهَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَايَةَ التَّذْكِيرِ، وَحَذَّرْنَا مِنْهَا أَعْظَمَ التَّحْذِيرِ. . أَلَا فَلَنُشْعِرَ الْقُلُوبَ بِشَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِهَا، وَلَنُذَكِّرَ النُّفُوسَ بِشَيْءٍ مِنْ أَهْوَالِهَا، عَسَى قَسْوَةٌ مِنْ قُلُوبِنَا تَلِينُ، وَغَفْلَةٌ مِنْ نَفُوسِنَا تُفِيقُ. . فَإِنْ سَأَلْتَ عَنِ النَّارِ، فَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ دَارِ مَهُولَةٍ، وَعَذَابٍ شَدِيدٍ.

إِنْ سَأَلْتَ عَنْ: حَرِّهَا، وَعَنْ قَعْرِهَا، وَحَمِيمِهَا، وَزَقُومِهَا، وَأَصْفَادِهَا، وَأَغْلَالِهَا، وَعَذَابِهَا، وَأَهْوَالِهَا، وَحَالِ أَهْلِهَا. . فَمَا ظَنُّكَ بِحَرِّ نَارٍ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سُودَاءُ مَظْلَمَةٍ.

مَا ظَنُّنَا بِحَرِّ نَارٍ، نَارُنَا الَّتِي نُوقِدُهَا جِزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جِزْءاً مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ! أَمَا بُعْدُ قَعْرِهَا. . فَمَا ظَنُّنَا بِقَعْرِ نَارٍ يُلْقَى الْحَجَرُ الْعَظِيمُ مِنْ شَفِيرِهَا، فِيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ سَنَةً لَا يُدْرِكُ قَعْرَهَا.

أَمَا طَعَامُهَا وَشَرَابُهَا. . فَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ خَالِقِهَا وَالْمَتَوَعَّدِ بِعَذَابِهَا: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨].

أَمَا شَرَابُهَا، فَاسْتَمِعْ إِلَى مَا يَقُولُ رَبُّنَا وَخَالِقُنَا: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فهذا الطعام: ﴿ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ [المزمل: ١٣].

وهذا الشراب: ﴿مِنْ زَوَاجِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ

وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِحَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٦﴾ [إبراهيم: ١٧].

يقول النبي ﷺ في بيان حال طعام أهل النار: «لو أن قطرةً من الرّقوم قُطِرَتْ في الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم».

فكيف بمن تكون طعامه؟! .

يُلْقَى على أهل النار الجوع، فإذا استغاثوا أغاثوا بشجر الزقوم. فإذا أكلوه غلا في بطونهم كغلي الحميم، فيستسقون فيُسقون بماء حميم، إذا أدناه إلى وجهه شوى وجهه، فإذا شربه قَطَعَ أمعاءه حتى يخرج من دُبُرِهِ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

أما سلاسلها وأغلالها، فاستمع إلى وصفها:

﴿تُرْفِي سِلْسِلَةٌ ذَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢].

﴿فِيَوْخَذُ بِالْئَوَىٰ وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

أي: أن ناصية رأسه تُجمع إلى قدميه من وراء ظهره.

ينشئ الله لأهل النار سحابةً سوداءً مظلمة، فيُقال لهم: يا أهل النار.. أي شيء تطلبون؟ فيقولون: الشراب، فيستسقون. فتمطرهم تلك السحابة السوداء أغلالاً تزيد في أغلالهم، وسلاسل تزيد في سلاسلهم، وجمراً يتلهب عليهم.

أما عذاب أهل النار وكل ما مضى من عذابها؟ فما ظنك بعذاب دار، أهون أهلها عذاباً من كان له نعلان يغلي منهما دماغه، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم.

أما حال أهلها فشرُّ حال، وهوانهم أعظم هوان، وعذابهم أشد عذاب؟

ما ظنك بقوم قاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة، لم يأكلوا فيها أكلة، ولم يشربوا فيها شربةً حتى انقطعَتْ أعناقهم عطشاً واحترقت أكبادهم جوعاً. ثم انصُرف بهم إلى النار، فيُسقون من عين آنية، قد آذى حرها واشتد نضجها.

فلو رأيتهُم وقد أسكنوا داراً ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك قد شُدَّت أقدامهم إلى النواصي، واسودَّت وجوههم من ظلمة المعاصي، يُسحبون فيها على وجوههم مغلولين. النار من فوقهم، النار من تحتهم، النار عن أيمنهم، النار عن شمائلهم: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

فغطاؤهم من نار، وطعامهم من نار، وشرابهم من نار، ولباسهم من نار،

ومهادهم من نار. . . فَهُمْ بَيْنَ مُقَطَّعَاتِ النَّيْرَانِ، وَسَرَابِيلِ الْقَطْرَانِ، وَضَرْبِ الْمَقَامِعِ، وَجَرِّ السَّلَاسِلِ يَتَجَلَجَلُونَ فِي أَوْدِيَّتِهَا، وَيَتَحَطَّمُونَ فِي دَرَكَاتِهَا، وَيَضْطَرِبُونَ بَيْنَ غَوَاشِيهَا، تَغْلِي بِهِمْ كَغُلَى الْقَدُورِ، وَهُمْ يَهْتَفُونَ بِالْوَيْلِ وَيَدْعُونَ بِالشُّورِ:

﴿يَصُبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حديدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

يتفجر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود عيونهم وأهدابهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَنْضَجُ جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

أمانيتهم فيها الهلاك، وما لهم من أسرها فكاك، فما حال دار أمانى أهلها إذا تمنوا فيها الموت؟ ما حال دار أمانى أهلها إذا تمنوا فيها أن يموتوا؟

كيف بك إذا رأيتهم وقد اسودت وجوههم، فهي أشد سواداً من اللحم، وعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم، يمشون على النار بوجوههم، ويطئون حسك الحديد بأحداقهم، ينادون من أكنافها، ويصيحون من أقطارها:

(يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد حَقَّ علينا الوعيد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك قد تفتت منا الكبود، يا مالك العدم خير من هذا الوجود). فيجيبهم بعد ألف عام بأشد وأقسى خطاب وأغلظ جواب: ﴿إِنَّكُمْ مَكِينُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فينادون ربهم وقد اشتد بكاءهم، وعلا صياحهم، وارتفع صراخهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧]، فلا يجيبهم الجبار جل جلاله إلا بعد سنين، فيجيبهم بتوبيخ أشد من العذاب: ﴿قَالَ أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَكْمُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فعند ذلك أطبق عليهم النار وغلقت، فيئس القوم بعد تلك الكلمة أيما إياس، فتزداد حسراتهم وتتقطع أصواتهم، فلا يُسمع لهم إلا الأنين والزفير والشهيق والبكاء. . . سيكون على تضييع أوقات الشباب، ويتأسفون أسفاً أعظم من المصاب، ولكن هيهات هيهات، ذهب العمل وجاء العقاب.

لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مَنْ مَشَى إِلَى النَّارِ مَغْلُولَ الْقِيَادِ أَزْرَقَا

يُسَاقُ إِلَى نَارِ الْجَحِيمِ مُسْرَبِلًا سَرَابِيلَ قَطْرَانٍ لِبَاسًا مُحْرَقًا
إِذَا شَرِبُوا مِنْهَا الصَّدِيدَ رَأَيْتَهُمْ يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الصَّدِيدِ تَمْرُقًا

ويزيدهم عذابهم شدة، وحسرتهم حسرة تُذكرهم ماذا فاتهم بدخول النار. لقد فاتهم دخول الجنان، ورؤية وجه الرحمن، ورضوان رب الأرض والسماوات جلّ جلاله، ويزيد حسرتهم حسرة، وألمهم ألماً أن هذا العذاب الأليم والهوان المقيم ثمن اشتروه للذة فانية، وشهوة ذاهبة.

لقد باعوا جنة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، بشهوات تمتعوا بها في الدنيا ثم ذهبَتْ وَذَهَبُوا، فكأنها وكأنهم ما كانوا وما كانت. ثم لَقُوا عَذَابًا طَوِيلًا، وهواناً مُقِيمًا، فعياذاً بالله من نارٍ هذه حالها. وعياذاً بالله من عمل هذه عاقبته.

اللهم إنه لا طاقة لنا بعقابك، ولا صبر لنا على عذابك. . اللهم فَاجِرْنَا واعتقنا من نارك.

﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

[الفرقان: ٦٥، ٦٦].



الجحيم . . رؤية من الداخل

يقول أحدُ العارفين: « لا تنظر إلى صِغَر الذنب، لكن انظر مَنْ عصيتَ !! » .

وتجد مصداق ذلك فيما يتصف اللهُ به من صفات كماله وإنعامه وتفضُّله على عباده، وأن حَقَّه - سبحانه وتعالى - على عباده أن يتقوه حقَّ تقاته، وأن يطيعوه ولا يعصوه، وأن يشكروه ولا يكفروه، وأن يذكروه ولا ينسوه، ومَنْ الذي يستطيع أن يقومَ بذلك على وجهه الكامل؟

والله - سبحانه وتعالى - يحذر عباده من عقوبته، وهو يؤاخذ بالذنب صغيره وكبيره . . فحقُّ الله على عباده أعظم وأكبرُ من كلِّ ما يأمرهم به، والجميع تحت رحمته وطوع أمره، وهو سبحانه يقول: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا * وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدًا ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

لماذا كانت المعصية شيئاً عظيماً؟ المعصية شيء عظيم؛ لأنها مخالفة لأمر الرب الإله الذي لا إله إلا هو، خالق السماوات والأرض، وخالق كل شيء، وهو ربُّ كل شيء ومليكه، الذي خضع له كل شيء، وذُلَّ له كل شيء .

فهو سبحانه القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير الذي لا يغيب عنه من شؤون عباده صغيرٌ ولا كبير . . وهو القائمُ على كل نفس بما كسبت، والذي لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السماوات ولا في الأرض .

هو سبحانه الذي تخافه الملائكةُ العظامُ الكرامُ، وتكاد السماواتُ أنْ يتفطَّرْنَ من فوقهن فَرْقاً وخوفاً منه، والذي يمسك السماوات والأرض أنْ تزولا .

هو سبحانه الذي لا يحيط أحدٌ من خَلْقِه علماً به، يحيط علماً بكل مخلوقاته، ولا يغيب عنه سبحانه خطرات قلوبهم، ولا نزعات نفوسهم، ولا وساوس صدورهم، الذي وسع كل شيء رحمةً وعلماً، والذي لا يقبل من أحد من مخلوقاته إلا الإذعان له، والاستسلام لأمره .

هو الذي يُكرم مَنْ شاء من خَلْقِه وعباده، فلا يكون لإكرامه مُنتهى، ولا لعطائه حدٌّ، ويهين مَنْ شاء من خَلْقِه، فلا تكون لإهانته مثيلٌ، ويُعَذِّبُ مَنْ أَرَادَ من

عبيده فلا يكون لعذابه نهاية، ولا لعذابه شبيه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا * وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدًا﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

اللّه سبحانه هو الربُّ الإله الذي جعل الخلق كله له، والأمر كله له، فلا يخلق إلا هو، ولا يستطيع غيره أن يخلق ذرّة، ولا بُرّة، ولا ذباباً.

هو سبحانه الذي يملك نفع خلقه وضرّهم، فلا يملك غيره لأحد من خلقه لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، إلا ما شاء هو.. وهو الربُّ الإله خالق السماوات والأرض، الذي لا يكربه ولا يتعبه خلق السماوات والأرض، ولا حفظهما في أماكنها ومداراتها.

فمن ذا يستطيع أن يضع الشمس في مكانها غيره؟ وأن يضع القمر في مكانه غيره؟ والنجوم في مساراتها، والمجرات في مجاريها؟ ومن الذي أتقن كل ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذَا مَسَّكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فهو مالك الملك كله، ومُدبّر الكون كله، لم يساعده أحد، ولم يعاونه أحد في خلق الكون، ولا حفظه، بل هو الخالق لكل ما في الكون والحافظ له، والمقيم له، وهو الذي يُفْرِط عِقْدَ هذا الكون وقت ما يشاء، ويُبَدِّل السماوات والأرض وقت ما يريد.

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

هذا الرب الإله - سبحانه وتعالى - الذي وصف نفسه في القرآن فقال: ﴿إِنَّا رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرٍ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ * يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٤-٩].

وقال جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَاطِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وهكذا.. فإن معصية هذا الربّ العظيم الكبير المتعالي أمرٌ عظيم، ومخالفته فيما أوجب على عباده ذنبٌ كبير جداً.

ومما يجعل مخالفة أمر الله - سبحانه وتعالى - أمراً عظيماً، وإثماً كبيراً هو أن حقّ الله على عباده أكبر مما يأمرهم به، فإن الله هو خالق الخلق، ومُدبّر شؤونهم، والمتفضّل عليهم بنعمة الوجود أولاً، ثم ما من نعمة إلا وهي منه - سبحانه وتعالى - فهو وحده الرزاق لكل عباده، وهو ربهم الذي يكلؤهم ويرعاهم، ويُرَبِّيهم برحمته، وليس لهم ربٌّ سواه، ولا إله لهم غيره.

ولو أمر عباده بما أمر، فإن هذا حقّه على عباده، فإنه خالقهم وربُّهم، ومُنشئهم من العدم، ومع ذلك فلا يكلف - سبحانه وتعالى - نفساً إلا وُسْعَهَا، ولا يأمر عباده إلا بما ينفعهم، وإذا أمرهم فإنه يأمرهم وهو غنيٌّ عنهم، غير فقير لعبادتهم.

وعبادة العباد له هي من جملة الفضل الذي يتفضّل به عليهم؛ لأنها سبب لزكاتهم وطهارتهم، وسبب لنيل مرضاته ورحمته وجائزته، وهكذا تصبح معصية العاصي أمراً عظيماً وإثماً كبيراً؛ لأنه يخالف الربّ الإله الذي أحسن وأكرم، وخلق ورزق، وتحنّن على عبده.

ولا شك أن وراء كل أمر إلهي حكمة عليا قد يخبرنا الله بها، وقد يهدينا إلى معرفتها، وقد يخفيها عنا، وفي كل ذلك يجب على المكلف أن يسمع ويُطيع، وأما

إِنْ عَلَّقَ طَاعَتَهُ لِلَّهِ عَلَى فَهْمِهِ وَمَعْقُولِهِ وَمَعْرِفَتِهِ لِحِكْمَةِ الْأَمْرِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ عَابِداً لِلَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَوْ رَدَّ الْأَمْرَ الْإِلَهِيَّ ظَانّاً أَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ لَكَانَ كَافِراً، وَكَانَ كُفْرُهُ كَكُفْرِ إِبْلِيسَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ جَرِيمَتُهُ إِلَّا رَدُّ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ كُفْراً وَكِبْراً وَعِنَاداً. إِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ رَبَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّهُ هُوَ خَالِقُهُ وَرَازِقُهُ، وَمُتَوَلِّي شُؤْنِهِ، وَمَنْ بِيَدِهِ نَفْعُهُ وَضَرُّهُ، وَمَنْ يَعْلَمُ عِلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَحَيَاتِهِ وَمَمَاتِهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ طَرَفَةٌ عَيْنٍ، عِلْمُ أَنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يُطِيعُوهُ فَلَا يَعْصُوهُ، وَأَنْ يَشْكُرُوهُ وَلَا يَكْفُرُوهُ، وَأَنْ يَذْكُرُوهُ وَلَا يَنْسُوهُ، وَأَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ.

وَكُلُّ تَقْصِيرٍ فِي هَذِهِ الْحَقُوقِ تَقْصِيرٌ وَمَعْصِيَةٌ. فَالْغَفْلَةُ وَلَوْ لِلْحِظَةِ وَاحِدَةٍ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِثْمٌ، وَعَدَمُ الْقِيَامِ بِشُكْرِ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي لَا تُحْصَى إِثْمٌ، وَمَعْصِيَةٌ أَمْرُ اللَّهِ فِي الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ إِثْمٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ، أَي: كَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِذْ هُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَهْلٌ لِأَنْ يُتَّقَى، فَهُوَ الرَّبُّ الْإِلَهِ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَنْ عِبَادَهُ لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَقُومُوا بِحَقِّهِ، وَأَنْ يَتَّقُوهُ، كَمَا يَنْبَغِي لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَفَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَسْتَطِيعُونَ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْوَاجِبِ الْمُسْتَطَاعِ فَهُوَ آثِمٌ، كَمَا قَالَ ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِساً، ثُمَّ قَامُوا مِنْهُ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ إِلَّا كَانَ هَذَا الْمَجْلِسُ عَلَيْهِمْ تِرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَي: حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ. . . وَلَا حَسْرَةٌ إِلَّا فِي تَرْكِ وَاجِبٍ.

وَمَنْ قَصَرَ فِي شُكْرِ نِعْمَةِ عَرَفَهَا فَهُوَ آثِمٌ، وَلَوْ كَانَتْ فِي شَرْبَةِ مَاءٍ شَرِبَهَا، وَلَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ عَلَيْهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِهِمْ بِسَبَبِ الْجُوعِ، ثُمَّ أَضَافَهُمْ أَنْصَارِيٌّ، فَقَدَّمَ لَهُمْ عِذْقاً مِنْ تَمْرٍ وَرُطْبَ، فَأَكَلُوا، وَقَدَّمَ لَهُمْ مَاءً بَارِداً فَشَرَبُوا. . . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ هَذَا مِنَ النَّعِيمِ، وَلَتَسْأَلَنَّ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فِي صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ فَهُوَ تَحْتَ الْحِسَابِ وَالْمُؤَاخَذَةِ، إِلَّا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ.

إِذَا عَلِمَ هَذَا عَلِمَ مَعْنَى الذَّنْبِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ كَبِيرَةً بِحَالٍ، وَلَيْسَ تَعَمُّدًا لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا قَدْ يَكُونُ اخْتِيَارًا لَخِلَافِ الْأَوَّلَى، أَوْ انْقِطَاعًا لِحِظَةٍ عَنِ الذِّكْرِ الدَّائِمِ، أَوْ الْقَعُودَ لِحِظَةٍ عَنِ الشُّكْرِ الدَّائِمِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيُعَانُّ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ».

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْلِي مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَإِذَا سُئِلَ فِي ذَلِكَ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا».

فَمَنْ عَرَفَ حَقَّ اللَّهَ عَلَى عِبَادِهِ، وَعَرَفَ أَنَّ حَقَّهُ يَعْظُمُ كُلَّمَا عَظُمَتْ نِعْمَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ، وَعَلِمَ أَنَّ حَقَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ عَلَى عَبْدِهِ أَنَّ يَذْكُرَهُ فَلَا يَنْسَاهُ، وَيَشْكُرُهُ فَلَا يَكْفُرُهُ، وَأَنْ يُطِيعَهُ فَلَا يَعْصَاهُ، وَأَنْ يَخَافَهُ وَيَتَّقِيهِ كَمَا يَنْبَغِي لَجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.. عَلِمَ الْعَبْدُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاذَا تَعْنِي الْمَعْصِيَةُ وَالذَّنْبُ؟.

المؤاخذه بالمعصية

كل مَنْ عصى الله - سبحانه وتعالى - فهو تحت المؤاخذه إلا أَنْ يَغْفِرَ اللهُ ذنبه، والمؤمن قد يُؤَاخِذُ بمعصيته في الدنيا، ويحصل له من البلاء ما يُطهر ذنبه، ويُعلي درجته، وقد يُؤَاخِذُ اللهُ بعضَ أنبيائه في الدنيا بسبب معصية صغيرة تقع منهم .
ومن ذلك :

آدم عليه السلام . . ومعصيته للأمر الإلهي :

فآدم عليه السلام الذي لم تَكُنْ معصيته إلا أنه خالف الأمر الإلهي بأكله من شجرة، نهاه أَنْ يأكلَ منها، ومعصية آدم بالأكل من الشجرة فإنها لم تَكُنْ فاحشة في ذاتها، ولا إثماً لولا المعصية .

فقد أباح الله لآدم الأكلَ من كل أشجار الجنة، فليس الأكل من هذه الشجرة مُذْهِباً لعقل، ولا ضاراً في النفس أو البدن، ولا تعدياً على حق مخلوق، ونحو ذلك مما هو من تعليل الإثم .

وإنما كانت معصية آدم فيما أخبرنا الله به في أنه أطاع الشيطان الذي حذَّره الله من طاعته، وأنه عصى الله فيما أمره به . . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : ١١٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَفَادَهُمَا رَبُّهُمَا آلُوْهُنَّ أَهْلَهُنَّ كَمَا عَلَّمَهُنَّ ﴾ [الأعراف : ٢٢] .

ومع ذلك، كان من آثار هذه المعصية آلامٌ طويلة في الدنيا، منها : خروج آدم وزوجه من الجنة، وتعرُّضه هو وذريته لما يتعرَّضون له من البلاء في هذه الدار . . وإلى يوم القيامة .

نوح عليه السلام ووعظ الله له :

وهذا نبيُّ الله نوح عليه السلام، سماه عبداً شكوراً، وكان من أولي العزم من الرسل وقد قام في عبادة الله - سبحانه وتعالى - ألف سنة إلا خمسين عاماً، يتحمل في أثنائها الكرب الطويل والأذى البالغ .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَبَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

ولما دعا نوح عليه السلام ربه قائلاً: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَخْكُمُ الْحَكِيمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، أجابه الله سبحانه: ﴿قَالَ يَنْتُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّخِذْ مِمَّا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. فقال العبد الصالح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

فاعترف عليه السلام بذنبه، وأنه قد قال قولاً لا علم له به!!.

يونس عليه السلام والسجن في بطن الحوت:

وهذا يونس عليه السلام عاقبه الله لأنه ترك قومه الذين كذبوه وآذوه، دون أن يأذن الله له، فُسِجِنَ في بطن الحوت إلى أن تداركته رحمة الله بالخروج، ضعيفاً مريضاً.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

وقال تعالى:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].



الوعيد بالعذاب لقبول الفداء من الأسرى

ونبيناً عليه السلام عاتبه الله سبحانه بعد قبوله فداء الأسرى، ويقول: «لقد عُرِضَ عذابُكم أدنى من هذه الشجرة!!».

فقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يومُ بدر قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: اللهم أين ما وعدتني؟ اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبداً».

قال: فما زال يستغيث ربه عزَّ وجلَّ ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأخذ (أبو بكر) رداءه فردَّه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله كفأك مناشدتك ربك، فإنه سيُنجز لك ما وعدك. وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبِدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

فلما كان يومئذٍ والتقوا، هزم الله عزَّ وجلَّ المشركين، فقتلَ منهم سبعون رجلاً، وأسيرَ منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبيَّ الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإني أرى أن تأخذَ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونون لنا عَضُدًا، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا بنَ الخطاب؟

قال: قلتُ والله ما أرى رأيي أبي بكر، ولكني أرى أن تُمكنني من فلان - قريبٍ لعمر - فأضرب عنقه، وتمكَّنَ علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتُمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلمَ الله أنه ليست في قلوبنا هودةٌ للمشركين. هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم!!.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهَوَ ما قلتُ، فأخذَ منهم الفداء.

فلما أن كان من الغد قال عمر رضي الله عنه: غدوت إلى النبي ﷺ، فإذا هو قاعد، وأبو بكر رضي الله عنه وإذا هما يبكيان!! فقلت: يا رسول الله، أخبرني

ماذا يُبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائكُما!!.

قال: فقال النبي ﷺ: «الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، لقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة»، لشجرة قريبة، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، إلى قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

ثم أحلّ لهم الغنائم، فلما كان يوم أُحُد من العام المقبل عُوقِبُوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه، وأنزل الله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَوْصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، بأخذكم الفداء «رواه أحمد».

والرسل - عليهم السلام - يخافون ذنباً، لو كانت لأحدنا لعدّها من الطاعات والقربات.. فمن منا لا يتمنى أن يكون صنع ما صنع إبراهيم عليه السلام من كذبه على قومه عبّاد الأصنام، عندما قال لهم: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ٨٩]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَكُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَاسْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

حتى يحطم أصنامهم، ويرجعهم إلى عقولهم ورؤسدهم؟! ومن منا لا يتمنى أن يقول عن زوجته هي أختي ينقذها ونفسه من جبار كافر أراد أن يقتله ويستحوذ على زوجته!! ومع ذلك يقول إبراهيم عليه السلام يوم القيامة معتذراً عن التصدّر للشفاعة، خائفاً من معصيته!!:

«وإني قد كذبتُ ثلاث كذبات!!» [رواه البخاري].

وهذا نبي الله موسى عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، يقتل نفساً قتلاً شبه عمد وليس عمداً، ويقتله بغير قصد قتله، يقتله دفاعاً عن مظلوم، وهذا الفعل منه كان قبل الرسالة، ومع ذلك يقول: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

ومع ذلك يظل موسى خائفاً من فعلته هذه إلى يوم القيامة، ويقول: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد عصيت ربي، فقتلت نفساً لم أؤمر بقتلها» [رواه البخاري].

ومن منا لا يتمنى أن يكون صنع ما صنع موسى في دفاعه عن مظلوم من قومه!!.

ازدياد الخوف من الله

مع زيادة الإيمان ونقص الخوف مع نقص الإيمان

كلما تبلّد الشعور، وزاد البُعْد عن مصدر النور، زال الإحساس بالذنب، فالكفار يكفرون ويُجرمون ويفسقون وهم يضحكون، والفاجر والمنافق يرى ذنبه كأنه ذبابٌ يحطّ على أنفه، لو أشار إليه بيده ردّه، والمؤمن يرى ذنبه كالجبل يوشك أن يسقط عليه .

وكان أنس بن مالك يقول - وكان قد عمّر زماناً بعد النبي ﷺ - : « إنكم تعملون أعمالاً، كُنّا نعدّها من الكبائر على عهد رسول الله ﷺ ، وهي في أعينكم أصغر من الشعر » .

ألوان وأنواع العقوبات لعصاة المؤمنين

كل ذنب داخل في الحساب، إلا ما يغفره الله، قال سبحانه: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] .

وبعض العصاة من الموحّدين قد يُعذّبون في النار، أو في القبر، أو في الحشر في صغائر من الذنوب، وفي كبائر يظنّها بعض الناس صغائر، فامرأة يراها النبي في النار في هرّة حبستها، حتى ماتت جوعاً. وقتيل مع الرسول ظنّه الصحابة شهيداً، فقال النبي ﷺ: « كلا.. إني رأيته في النار في بُرْدَةٍ غلّها »، [رواه مسلم] ولم تكن هذه البرْدَة تساوي أربعة دراهم!! .

والرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى، لا يُلقي لها بالاً، فتُهوي به في النار سبعين خريفاً. ونساءٌ كثيراتٌ من أهل التوحيد دخلن النار لأنهن يُكثرن اللعن، ويكفرن العشير!! .

ورجال يُحبسون في النار في ردغة الخبال، ووسط عصارة وصديد أهل النار؛ لأنهم تكلموا في إخوانهم المسلمين بغير حق. قال رسول الله ﷺ: « مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزَعَ عَنْهُ، وَمَنْ قَالَ فِي مَوْءِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ، حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ »، [رواه أبو داود] .

والوعيد الشديد لعصاة أهل التوحيد يشمل المعاصي كلها، صغيرها وكبيرها، فقاتل النفس عمداً يقول الله فيه: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] .

وَأَكْبَلُ الرِّبَا يَقُولُ اللَّهُ فِيهِ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَاللَّهُ الْبَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءُكَ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والكنزازون مانعو الزكاة، يقول الله في وعيدهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ كَثِيرٍ مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِبَاطِلٍ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُورُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

في هذا يقول النبي ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها إلا كان يوم القيامة صُفِّحَتْ له صفائح من نار، فأُحْمِي عليها في نار جهنم، فيُكْوَى بها جنبه، وجبينه، وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار»، [رواه مسلم].

والذي يقطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه - ولو كان هذا المقتطع شيئاً يسيراً ولو عوداً من أراك - فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ أَقْلَبُكُمْ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وفي هذا يقول النبي ﷺ: «من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: «وإن قضيباً من أراك»، [رواه مسلم].

ورأى النبي ﷺ رجلاً من أصحابه لبس خاتماً من ذهب، فاقتلعه النبي من إصبعه ورمى به قائلاً: «يعمد أحدكم إلى جُمرة من نار، فيجعلها في يده»، [رواه مسلم].

وامرأة كانت من أهل النار، لأنها تؤذي جيرانها بلسانها، وفقير من فقراء المهاجرين، عُدَّ في قبره لأنه مات وكان عليه ديناران لم يسدهما!! وظلَّ يُعَذَّب حتى تصدَّق عليه أبو قتادة، وسدَّد عنه دينه!!.

ورجل يُعَذَّب في قبره، لأنه كان لا يستنزله من بوله، وآخر يُعَذَّب لأنه يمشي بالنميمة بين الناس، وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتَّات»، أي: نمام... و«لا يدخل الجنة قاطع»!! و«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»!! و«الكبر بَطَرُ الحقِّ وِعْظُ الناس».. وكم يقع مثل هذا!!.

اللهم إني أستغفرك لذنبي، وأعوذ بك من شر نفسي وسيئات عملي.

ومما قصّه النبي ﷺ من عذاب عَصَاة المؤمنين قوله: «إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقتُ معهما، وإنّا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثْلُغ رأسه، فيتدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه، حتى يصحّ رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به كما فعل به المرة الأولى. قال: قلت لهما: سبحان الله.. ما هذان. قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل مُسْتَلَقٍ لِفَواه وإذا آخر قائم عليه بكُلُوبٍ من حديد، وإذا هو يأتي أحد شِقِّي وجهه، فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحوّل إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحّ ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما يفعل في المرة الأولى.

قال: قلت: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على مثل التَّنُور، وأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة!! وإذا هم يأتيتهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضُوا. قال: قلت: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق!!.

قال: فانطلقتُ فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شَطِّ النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيَقْعَرُ له فاه، فيلقمه حجراً، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فَعَرَّ له فاه فألقمه حجراً.

قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجل كربه المرأة، أو كأكره ما رأيتُ من راءٍ رجلاً امرأة، وإذا هو عنده نار يحشُّها ويسعى حولها.

قال: قلت لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قطّ.

قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها، ولا أحسن. قال: قالا لي: اِرْقُ فيها فارتقيتُ فيها، قال: فانتبهنا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا

بَابُ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَفْتَحْنَا فَفَتَحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا رَجَالٌ، شَطَرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ مِنْ أَحْسَنَ مَا أَنْتَ رَأَى، وَشَطَرٌ كَأَقْبَحَ مَا أَنْتَ رَأَى.

قال: قالوا لهم: اذهبوا ففعلوا في ذلك النهر، قال: إذا هو نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة قال: قالوا لي: هذه جنة عدن، وهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، فسمما بصري صعداً، فإذا قصر مثل الربابة البيضاء، قالوا لي: هذاكَ مَنْزِلُكَ؟ قلت لهما: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا، فذراني فأدخله، قالوا: أما الآن فلا، وأنت داخله.

قلت لهما: فَإِنِّي رَأَيْتُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَباً، فما هذا الذي رأيت؟!.

قالوا لي: أما إِنَّا سنخبركَ..

أما الرجل الأول الذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقِرَانَ فِيرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ.

وأما الرجل الذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشْرِشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قِفَاهِ، وَمَنْخَرُهُ إِلَى قِفَاهِ، وَعَيْنُهُ إِلَى قِفَاهِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ.

أما الرجال والنساء العُرَاة الذين هم في مثل بناء التَّنُورِ، فَهَمُ الزَّانَةُ وَالزَّوَانِي.

وأما الرجل الذي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسِجُ فِي النَّهْرِ، وَيُلْقَمُ الْحَجَارَةَ فَإِنَّهُ أَكَلَ الرِّبَا.

وأما الرجل الكريه المرأة الذي عِنْدَ النَّارِ يَحْشُشُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكُ خَازِنِ جَهَنَّمَ.

وأما الرجل الطويل الذي فِي الرُّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمَ.

وأما الْوِلْدَانِ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ. وَفِي رِوَايَةِ الْبَرْقَانِيِّ: «وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ»، فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ».

وأما الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطَرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وَشَطَرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ، [رواه البخاري].

حَالُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ

إِنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ جَمِيعاً يَخَافُونَ، فَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ خَيْرُ عِبَادِ اللَّهِ يَخَافُونَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، وَالرَّسُلَ وَهُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ قَدْ كَانُوا فِي خَوْفٍ دَائِمٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَخِيَارُ أَهْلِ الْإِيمَانِ كَانُوا فِي خَوْفٍ وَإِشْفَاقٍ دَائِمٍ مِنَ الْعَذَابِ، فَلَا أَمْنٌ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ لِأَهْلِهَا: (إِنِّي أَحْلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا)، وَأَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَا.

وأيضاً ملائكة الله يخافون العذاب، رغم أن الله سبحانه وتعالى قد وصفهم بالطاعة التامة، قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ سُبْحُوتٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

وقال سبحانه عن أشد الملائكة خلقاً، وأعنفهم خلقاً، وهم ملائكة العذاب الموصوفون بأنهم ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦]، قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

ومع ذلك، فإنهم في خوف دائم من الله سبحانه وتعالى، وحذر دائم من معصيته، وفرق ورعب منذ خلق الله النار. قال تعالى عنهم: ﴿وَلِلَّهِ سُبْحٌ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

وقد جاء في القرآن وعيدهم وتهديدهم بجهنم على المعصية.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يُسَبِّحُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصِفَ * وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

إبليس هذا كان في يوم ما عابداً لله مع الملائكة الأعلى من الملائكة.. فلما عصى ربه، ولم يسجد لأدم كما أمره الله كان من شأنه ما قصَّ الله علينا في القرآن.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَبْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٨].

فلما أصرَّ إبليس على كبره وعناده ولم يرجع عن معصيته، وأخذ على نفسه أن يُغوي آدم وذريته... قال له الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

وقال تعالى لإبليس أيضاً:

﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤١-٤٤].

فإذا كان إبليس قد أفسد ماضيه في العبادة، ومنزلته في الملائكة بمعصية واحدة أصّر عليها، ولجّ في خصومته لربه، وعاند فيها. فكان جزاؤه اللعنة أبداً، والنار سرمداً، والخذلان في الآخرة والأولى.

ثم أصبحت نهاية إبليس ما قصّ الله علينا في سورة إبراهيم من قوله: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فهل بعد هذا يأمن عبدٌ من عباد الله أن تغشه نفسه، ويخونه تدبيره، ويعميه غروره، وتغيره، فيكون من الهالكين بمعصية واحدة يُصّر عليها، ويستكبر بها عن طاعة ربه، وكم من عابد وعالم غوته نفسه وأطاع الشيطان فتحول ليكون تابِعاً ذليلاً للشيطان.

فكم أضلّ الشيطان من أهل العلم والبصيرة، بل من أهل الطاعة والإنابة. قال تعالى: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَلَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَه يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وقال تعالى عن قوم سبا: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبا: ٢٠].

وقال تعالى عن عاد: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فانظر كيف أغواهم الشيطان علماً أنهم كانوا ذوي بصيرة ونظر!!.

وقال ﷺ: « لِيُذَادَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي عَنْ حَوْضِي، أَعْرِفَهُمْ وَيَعْرِفُونِي وَيُؤْخَذُ بِهِمْ جِهَةَ النَّارِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي أَصْحَابِي. فيقال: ليسوا أصحابك، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحْقاً سُحْقاً ».

والملائكة الذين أقامهم الله في الطاعة، وألزمهم العبادة، وألهمهم التقوى

والمخافة، هم في طاعة ربهم، حيث يشاء ربهم، لا حيث يريدون هم.

وكان نبينا ﷺ يحب جبريل، وكيف لا يحبه وهو مُعلمه. قال تعالى:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۚ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۖ﴾ [النجم: ٥-٨].

وكيف لا يحبه وهو ناصره ووليّه. قال تعالى: ﴿إِنْ نُنْزِلُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ

تَنْظُرَاهَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ بِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤].

وكيف لا يحبه، وقد كان في حروبه أمامه، وعلى ميمنته، وكان نبينا ﷺ

يقول لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟!»، فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا

نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَكُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]،

[رواه البخاري].

فإذا كان جبريلُ أمينَ الله على وحيه، ورسوله إلى رُسله، لا يهبط إلى الأرض

إلا بإذن ربه، ولا يزور محمداً ﷺ إلا برسم وأمر، فانظر كيف تكون طاعة الملائكة

لربهم جلّ وعلا.

وهذا إسرافيل قد التقم القرن وحنى جبهته، وأصاغ السمع، وانتظر متى

يأمر الله بأن ينفخ في الصور!! ومنذ متى وهو على هذه الحال!! قائماً في الطاعة!!

ملتزماً بالأمر... وجميعهم خائف من الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ

مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وقد جاء أنهم في خوف دائم منذ خلق الله النار.

رسل الله وأنبياءه يخافون العذاب

وأما الرسل والأنبياء فهم أعظم البشر خوفاً من الله سبحانه وتعالى، وفَرَقاً من

عذابه، وفراراً إليه!! مع ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة، والعبادة.

فهذا آدم منذ عصى الله بأن أكل من الشجرة التي نهاه الله أن يأكل منها، وهو

خائف من العذاب، مع استغفاره ورجوعه إلى الله من ذنبه، مع ما حدث له بعد

ذلك من الابتلاء بالخروج من الجنة ومقاساة العيش على ظهر الأرض.

وعندما يلتقي أبناءُ يوم القيامة يستشفع به أبناءه إلى الله في القضاء بين العباد

ودخول الجنة، قائلين له: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، وأسجد لك

ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، ألا تشفع لنا عند الله؟ فيقول لهم أبوهم آدم:

وهل أخرجكم من الجنة إلا معصية أبيكم؟ اذهبوا إلى غيري.

وفي حديث الشفاعة الطويل، يظل كلُّ رسول خائفاً من الله، فقد روى الإمام

البخاري عن أبي هريرة، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في دعوة، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذراع، وكانت تُعَجِّبُهُ، فَتَهَسَّ مِنْهَا نَهَسَةً، وقال: «أنا سيدُّ الناس يوم القيامة، هل تدرون ممَّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب ما لا يطيِّقون، ولا يحتملون.

فيقول الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون مَنْ يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعضُ الناس لبعض: أبوكم آدم، ويأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من رُوحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وقد سَمَّاكَ اللهُ عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذبات. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضَّلَكَ اللهُ برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلتُ نفساً لم أُؤمرْ بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمتهُ التي ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلَّمْتُ الناسَ في المهد، اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً. نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتوني . . فيقولون: يا محمد أنت رسولُ الله، وخاتمُ الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق، فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليّ من محامده، وحُسن الشفاء عليه شيئاً لم يفتحْه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سلْ تُعطه، واشفعْ تُشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب .

فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك مَنْ لا حسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَر أو كما بين مكة وبُصْرَى»، [متفق عليه].

فإذا كان هذا هو حال الرسل يوم القيامة، فما حال غيرهم من أهل الذنوب والمعاصي، وكان ﷺ أتقى العباد لله وأخوفهم منه، وأعلمهم به، وكان يُسمع لصدرة أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء.

خوف المؤمنين الدائم من عذاب الله

المؤمنون حقاً في خوف دائم من عذاب الله إلى أن يدخلوا الجنة: فقد وصف الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أنهم كانوا في خوف دائم من عذابه، وفي تَرَقُّب وتَوْجُّس أن يقع بهم العذاب في أي لحظة، وإشفاق دائم مما هم مُقَدِّمُونَ عليه .

فالله يقول واصفاً عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [المعارج: ٢٧، ٢٨]، والإشفاق غاية الخوف، ونهاية الرعب .

يقول سبحانه واصفاً عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِعَذَابِ رَبِّهِمْ يَوَدُّونَ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ [المؤمنون: ٥٨-٦١] .

وهؤلاء المؤمنون خائفون، مع أنهم يُصَلُّون ويصومون ويتصدَّقون، ففي مسند الإمام أحمد أن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: يا رسول الله، الذين يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، ويخاف الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «لا، يا ابنة الصَّدِّيق، ولكنه الذي يُصَلِّي ويصوم ويتصدَّق، وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ» .

فهم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مُشْفِقُونَ من الله، خائفون وَجَلُونَ منه سبحانه، قال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً» .

فلا يشعر بالأمن والأمان إلا الكفار والمنافقون الذين غَرَّتْهم أنفسهم، ورَأَوْا سَيِّئَ أعمالهم حَسَنًا، وأن الله ما دام قد أعطاهم في الدنيا الأموال والأولاد فهو مُكْرِمهم في الآخرة أيضاً.

ولقد أخبرنا الله بحديث أهل الجنة وذكرياتهم في الدنيا، فكان مما قالوه: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨].

نماذج رائعة من المؤمنين الخائفين من عذاب الله

عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمنى كل مؤمن أن يكون له بعض عمله يقول - وهو في مرض موته - عن سابقته في الإسلام وعمله الصالح كله: «وددت أن هذا كفاف، لا لي ولا علي».

لما طعن عمر جعل يألّم، فقال له ابن عباس وكأنه يُجَزِّعه: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك، لقد صحبت رسول الله ﷺ وأحسنْتُ صُحْبَتَهُ، ثم فارقت وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنْتُ صُحْبَتَهُ، ثم فارقت وهو عنك راضٍ، ثم صحبت صُحْبَتَهُمْ فأحسنْتُ صُحْبَتَهُمْ، ولئن فارقتهم لَتَفَارَقْتَهُمْ، وهم عنك راضون.

قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه، إن ذلك مَنْ مَنْ الله تعالى عليّ، وأما ما ذكرت من صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ ورضاه، فإنما ذلك مَنْ مَنْ الله جلّ ذكره عليّ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك، ومن أجل أصحابك، والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافقتيت به من عذاب الله تعالى قبل أن أراه.

وقال أيضاً: «لو أن بغلة عثرت بالعراق، لَسُئِلَ عنها عمر بين يدي الله».

فهل يغتر مؤمنٌ بعمله، بعد أن يرى هذا من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم مبكراً، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.. وصحبة ساعة مع رسول الله لا يَعْدِلُهَا عَمَلٌ ممن يأتي بعده، وكان وزير النبي ﷺ ومستشاره، ولم يَمُتْ النبي ﷺ حتى بشره بالجنة مراراً وتكراراً، ثم كان خيرَ صاحبٍ لأبي بكر الصديق، صاحب رسول الله ﷺ، وكان خيرَ وزيرٍ ومُستشارٍ ومُعِينٍ له.

ثم تولى أمر المسلمين، ففُتِحَتْ في عهده الفتوح، ودخلت الأمم في دين الله أفواجا: الفرس والروم، وشعوب بلاد الشام، ومصر، وغطى الإسلام الأرض كلها

أو كاد... ونقل إلى المدينة النبوية كنوز كسرى وقيصر، ومع ذلك مات عمر يوم مات - شهيداً حميداً - مديناً بستة وثمانين ألف دينار!! قام ابنه عبد الله رضي الله عنه بتسديدها عنه، بعد أن جمعها من مال آل الخطاب.

ومع كل هذه الفضائل والمناقب قال عند موته: «أرجو أن يكون هذا كفافاً لا لي ولا عليّ... والله لو أن بغلة عثرت بالعراق لَسُئِلَ عنها عمر بين يدي الله عز وجل، والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه». أي: لو كنت أملك مثل جبال الأرض ذهباً لافتديت به الآن مما أحاذر من عذاب الله، فإذا كان عمر رضي الله عنه يخشى من عذاب الله على هذا النحو، وهو من هو رضي الله عنه، فما الظنُّ بأمثالنا ممَّن لا تُحصى ذنوبهم، ولا قدم لهم في الإسلام.

عمرو بن العاص رضي الله عنه:

فقد بكى ابنُ العاص وهو على فراش الموت خائفاً من لقاء الله، فبكى طويلاً وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نَعُد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

إني قد كنتُ على أطباق ثلاثة: لقد رأيتني وما أحدٌ أشدُّ بُغْضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه فقتلته، فلو ميتٌ على تلك الحال لكنتُ من أهل النار.

فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه. قال: فقبضتُ يدي. قال: «ما لك يا عمرو؟» قال: قلتُ: أردتُ أن أشتري. قال: «تشتري بماذا؟» قلتُ: أن يُغفرَ لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله.»

وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلُّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطقُ لأنني لم أكنُ أملاً عيني منه، ولو ميتٌ على تلك الحال لرجوتُ أن أكون من أهل الجنة.

ثم حدثتُ أموراً لا أدري ما حالي فيها.. فإذا دفنتموني فثُتُّوا عليَّ التراب شتاً، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحرُ جُزُورٌ، ويُقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رُسلَ ربي.

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :

تقول عائشة - رضي الله عنها - لما سُئِلَتْ عن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢] .

أي بني هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فَمَنْ بَقِيَ على عهد رسول الله، وشهد له الرسول بالجنة، وأما المقتصد فَمَنْ اتبع أثره من أصحابه حتى لَحِقَ بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم!! . [رواه الطيالسي] .

فالجميع يبكي ذنبه، ويذكر خطيئته، ولا يرى لنفسه فضلاً، ولا لعمله الصالح ذكراً، ويقول أحدهم: « لو أعلم أن لي عملاً واحداً مُتَقَبَّلاً لَتَمَنَيْتُ الموت » .



جولة في النار تبدد الغرور

وأعظم ما يجعل الغرور بالفردوس يتلاشى ويزول، ويجعل التفكير كله ينصبُّ على النجاة من النار أولاً وأخيراً، هو جولة في النار من الداخل، ونظرة إلى الهوة السحيقة، واستبصار لمن يدخلونها ويتساقطون فيها.

ولو وقفت مرة ومرة عند وَصْفِ الحق سبحانه ورسوله ﷺ لهذه النار العظيمة الموجودة الآن، وعانيت بالقلب أحوال أهلها، علمت يقيناً - إن شاء الله - أن العزم كل العزم يجب أن يكون في الفرار منها، وأن الفرار من النار مُقَدَّمٌ على التفكير في دخول الجنة.

ومن المعلوم أن دَفَعَ المفسد مُقَدَّمٌ على جَلْبِ المصالح، فكيف إذا كانت المصلحة لا يُتَوَصَّلُ إليها إلا بدَفْعِ المفسدة أولاً، فالجنة لا تُنال إلا بعد النجاة من النار.

فَمَنْ حَمَلَ على ظهره كل تلك الذنوب والمعاصي، والتي يستحق بها العذاب - لولا رحمة الله - يصبح من إساءة الأدب، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل الله الجنة، وهو بَعْدُ لم يتخلَّص من مُوجبات العذاب.

ولم يُرِ الحق سبحانه أحداً من البشر النار، نار الآخرة لا يقظة ولا مناماً.. ولكن الحق سبحانه أوقف عباده على هذه النار، ووصفها سبحانه وصفاً مفصلاً لها، وقد صرَّفَ الله الوعيدَ لعباده بشأنها.

وقد رأى رسول الله ﷺ النار رَأْيَ العين، ثم وصفها وصفاً واضحاً كاملاً، فأصبح مَنْ لم يَرَهَا بعينه كأنه رآها بعينه بوصف النبي ﷺ لها. وقد كان الصحابي يجلس إلى النبي ﷺ يُحَدِّثُ عن الجنة والنار، فكانه وإياها رَأْيَ العين.

قال حنظلة: يا رسول الله، نكون عندك تُذَكِّرنا بالنار والجنة، حتى كأننا وإياها رَأْيَ الْعَيْنِ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، [رواه مسلم].

وكان رسول الله ﷺ إذا خطبَ يَصِفُ النارَ عَلاً صوته، واشتدَّ غضبه، واحمرَّ وجهه، كأنه نذيرٌ جيش، يقول: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ».

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»، ثم يقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وكان إذا ذكر الساعة أَحْمَرَّتْ وَجَنَّتَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، كَأَنَّهُ نَذِيرٌ جِيْشٍ، يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ». ثم قال: «مَنْ تَرَكَ مَا لَّا فَلَاهُلَّهُ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا فَلِيَّ أَوْ عَلَيَّ، وَأَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ» [رواه النسائي].

وبعض الصحابيَّات حَفِظْنَ سورة (ق) من فَمَ الرسول ﷺ من كثرة ما يخطب بها ﷺ في الجمعة. وسورة (ق) من سُورِ الوعيد، وقد حملتُ مشاهدَ عظيمة من صور الحشر والنار، وكلام أهل النار وخصومتهم بعضهم بعضاً، مَنْ كَانَ السَّبَبُ مِنْهُمْ فِي إِدْخَالِ الْآخِرِ إِلَى النَّارِ. وَرَدَّ اللَّهُ عَلَى الْجَمِيعِ: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨].

ثم كلام الله للنار التي قد فتحت أبوابها تبتلع كلَّ الأفواج، مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أَهْلِهَا، وَهَمَّ عَدَدٌ لَا يُحْصَى كَثْرَةً، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَتِسْعَمِائَةً، وَيَبْقَى وَاحِدٌ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ.

ولما كانت النارُ دركاتٍ، بعضها فوق بعضٍ، لا يشاهد المشاهد منها على ظهر أرض المحشر إلا أبوابها، وقرونها وأسوارها، ولهيبيها المنبعث منها، وأما هي فبئرٌ واسعٌ سحيقٌ يمتدُّ سُفْلًا، حَتَّى إِنْ الْحَجَرُ لِيُلْقَى مِنْ عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ (الشفير حافة البئر)، فَيَمْكُثُ سَبْعِينَ عَامًا لَا يَصِلُ إِلَى قَعْرِهَا. . . يَصْبَحُونَ طَبَقَاتٍ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ، وَأَلَّا مَتَسَعُ فِي دَاخِلِهَا لِمَزِيدٍ مِنَ الْأَفْوَاجِ.

ولما كانت النار كذلك، وقد يُظَنُّ أَنَّهُ مِنْ كَثْرَةِ مَا يُلْقَى فِيهَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ أَنَّ هَذَا التَّنُورَ الْعَظِيمَ، وَالبئرَ الواسعة العميقة لن يعجز عن استيعاب كل الداخلين إليها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].

اطلاع النبي ﷺ في النار

يُحَدِّثُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّارِ الَّتِي رَأَاهَا رَأْيِي الْعَيْنِ، فَعَلَى بَابِ النَّارِ وَقَفَ، وَإِلَى دَاخِلِ النَّارِ نَظَرَ، فَقَالَ ﷺ: «أَطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَأَطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، [رواه البخاري].

وقال أيضاً ﷺ: «قَمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةٌ مَن دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ،

وأصحابُ الجَدِّ محبوسُونَ غيرَ أَنَّ أصحابَ النارِ قد أُمِرَ بهم إلى النارِ، وقمْتُ على بابِ النَّارِ، فإذا عامَّةٌ مَن دخلها النساءُ»، [رواه البخاري].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ في يوم شديد الحرِّ، فصلى رسولُ الله ﷺ بأصحابه، فأطال القيام حتى جعلوا يخرُّون، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه فأطال، ثم ركع فأطال الركوع، ثم سجد سجدتين، ثم قام فصنع مثل ذلك، ثم جعل يتقدم، ثم جعل يتأخر، فكانت أربع ركعات، وأربع سجعات.

ثم قال: «إنه عُرِضَ عليَّ كل شيء تُوعَدُونَهُ، فَعُرِضَتْ عليَّ الجنة، حتى لو تناولتُ منها قطعاً أخذته، فقَصُرَتْ يدي عنه، وعُرِضَتْ عليَّ النارُ فجعلتُ أتأخَّرُ رهبةً أن تغشاكم، فرأيتُ امرأة حُمَيْرِيَّةً سوداء طويلة، تُعَذِّبُ في هِرَّةٍ لها ربطتها فلم تُطعمها، ولم تُسقها ولم تَدْعُها تأكل من خشاش الأرض، ورأيتُ أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قُصْبَهُ في النار».

عبد الله بن عمر يرى النار مناماً

وكان عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - يتمنى أن يرى رؤيا ليقصَّها على النبي ﷺ، كما كان يفعل كثيرٌ من أصحاب النبي ﷺ، فقال: رأيت في المنام أنه جاءني ملكان، في يد كل واحد منهما مِقمعةٌ من حديد، قالوا: لن ترع. نِعَم الرجل أنت، لو كنت تُكثِّر الصلاة من الليل!!.

فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البئر، لها قرونٌ كقرون البئر، بين كل قرنين مَلَكٌ بيده مِقمعة من حديد، وإذا فيها رجال مُعلَقون بالسلاسل رؤوسهم أسفلهم، وعرفتُ رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين، فقصصتها على حفصة، فقصصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «إن عبدَ الله رجلٌ صالح، لو كان يصلي من الليل».



وَصَفُ النَّارِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

مَشَاهِدُ النَّارِ يُصَوِّرُهَا الْحَقُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَنَا بِالْقُرْآنِ الْبَلِیْغِ الْمَعْجَزِ، وَمَشَاهِدُ آخَرٍ يَنْقُلُهَا النَّبِيُّ ﷺ لَنَا وَيُصَوِّرُهَا بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، فَإِذَا كُلُّ مَشْهَدٍ يَقْطَعُ الْقَلْبَ، لَوْ كَانَ صَاحِبُهُ يَعْيُ وَيَسْمَعُ.

وَالنَّارُ وَاحِدَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُبْرَى. . قَالَ تَعَالَى:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ * إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فَتَذَكَّرُ النَّارُ مِنَ الْإِيمَانِ، إِنَّهَا لِحَقٌّ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ، وَقَدْ رَأَاهَا الصَّادِقُونَ رَأَى الْعَيْنِ، وَحَدَّثُوا بِمَا شَاهَدُوا فِيهَا، وَأَعْظَمُ مَنْ رَأَاهَا وَحَدَّثَ بِمَا فِيهَا هُوَ رَسُولُنَا الصَّادِقُ الْأَمِينُ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ الْحَقَّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عِنْدَمَا خَلَقَ الْجَنَّةَ نَادَى جِبْرِيلَ، فَقَالَ لَهُ: «اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذْهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَارْجِعْ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِالْجَنَّةِ فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا قَالَ: فَانْظَرَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ».

قَالَ: ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّارِ. قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. قَالَ: فَانْظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ سَمِعَ بِهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ. ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذْهَبَ فَانْظَرَ فِيهَا، فَارْجِعْ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»، [رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي].

وَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ النَّارَ اشْتَكَتْ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَقَالَتْ: «يَا رَبِّ، أَكُلَ

بعضي بعضاً، فجعل لها نَفْسَيْنِ، نَفْساً في الشتاء، وَنَفْساً في الصيف، فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها، وشدة ما تجدون من الحر من سَمُومها»، [رواه ابن ماجه].

وأخبر ﷺ أنه «إذا جاء رمضان فُتِّحَتْ أبواب الجنة، وُعِلِّقَتْ أبواب النيران، وَصُفِّدَتْ الشياطين»، [متفق عليه].

وهذه النار لا تَفْنَى ولا تَبِيدُ، بل هي باقية وخالدة خُلُوداً، لا نهايةَ له، ولا انقطاعَ له، وأهلها الذين هم أهلها باقون فيها مُعَذَّبُونَ عَذَاباً لا ينقطع أبداً، ولا يَفْتُرُ عنهم مطلقاً - عياداً بالله منها ومن أحوال أهلها.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَلِدُوا فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِنْ لَوْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَتِكَ أَنُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كَافَرًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦٠، ١٦١].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال: ﴿وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١١-١٣].

أي: لا يموت موتاً يستريح فيه من العذاب، ولا يحيا حياة نافعة صالحة، بل عذاب دائم يصبح الموت معه أكبر الأمان، ولكنه لا يكون. قال تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكِهِمْ لِيَقْضَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال تعالى لأهلها: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِيمَا فَتَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، جيء بالموت، حتى يُجْعَلَ بين الجنة والنار، ثم يُذْبَحُ، ثم ينادي مُنَادٍ: يا أهل الجنة خلودوا فلا موت. . يا أهل النار خلودوا فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»، [رواه البخاري].

سِعَةُ النَّارِ

هذه النار المخلوقة الموجودة الآن لا يبلغ العقل معرفة اتساعها، فإن الشمس

والقمر والنجوم أحجارٌ صغيرة في وسطها . . إنها مَحْرَقَةٌ هائلة تُلقَى فيها النجوم والشموس، كما تُلقَى الأحجارُ الصغيرة في البئر العظيمة، وتتضخم أجسادُ أهلها وأصحابها، ممن كتب الله عليهم الخلود فيها.

حتى إنه ليكونُ ضرْسُ أحدهم كجبل أحد، وما بين مَنَكِبَيْهِ مسيرة ثلاثة أيام، وسُمْكَ جلده مسيرة ثلاثة أيام، فيكون جثمان الواحد من أهل النار كأعظم جبل من جبال الدنيا، قال النبي ﷺ: « ضرْسُ الكافر أو نابُ الكافر مثل أحد، وغَلَطَ جلده مسيرة ثلاثة أيام »، [رواه مسلم].

وفي البخاري قال ﷺ: « ما بين مَنَكِبَيْ الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع ». وفي الترمذي قال ﷺ: « إن مجلس الكافر من جهنم كما بين مكة والمدينة ».

ومع أنه يدخل النار من أولاد آدم من كل ألف تسعة وتسعون وتسعمائة، ولا يدخل الجنة من الألف إلا واحد فقط، وثَمَّ من شياطين الجن مثلُ أعداد كفار بني آدم أو يزيدون، وكلُّهم يدخلون النار على الحال التي وصفَ الله سبحانه وتعالى، وكلُّ هؤلاء لا يملأون النار، ولا تضيق بهم:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

هذه النار التي بهذا الاتساع، خُلِقَتْ على شكل البئر المطوية، قد لا يبدو للناظر إليها وهو خارجٌ عنها من فوقها إلا سُورُها وسُرادقها المحيط بها، وأبوابها السبعة المقامة في سُورها، أو المنصوبة على دركاتها، وأما هي فتذهب عُمقاً إلى قَعَر لا قَرَارَ له، وإذا أُلْقِيَ الحجرُ العظيم من شفيرها يظلُّ يهوي سبعين عاماً لا يبلغ قَعَرها.

وفي هذه المحرقة الهائلة جبالٌ، فيها من الكهوف والمغارات والوديان والشعاب تهاويل لا يبلغ العقل عدّها ولا حَصْرُها، وتجري في جبالها وسُهولها وقيعانها أنهارُ القَيْح والصديد، وما يسيل من أجساد أهل النار وما ينفجر من بطونهم وأمعانهم.

قال الحق سبحانه: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

ومن هذه الجبال والوديان تنفجر أنهارٌ من ماء كدُرٍ ذي الزيت مُتَنِّين بلغ غايته وحَدّه في الحرارة، إذا قَرَّبَه المَعْدَب من وجهه شَوَى وجهه، وتساقط جلدٌ وجهه فيه - عياداً بالله من سخطه وعقابه.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

والمُهْل: هو الرصاص المذاب، أو كُلُّ معدن مُذاب.

في النار: كُلُّ أسباب الموت ولا موت!!

هذه النار العظيمة - المخلوقة الآن - مَنْ دخلها من أهلها الذين هم أهلها - عياداً بالله - فإنه يُبَشِّرُ عند الدخول بالخلود الذي لا انقطاعَ له، قبل أن يُلقَى فيها: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُكْرِبِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

ويجتمع له فيها كُلُّ أسباب الموت، ولكنه لا يموتُ بسبب من أسبابها، ولا باجتماع كل أسبابها: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

فإن حَرَّ نارها يقتل ويُمَيِّتُ في لحظة واحدة، ولكن الله كتب على أهلها أن يذوقوه ولا يموتوا، وكذلك ماؤها الذي يُقَطِّعُ الأمعاء يقتل لو لم يكتب الله البقاء السرمدي لأهلها، وكذلك لدغ حياتها وأكل زقومها، وقرع ملائكتها، وضربهم أهلها بمقامع من حديد، لو ضُربَ بها أعظم جبال الأرض ضربةً واحدةً لَدُكَّ لساعته، وأصبح كثيباً مهياً.

ثم العَمَّ الشديد الذي يُفَجِّرُ القلب، واليأس الشديد الذي يقطع الأمل، وكل هذه أحوالٌ قاتلة مميتة، ولكن المعذب بها من أهل النار عياداً بالله لا يموتُ بواحد منها، ولا باجتماعها جميعاً، وهي مجتمعة على كل واحد من أهل النار.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

عذاب النار في ازديادٍ أبداً

ويستمر هذا التسعير والتصعيد في العذاب أبداً، ولا أمل في يوم من الراحة، ولا ساعة من الهدوء، ولا فتور للعذاب: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامْرَأَتَهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ * يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٤٩-٥١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ * لَا يُفَرِّقُهُمْ فِيهِمْ مَبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥]. أي: مُتَحِيرُونَ يائسون مُنْقَطِعُونَ الرجاء والأمل في أي صورة من صور الرحمة بهم. إن تصوّر هذه الحال، وتخيل أن يكون الواحدُ منّا في هذه المآل - عياداً بالله - أعظمُ واعظ وأكبرُ زاجر.

طعامُ أهل النار عذابٌ وشرايبُهُم عذابٌ

أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها - عياداً بالله - يأكلون فيها

ويشربون، ولكنهم يُعَذَّبون بالطعام والشراب عذاباً، كعذاب النار أو أشدّ، ومع أنهم يُعَذَّبُونَ بالطعام الذي يأكلونه، وبالشراب الذي يشربونه، إلا أن ضرورة الجوع والعطش تُلجئهم إلى هذا الأكل والشراب، وهو نوعٌ من العذاب، بل هو العذاب.

فالمعذب في النار يجوع جوعاً شديداً، وتُلجئُه ضرورته إلى الأكل من شجر الزقوم. . هذه الشجرة تخرج في أصل النار في عمق البر، وقعر الجحيم، وتخرج أغصانها وثمارها في صورة مربعة كريهة بشعة.

وما ظنك بثمار شجر ينبت في النار، وتغذيه النار ويجري في عروقه الحميم، ووصف الله - سبحانه وتعالى - شجرة الزقوم، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ * فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا أيضاً: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَ الْفَالِئُونَ الْمَكْذُوبُونَ * لَا كُؤُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نَزَمُومُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

والمعنى أن ضرورة الجوع تلجئ المعذب من أهل النار إلى الأكل من هذه الشجرة الخبيثة الملعونة التي تخرج في أصل النار، وتثمر ثماراً من نار، فإذا احترق جوف المعذب من هذا الطعام الخبيث، وأراد أن يطفىء الحرارة المشتعلة في بطنه، ويطفىء العطش الهائل الذي يُحسُّ به، ألجأته هذه الضرورة إلى ماء خبيث، قد بلغ غايته في الحرارة فيشربه ليطفىء ناراً، فلا يزيده هذا الماء المغلي إلا اشتعلاً.

﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥].

ومع أن الماء كدردي الزيت، خبيثٌ مُنْتِن الرائحة، قد بلغ غايته في الغليان، إلا أن المعذب يشرب منه شرباً ذريعاً شرب الناقة الهيماء التي يصيبها داءٌ في جوفها، فتشعر بلهيب في بطنها فتعَبُّ من الماء، ولا ترتوي، كما قال الشاعر يصف حاله في الحب:

فَأَصْبَحْتُ كَالْهِيمَاءِ لَا الْمَاءَ مُبْرَدَ ظَمَاهَا وَلَا يَفْضِي عَلَيْهَا هَيَامُهَا

إذا شرب هؤلاء المعذبون من الماء الذي لا ينفعهم، بل يضرهم حتى تنقطع أمعاؤهم، فَرُّوا منه إلى النار فكان بَشْسَ الفرائ، ثم تلجئهم ضرورة العطش مرة ثانية لذلك الماء الخبيث، وهكذا فراراً من شرٍّ لما هو شرٌّ منه، ثم عَوْدٌ إلى الأول.

قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾

[الرحمن: ٤٣، ٤٤].

والمعنى: يفرّون منها إلى الحميم، ويفرّون من الحميم إليها. ومعنى أن: أي بلغ حينه أي غاية حدّه في الحرارة والغليان.

أَلْوَانُ أُخْرَى مِنَ الْأَشْرَبَةِ الْخَبِيثَةِ

وليس هذا وحده ما يُعَذَّبُ به أهل النار من الطعام والشراب، بل إن لهم من ألوان الأشربة الخبيثة التنتة المهلكة أشكالاً وألواناً. قال تعالى: ﴿ هَذَا وَارْتِ لِلَّطَّغِينَ لَشْرَ مَنَابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّ الْمَهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥-٥٨].

فالحميم هو الماء الحار والغساق شراب خبيث لو ألقيت قطرة واحدة منه على بحار الأرض لأفسدت على أهل الأرض كلهم معاشهم. قال ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت لأفسدت على أهل الأرض عيشهم، فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم»، [رواه أحمد].

والأزواج الأخرى أشكال من جنس هذا، عياداً بالله من سخطه وعقابه.. وكل ذلك حقّ اليقين.

الْعَذَابُ النَّفْسِي أَشَدُّ مِنَ الْعَذَابِ الْجِسْمَانِي

ليس عذاب أهل النار عذاباً جسدياً فقط، يُعَذَّبون فيه بالنار التي تُنضج جلودهم ثم ينبت في الحال غيرها، وتحرق صدورهم حتى يبلغ قلوبهم. قال تعالى: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ ﴾ [الهمزة: ٦، ٧].

أي: التي يدخل لهيبتها إلى الفؤاد، والتي تُوضع أحجارها المحمّاة على حلمة ثدي أحدهم، حتى يخرج الحجر من ظهره، ويُوضع فوق ظهره حتى يخرج من صدره. قال ﷺ: «بَشَرُ الْكَثَّازِينَ بَرَضُفٍ يُحْمَى عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُوضَعُ عَلَى حَلْمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِمْ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نَاضٍ كَتْفِيهِ، وَيُوضَعُ عَلَى نَاضٍ كَتْفِيهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلْمَةِ ثَدْيِيهِ، يَتَزَلْزَلُ»، [رواه مسلم].

ومن العذاب الجسماني في شربهم الحميم، وأكلهم الزقوم، ولَدَغَ حَيَاتٍ كَالْبَغَالِ، تنطلق من كهوف في النار، ويسري سُمُّها في أجسامهم يعمل عمل النار أو أشد.. ليس هذا هو عذاب أهل النار فقط، بل إن عذابهم النفسي مثل ذلك وأشهر. فمن ذلك:

١ - التقرير الدائم من خَزَنَةِ النَّارِ، كقولهم لهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

٢ - وكذلك إهمال ملائكة النار لاستغاثاتهم وصراخهم، أو أن يرقوا لحالهم . . بل مضاعفة العذاب لهم كلما استغاثوا. قال تعالى: ﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وعندما يبلغ بأهل النار كربهم وغمهم غاية يسألون مالكا خازن النار، وهو أشد ملائكة العذاب شدة وغلظة: ﴿يَمْلِكُ لِقَضِ عَيْنَا رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. فيرد عليهم بعد ألف سنة، وهو يوم واحد من أيام الآخرة: ﴿إِنَّكُمْ مَكْنُوتٌ * لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨].

وإذا بلغ منهم الغم مداه عادوا بالمقت على أنفسهم، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وهذا اعتراف منهم بالذنب، أنهم لم يكونوا ذوي أذان تسمع النداء - نداء الحق - في الدنيا، ولا ذوي عقول تعي دعوة الحق التي جاءتهم على السنة الرسل.

وإذا علموا السبب الحق في ضلالهم، وعادوا بالملامة على أنفسهم، وندموا حيث لا تنفع الندامة، وتحسروا حيث لا تزيدهم الحسرة إلا مثلها، ومقتوا أنفسهم نودوا بما يصيبهم بغم وكرب أعظم من الذي نالوه كله، وهو أن سخط الرب ومقتة لهم أعظم من مقتتهم أنفسهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

وسبب مقتهم أنفسهم أن الإيمان قد كان في متناول أيديهم لو تناولوه، وأما الآن فالإيمان بعيد ولا يقبل منهم ﴿وَقَالُوا أَمَّا بِهِ وَلَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: ٥٢].

كان المطلوب منهم: إيماناً بالقلب بوحداية الله، وشهادة باللسان، وعمل صالح سهل ميسور يستعذبه المؤمن في الدنيا، ويمتع به في الدنيا قبل الآخرة، فالصائم يفرح في الدنيا بصومه، والمصلّي يشعر بالرضا بصلاته، والمتصدق يسكب الله في قلبه من معاني الخير والفضل ما هو خير من إمساكه ما تصدق به، والحاج يستعذب المشقة في سبيل الله، وذاكر الله يقول: «إننا والله في نعمة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيف».

والراضي بالحلال في المأكل والمشرب والمنكح، يشعر بسعادة ورضى، لا

يشعر بها مَنْ يعيش فيما حَرَّمَ الله عليه من المآكل والمناكح والمشارب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

٣ - ومن العذاب النفسي لأهل النار قمعهم بالمطارق، وتأنيبهم مع هذا العذاب المذل بالتبكيك، وصنوف الإذلال كقول الملائكة لهم بعد صَبِّ العذاب فوقهم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٥٠]، وقولهم: ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ﴾ [الطور: ١٥].

٤ - ومن ذلك أن يكون العذاب في نفسه مُهِيناً كالسَّحْب على الوجوه في النار: ﴿يَوْمَ يَسْجُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوفُواً مَسَّ سَقَرٌ﴾ [القمر: ٤٨]، والأخذ بالتواصي والأقدام، ثم الإلقاء في النار: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالْوَصَى وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

أو الدفع الشديد إلى العذاب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، والدَّعْ هو الدَّفْع العنيف بشدة وقوة وعنف.

وقد سَمَّى الله عذاب الآخرة بالعذاب المهين، وذلك أن مَنْ يَصْلَاهُ يُهَانُ أعظم إهانة وأكبرها. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

٥ - وأعظم أنواع الإهانات التي يتلقاها أهل النار - عياداً بالله - هي حُلُول غضب الله وسخطه عليهم، والتخلّي عنهم، ونسيانهم - سبحانه وتعالى - لهم ومفتتهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

٦ - ومن ذلك الفضيحة بالذنب على رؤوس الأشهاد والتشهير بهم على الملأ، بل على رءوس الناس جميعاً منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ **﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾** [الطارق: ٩، ١٠]. ومعنى تُبْلَى تُهْتَك، ويظهر ما كان في الخفاء مما أَسْرَهُ أصحاب الذنوب والمعاصي.

وقال تعالى بعد أن صَوَّر مصارعَ الهالكين من قوم نوح وعاد وشمود، وأصحاب لوط، وقوم شعيب:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

أي: يشهده الناس جميعاً ويحضرونه.. فمن عذبه الله في هذا اليوم، وأظهر فضائحه على الملائ، وشهر به أمام جميع الخلائق، فقد أهانه أبلغ الإهانة، وأذله غاية الإذلال، قال تعالى عن دعاء المؤمنين ربهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وقال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧، ٨٨].

وقال ﷺ: « لكل غادر لواءٌ عند إسته يوم القيامة له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة »، [رواه مسلم].

أَعْظَمُ عَذَابِ النَّارِ هُوَ الْخُلُودُ

أهل النار قسمان: مخلدون خلوداً لا انقطاع له، ولا موت معه، وهم درجات فيها، أعلاهم مَنْ يُوضَعُ فِي جُبٍّ فِي أَسْفَلِ النَّارِ، لَوْ فُتِحَ هَذَا الْجُبُّ فَإِنَّ جَهَنَّمَ نَفْسَهَا تَسْتَغِيثُ بِاللَّهِ مِنْ حَرِّهِ!! وأدناهم منزلةً وأقلهم عذاباً مَنْ يُوضَعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمِيهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ!! وهذا وإن كان أهون أهل النار عذاباً إلا أنه يظن ويرى نفسه أنه أشد الناس عذاباً.

وتصوّر الخلود في العذاب أمر يفوق التصوّر!! ويقطّع القلب!! فإن تصوّر أن يكون الإنسان في سجن ما، ولو كان كسجون الدنيا يعيش فيه إلى ما لا نهاية، ولا يخرج منه أبداً بالموت ولا بغيره، بل يبقى فيه بقاء سرمدياً.. هذا التصوّر كافٍ في موت الإنسان غمّاً وكمداً وحُزناً.. فكيف لو كان هذا السجن: جدران وأبوابه، وطعامه، وشرابه من النار!!؟.

فكيف إذا كان هذا السجن بئراً، إذا أُلْقِيَ فِيهِ هَذَا الْمَعَذَّبُ، هُوَى عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ سَبْعِينَ سَنَةً لَا يَصِلُ إِلَى قَرَارٍ؟! فكيف إذا كانت النار التي نعهدها في هذه الدنيا جزءاً من سبعين جزءاً من نار الآخرة؟ كل جزء من التسعة والستين فيه مثل حرّ نار الدنيا؟!.

إن تصوّر الخلود في هذا العذاب شيء يفوق الوصف.. والعجب أن المصدّق به لا يفرّ منه، وقد قال رسول الله ﷺ: «عجبتُ للنار.. كيف نام هاربها؟».

وإلا فَمَنْ عرف هذه النار وآمن بها، وأنها موجودة حاضرة الآن، وإذا مات في أية لحظة فقد يدخلها، كيف له أن ينام وهي في الانتظار!! ولكن إنها الغفلة والتسويف والانشغال بما حُفَّتْ بِهِ النَّارُ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

مَنْ هُمْ عَصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ؟

المؤمن الذي يموت على الإيمان إذا كان قد ارتكب في حياته معصية دون الكفر والشرك المخرج من الملة فإن له حالتين: إما أن يكون قد تاب من معصيته في حياته، وإما أن يكون مات غير تائب منها... فإن كان قد تاب منها في حياته توبةً نصحاً قبلها الله منه، فإنه يعود كمن لا ذنب له، فلا يطالب بمعصيته هذه في الآخرة.

وأما إذا كان قد مات غير تائب من معصيته، فإن لهذا أحوالاً:

١ - فمنها، أن يتجاوز الله عنه إحساناً من الله وفضلاً ومَنّاً. كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في التَّجَوُّي «أن الله سبحانه وتعالى يُدْني المؤمن، فيضع عليه كَنَفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى كتابَ حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا ربّهم، ألا لعنةُ الله على الظالمين»، [رواه البخاري].. هذا في موقف القيامة.

٢ - ومنها: أن تكون له حسنات كثيرة تربو على هذه السيئات فيتجاوز الله عنه ويسامحه في سيئاته لزيادة الخير الذي عنده. قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦، ٧].

٣ - وإما أن يشاء الله - سبحانه وتعالى - عقوبته. وهذه العقوبة إما أن يُعَذَّب بها في القبر، أو في الموقف (يوم القيامة)، أو في نار جهنم، ثم تتداركه بعد رحمة الله، فينصرف إلى الجنة ما دام قد مات على التوحيد والإيمان، ولم يكن من أهل الكفر الناقل عن ملة الإسلام.

وهؤلاء المؤمنون العصاة هم الذين يموتون يوم يموتون، وقد فعلوا معاصي لم يتوبوا منها، أو لم تُقبل توبتهم فيها، أو ماتوا يوم ماتوا عليها - عياداً بالله من سخطه - كمن مات وهو يزني أو وهو يسرق، أو وهو فارٌّ من الزحف، أو وهو يأكل الربا، أو ماتوا وهم يعملون ما دون ذلك من المعاصي والسيئات. ثم شاء الله جلّ وعلا أن يُعَذِّبهم بمعاصيهم في القبر أو عرصات يوم القيامة في يوم مقداره خمسون ألف سنة من أيام الدنيا، أو في النار بعد ذلك.

الذَّنْبُ وَالْوَعِيدُ مُتَحَقِّقَانِ، التَّوْبَةُ وَالْمَغْفَرَةُ مَظْنُونَتَانِ

فوقوع الذنب من العبد متحقق، سواء علم به العبد أو لم يعلم به، أو عدّه

ذنباً، أو لم يَعِدْهُ ذنباً، وسواء تذكّره أو نَسِيَهُ، فكلُّ ذنب وقع في الأرض فهو مكتوب مسطور ما لم يَمْحُهِ اللَّهُ بالتوبة.

وأيضاً، فإن العقوبة التي رَتَّبَهَا اللَّهُ على الذنب فهي كذلك متحققة ما لم يغفر الله لفاعل الذنب، ولما كانت الذنوب التي فعلتها أمراً مقطوعاً به، فقد كُتِبَ وَسُجِّلَ لا محالة في ذلك، والوعيد على الذنب مقطوع به، فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يقول إلا حقاً، ولا يتوعد إلا صدقاً إلا أن يتوب العبد توبةً نَصُوحاً فيغفر الله له، ولكن قبول التوبة يظل مظنوناً. فما يدريني - ويديري غيري - أن الله قد قَبِلَ عذري، وأَقَالَ عَثْرَتِي، وغفر ذنبي.

إنني أحسن الظن بالله، ولكنني أَسِيءُ الظَّنَّ في نفسي، فهل استكملت أركان التوبة؟ فأقلعتُ عن الذنب إقلاعَ مَنْ لا ينوي مراجعته قط، وهل ندمتُ على فعل كل ذنبٍ أذنبته ندمَ مَنْ يقطع بالعقوبة عليه إن لم يغفر الله؟

وهل عزمت على عدم العودة ما حييت؟ وهل رددتُ حقوقَ الآدميين لهم؟ وتحللتُ منهم مما لا أستطيع رَدُّهُ؟ كيف وعندي ما لا يعلمه إلا الله من الذنوب التي هي حَقٌّ خالصٌ لله، وجبال أخرى من الذنوب التي تتعلق بحقوق الآدميين!!؟.

وأقول: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، وأنا عبدك، وأنا على عَهْدِكَ ما استطعتُ، أعوذ بك من شرٍّ ما صنعتُ، وأبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أَنْتَ.

فطريق المؤمن إلى الجنة طويلٌ شاقٌّ عسير، فالطريق محفوفٌ بالمخاطر، ومفاوز عظيمة، وعقبات وعقبات، ومن عصاة المؤمنين من يُثَقِّلُ دُونَ الجنة، فيمكثُ في النار ما شاء الله أن يمكثَ، وأنه لا يدخلُ الجنةَ بعد ذلك إلا محترقاً، ثم ينبت له لحم جديد.

وأما طريق الكفار إلى النار، فهو قصير جداً.. القبر أول منازلهم. قال تعالى عن قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، بقاء التعقيب.

وقال تعالى في قوم فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، ثم البعث، فالحشر، فالنار.. وأما أهل الإيمان فإن طريقهم إلى الجنة طويل، ولا يدخلونها إلا بعد أن يدخل أهل النار.

ولنبداً رحلة الإيمان من أولها..

الموتُ آتٍ لَا مَحَالَةَ

من هذه اللحظة إلى الموت قَدَرٌ من العمر قد يكون لحظةً وقد يستمر سنوات، وأعمارُ أمة محمد عَامَّتُهُم بين الستين والسبعين، ولا يجاوز هذا العمر إلا النادر. ومن هذه اللحظة إلى لحظة الوداع لا يدري أحدٌ ما تكونُ الخاتمة.

قال ﷺ: «إن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل الجنة، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجلُ ليعملُ بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخلها».

وقال أيضاً ﷺ: «إن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» [متفق عليه].

اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تُثبتني على الإيمان حتى ألقاك، وأن تجعلَ خَيْرَ أيامي آخرها، وأحسن عملي خواتيمه. اللهم اختمْ لي ولإخواني المؤمنين بخاتمة أهل السعادة، ولا تُزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا رب العالمين.

وسيطل المؤمنُ خائفاً من تقلُّب قلبه، وهل سُمِّي القلبُ قلباً إلا لتقلُّبه؟ ولقد كان رسولُ الله ﷺ الجبلَ الراسخَ في الإيمان، خيرَ عباد الله على الإطلاق. يقول: «يا مُقلِّبَ القلوب.. ثَبَّتْ قلبي على دينك».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «لا، ومُقلِّبَ القلوبِ» [رواه البخاري].

فما يُدريني أنا أو غيري، كيف تكون لحظة النهاية؟ هذا ونحن نعيش العصر الذي قال فيه الرسول ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يُمسي المرءُ مؤمناً، ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويُمسي كافراً، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل» [رواه أحمد ومسلم والترمذي].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

هل يُعاني المؤمنُ سكراتِ الموت؟

الموت لحظة رهيبة، والكلُّ يخافه ويكرهه، المؤمن والكافر.. ولا بُدَّ لكل أحد منه، ولا فرارَ عنه، ونَزْعُ الروح نَزْعٌ، وآلامٌ، وكل إنسان يذوقه مؤمناً، أو كافراً.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَیِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

والمؤمن لا يناله من ألم الموت إلا القليل، وأما الكافر فإن نزاع الروح هو أول العذاب له.. فقد كانت عائشة رضي الله عنها تقول: «إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقه وريقه عند موته، دخل علي عبد الرحمن (أخوها) وبیده السَّوَاكُ، وأنا مُسْنِدَةٌ رسولَ الله ﷺ فرأيتَه ينظرُ إليه، عرفتُ أنه يحبُّ السَّوَاكَ فقلتُ: أخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتدَّ عليه، وقلتُ: أليته لك، فأشار برأسه أن نعم، فليته، وبين يديه ركوة أو علبه فيها ماء، فجعل يُدخلُ يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات!!.

ثم نصب يده، فجعل يقول: في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده ﷺ» [رواه البخاري].

اللحظات الأخيرة في حياة المؤمن والكافر

فالمؤمن يُبَشَّرُ بالجنة، والكافر يُبَشَّرُ بالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

أما الكافر فإنه يتلقى الصفعات عند الموت.. قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرِيُوتٍ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبَرُهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

ويُبَشَّرُ بالنار ويُقَرَّع عند الموت. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَوْتٌ لَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وقد أوضح النبي ﷺ هذه اللحظات الأخيرة في حياة المؤمن والكافر، فقال ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر.

ثم يجيء مُلْكُ الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فيٍّ

السَّقَاءَ، فَيَأْخُذُهَا إِذَا أَخْذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ. وَيُخْرِجُ مِنْهَا كَأَطِيبٍ نَفْحَةً مَسْكٌ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟

فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ - بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا - حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ جَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى.

فَتُعَادُ رُوحُهُ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَقْتُ.

فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَافْرَشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبَسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ الْبَصْرِ. وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ، طِيبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرُ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقْمِ السَّاعَةَ.. رَبِّ أَقْمِ السَّاعَةَ.. حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مِنْهُمْ الْمُسَوِّحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ، فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّقُودُ مِنَ الصَّوْفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا.

فَإِذَا أَخْذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمَسْوُوحِ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ - بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحاً، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيُجلسانه فيقولان له: مَنْ ربك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه. لا أدري.

فينادي مُنَادٍ من السماء: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حَرِّها وَسُومِها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب، مُتَنِّنِ الرِّيح، فيقول: أُبَشِّرُ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هذا يومك الذي كنت تُوعَدُ، فيقول: مَنْ أَنْتَ؟ فوجهُك يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملُك الخبيث، فيقول: رَبِّ لَا تُقِمِّ السَّاعَةَ، [أخرجه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم وصححه شيخنا الألباني].

عصاة المؤمنين

وعصاة المؤمنين قد يُعَذَّبُ بعضُهم في قبره، في صغير من الذنوب وكبير: فمنهم مَنْ يُعَذَّبُ بالنميمة، ومنهم مَنْ يُعَذَّبُ لأنه لم يَكُنْ يستنزه من بوله، ومنهم مَنْ يُعَذَّبُ في دَيْنٍ كان عليه لم يُؤدِّه.

وقال جابر بن عبد الله الأنصاري: تُوفِّيَ رجلٌ، فغسلناه وحنَّطناه، وكفناه، ثم أتينا به رسول الله ﷺ يُصلي عليه، فقلنا: تصلي عليه، فخطا خطي، ثم قال: أعليه دَيْنٌ؟ قلنا: ديناران. فانصرف. فتحمَّلَهما أبو قتادة فأتيناه. فقال أبو قتادة: الديناران عليّ. فقال رسول الله ﷺ: أَحَقُّ الغريمِ وبرىءٍ منهما الميت؟ قال: نعم. فصلى عليه، ثم قال بعد ذلك بيوم: ما فعل الديناران؟! فقال أبو قتادة: إنما مات أمس. فعاد إليه من الغد، فقال: قد قضيتهما. فقال رسول الله ﷺ: «الآن بردت عليه جلده».

وقوله ﷺ: «الآن بردت عليه جلده»، يدلُّ على أنه كان يُعَذَّبُ في القبر، إلى أَنْ أَدَّى ما عليه من الدَّيْنِ، ومنهم مَنْ مات شهيداً مع النبي ﷺ، ولما كان قد غلَّ بُرْدَةً لا تساوي أربعة دراهم، فقد دخل العذاب بعد الموت مباشرة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم خيبر، فلم نغنم ذهباً ولا فضة، إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدى رجل من بني الضبيب يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ غلاماً يقال له مدعم، فوجه رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، حتى إذا كان بوادي القرى بينما مدعم يحطُّ رَحْلاً لرسول الله ﷺ إذا سهمٌ حائرٌ فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تُصَبِّها المقاسم لَتَشْتَعْلُ عليه ناراً».

فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بِشِرَاكٍ أو شراكين إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: «شراك من نار، أو شراكان من نار».

فإِنَّ أَخْذَ شِرَاكِ مِنَ الْغَنَائِمِ هو من صغار الذنوب، لأن الشراك لا يساوي شيئاً ولا يُشَاخُ فيه، وَمَنْ فَقَدَهُ لا يسأل عنه، ومع ذلك لَمَّا كان غُلُولاً لم يُتَسَامَحَ فيه. وهذا من أبين الأدلة على أن المؤمنَ قد يُعَذَّبُ في قبره في صغائر من الذنوب.

القَبْرِ.. بَغَيْرِ عَذَابٍ عَذَابٌ

والقبر وإن كان بغير عذاب فهو عذاب، فهو منزل رهيب. إنه الوحدة والوَخْشَةُ وَالظُّلْمَةُ والضيق، قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القبورَ ممثلةٌ على أهلها ظُلمة، وإنَّ الله يُنَوِّرُها لهم بصلاتي عليهم»، [رواه أحمد ومسلم].

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ على عبدك ورسولك محمد... اللَّهُمَّ أعْذِنِي وإخواني المؤمنين من عذاب القبر، اللَّهُمَّ نَوِّرْ عَلَيْنَا قُبُورَنَا، ولا تَرُدْنَا على أعقابنا بعد إِذْ هَدَيْتَنَا للإسلام.

وليس من مؤمن إلا وهو يُسْتَقْبَلُ من القبر بِضَمَّةٍ وَضَغْطَةٍ، قال ﷺ في سعد بن معاذ: «هذا الذي تحرَّك له العرشُ، وفُتِحَتْ له أبوابُ السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضُمَّ ضَمَّةٌ، ثم فُرِجَ عنه»، [رواه النسائي، وصححه الألباني].

فإذا كان هذا حال سعد بن معاذ سيد الأوس، السابق بالإيمان، والذي لا تُحْصَى مناقبه، والذي اهتزَّ لموته عرشُ الرحمن... فما بالك بسواه؟! والمؤمن والكافر والمنافق، كُلٌّ رهينُ عمله في القبر، وحياة البرزخ حياةٌ بكلِّ الأحاسيس والمشاعر التي كانت في الحياة الدنيا، ففي القبر الفرح والسرور والبُشْرَى، وفيه الحزن والغَمُّ والهموم والآلام.



الموقف والحشر

اليوم الثقيل الطويل العبوس القمطير!! وما بعد القبر أعظم منه . . إنه البعث والنشور . . إنه اليوم الثقيل الطويل العبوس القمطير!! إنه يوم واحد ولكنه خمسون ألف سنة من أيام الدنيا طويلاً . . يوم لا تغرب شمسُهُ إلا بعد مُضيِّ خمسين ألف سنة، يوم يقومُ الناسُ فيه لربِّ العالمين في رَشْحهم وعَرَقهم إلى أنصاف آذانهم: فمنهم مَنْ يأخذه عرقُهُ إلى كَعْبِيَّه، ومنهم مَنْ يأخذه عَرَقه إلى رُكْبَتِيَّه، ومنهم مَنْ يأخذه عرقُهُ إلى ثَدْيِيَّه، ومنهم مَنْ يلجمه عرقه، ومنهم مَنْ يَغُطُّ في عرقه غَطِيْطاً.

وقد حَذَرَ اللّهُ جميعَ عباده منه، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْصِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَاهُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢].

وأمر رسوله ﷺ أَنْ يَقُومَ بِاللَّيْلِ اسْتِعْدَاداً وَحَذَرًا لِهَذَا الْيَوْمِ. قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ * مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ١، ٥].

وقال تعالى بعد ذكره لمصارع الغابرين: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ * ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَتَيْتَ ۖ أَنَا ۖ أَلَيْسَ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقد وصف النبي ﷺ من أحوال هذا اليوم وطُوله، وتهاويله وآلامه، ومشاهده ما يخلع القلب، ويُدْمِعُ العين، ويحمل على التفكير فيه وحده، والانصراف عن كل شيء دونه.

فمن ذلك قوله ﷺ: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبته، ومنهم من يكون إلى ركبته، ومنهم من يكون إلى حنجره، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. [رواه مسلم].

ففي هذا اليوم العصيب، يرى كل حميم حميمه فيفر منه، ويشغل بنفسه عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَجِيهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

في هذا اليوم يكون الكافر في عذاب هائل من الخوف والقلق، واليأس من رحمة الله، وانتظار العذاب المحقق في النار، ويصبح وجهه كالليل سواداً وظلمة، ممّا هو فيه من الكرب العظيم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ * كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْخِجُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقًا * يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

وأما أهل الإيمان فهم في أرض المحشر درجات في حصول الشدة والكرب، والهَمّ والعَمّ، وكل واحد منهم فيما هو فيه حسب إيمانه، وعمله الصالح، وحسب ما ارتكب كل من السيئات.

مانع الزكاة يُعَذَّبُ خمسين ألف سنة

ومن أهل الإيمان ممن له معاصٍ، لم يشأ الله أن يغفرها له، يُعَذَّبُ في أرض المحشر على هذه المعاصي (خمسين ألف سنة)، حتى يُقَضَى بين الخلائق، عياداً بالله من سخطه وعقابه.

فمن ذلك، مانع الزكاة: فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه، إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يحكم الله عز وجل بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدّون»، [رواه الإمام أحمد].

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم، لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة، بطّح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئاً، ليس فيها عَصَاء، ولا جُلحاء، ولا عَضَاء، تنطحه بقرونها، وتطوّه بأظلافها، كلما

مرَّ عليه أولاً رَدَّ عليه أخرّاها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقْضَى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار» .

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟

قال: «الخيل ثلاثة: هي لرجل وزرٌّ، وهي لرجل سِتْرٌ، وهي لرجل أجرٌ» .

فأما التي هي له وزرٌّ: فرجلٌ ربطها رياءً وفخراً ونواءً على أهل الإسلام، فهي له وزرٌّ .

وأما التي هي له سِتْرٌ، فرجلٌ ربطها في سبيل الله، ثم لم ينسَ حقَّ الله في ظهورها، ولا رقابها، فهي له سِتْرٌ .

وأما التي هي له أجرٌ، فرجلٌ ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مَرْج، أو رَوْضة، فما أكلتْ من ذلك المَرْج أو الروضة من شيء إلا كُتِبَ له عدد ما أكلتْ حسنات، وكُتِبَ له عددُ أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طولها فاستتت شرفاً أو شرفين إلا كتبَ اللهُ له عددُ آثارها، وأرواثها حسنات، ولا مرَّ بها صاحبها على نهر، فشربتْ منه، ولا يريد أن يسقيها إلا كتبَ اللهُ له عدد ما شربتْ حسناتٍ .

قيل: يا رسول الله، فَالْحُمْرُ؟

قال: «ما أنزلَ عليَّ في الحُمْر شيءٌ إلا هذه الآية الفَاذَّة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة: ٧، ٨]، [رواه مسلم] .

وتصديق هذا الحديث في كتاب الله تعالى قوله جلَّ وعلا:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُونُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْأَبْطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبْشِرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥] .

مُؤْمِنُونَ فِي ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ومن أهل الإيمان مَنْ يكونون في ظلِّ الله، قد خَصَّهم الله بهذه الكرامة لاختصاصهم بأعمال عظيمة . قال تعالى:

﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا * أَوْفَقَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ

لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَطْوَافُهَا نَذِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِإِنْيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ [الإنسان: ٦-١٥].

وقال رسول الله ﷺ:

«سبعة يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إمامٌ عادلٌ. وشابٌّ نشأ في عبادة الله عزَّ وجلَّ. ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد. ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه. ورجلٌ دَعَتْهُ امرأة ذات حُسنٍ وجمال، فقال: إني أخافُ الله. ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلمَ شماله ما تنفقُ يمينه. ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه»، [متفق عليه].

المروء على الصراط هو الكرب الأعظم لأهل الإيمان!! السابقون يجوزون، والعصاة يسقطون

أعسرُ مراحل يوم القيامة، وأصعبُ أوقاته، هو العبور فوق جهنم من أرض المحشر إلى قنطرة أخرى قبل الجنة... إنه عبور فوق النار كلها. وما أعرَضَ هذه النار؟! وما أعظم اتساعها، ولو قَرَّبنا المعنى لقلنا: إنه عبورٌ فوق الشمس!! بل الشمس كوكب صغير في النار!!.

فهل فكرتَ يا عبدَ الله في أنه يتوجَّب عليك أنْ تعبرَ فوق ما يشبه الشمسَ حرًّا وناراً، واتساعاً، بل الشمس الذي ينفجر بركانها، وتصل حرارة سطحها إلى مليوني درجة، جزءٌ صغير من نار الآخرة.

فإذا تصوَّرتنا النارَ كما صوَّرها الله لنا في القرآن، وكما أخبر عنها رسوله ﷺ في أحاديثه الكثيرة، وعلمنا أنها بئْرٌ عميقة قد بُعدَ قَوارِها بُعداً لا تستوعبه عقولنا، إلا أنْ نقيسَ ذلكَ بالبُعد بين الكواكب في هذا الكون الفسيح، وأنها في التهاب الشمس بل أعظم، وإنها واسعةٌ بحيث تكون الشمس هذه ذاتها، والقمر هذا ذاته الذي نراه، حجرين صغيرين في صحراء واسعة.

قال ﷺ: «الشمس والقمر مُكْوَرانِ في النارِ يومَ القيامةِ»، [رواه البخاري].

وإذا كان أهل الإيمان يَكْرَبُونَ في الموقف العظيم والمشهد الهائل والقيام لربِّ العالمين، وكَرَبُ كُلِّ واحد منهم على قَدَرِ ذُنُوبِهِ وَمَعَاصِيهِ، ومن أهل الإيمان مَنْ يُفْتَنُ في قبره، ويُعَذَّبُ حتى يُنْفَخَ الصُّور. ومنهم مَنْ يُعَذَّبُ بالنار في مَحْشَرِهِ في هذا اليوم الطويل العصيب، حتى يقضيَ الله بين الخلائق.

فإن ثمة ما هو أعظم لهم جميعاً، وأكبر فتنة وهولاً، وهو المرور على الصراط والجواز منه إلى الجنة.. فإما عبورٌ وسلامة، وإما معاناةٌ طويلة طويلة، وإما هوى في نار جهنم إلى غاية لا يعلمها إلا الله وحده، حتى تدركهم الشفاعة ورحمة الله في نهاية المطاف.

قال ﷺ: «يُضْرَبُ الصراطُ بين ظَهْرَيْ جهنمَ، فأكونُ أنا وأُمَّتِي أولَ مَنْ يُجِيزُ، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسلُ، ودعوى الرسل يومئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وفي جهنمَ كلاليبٌ مثل شَوْكِ السعدانِ، هل رأيْتُم السعدانَ؟» قالوا: نعم يا رسولَ الله. قال: «فإنها مثلُ شَوْكِ السعدانِ، غير أنه لا يعلمُ ما قَدُرُ عظمها إلا الله، تخطفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهم المؤمنُ بَقِيَ بعمله، ومنهم المُجَازِي حتى يُنَجَّى»، [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «ثم يُضْرَبُ بالجسرِ على جهنم وتحلُّ الشفاعةُ، ويقولون: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، قيل: يا رسولَ الله، وما الجسر؟ قال: «دَحْضُ مَزَلَّةٍ، فيه خطاطيفٌ وكلاليبٌ وحَسَكٌ، تكونُ بَنَجْدٍ فيها شُويْكة يُقالُ لها السعدانِ، فيمرُّ المؤمنونَ كطُرْفِ العينِ، وكالبرقِ، وكالريحِ، وكالطيرِ، وكأجاويد الخيل والركاب.. فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم. حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحدٍ بأشدَّ مناشدةً لله في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار.

يقولون: رَبَّنَا كانوا يصومون معنا وَيُصَلُّونَ ويَحْجُّونَ!! فيُقالُ لهم: أخرجوا من عرفتم!! فَتُحَرَّمُ صورهم على النار. فيُخْرِجونَ خَلْقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى رُكْبَتَيْهِ ثم يقولون: رَبَّنَا ما بقي فيها أحدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فيقول: ارجعوا، فَمَنْ وجدتم في قلبه مثقالَ دينارٍ من خير فأخرجه، فيُخْرِجونَ خَلْقاً كثيراً، ثم يقولون: رَبَّنَا لم نذرْ فيها أحدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثم يقول: ارجعوا. فَمَنْ وجدتم في قلبه مثقالَ ذرةٍ من خير فأخرجه، فيُخْرِجونَ خَلْقاً كثيراً. ثم يقولون: رَبَّنَا.. لم نذرْ فيها خيراً».

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تُصَدِّقُونِي بهذا الحديث فاقْرءوا إن شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

«فيقول الله عزَّ وجلَّ: شَفَعْتُ الملائكةُ وشَفَعَ النبيونَ، وشَفَعَ المؤمنونَ، ولم يَبَقْ إلا أرحمُ الراحمينَ، فيقبض قبضةً من النار فيُخْرِجُ منها قوماً لم يعملوا خيراً

قط، قد عادوا حُمَمًا، فيُلقيهم في نهر في أفواه الجنة يُقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل. ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟».

فقالوا: يا رسول الله! كأنك كنتَ ترعى بالبادية.

قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة. هؤلاء عُتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه. ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا. أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضي، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»، [رواه مسلم].

ويبقى مَنْ حبسه القرآن. فَمَنْ هم؟

الَّذِينَ حَبَسَهُمُ الْقُرْآنُ

هُمُ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ.

أولهم: الكفار المشركون، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى عنهم: ﴿وَنَادَوْا بِمَكَائِكُمْ لِيُقَضَّ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، والآيات في خلود الكفار في النار خلودًا لا انقطاع فيه كثيرة جدًا.

وقال ﷺ: «اعلموا أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة»، [رواه مسلم].

ثانيهم: ومن الذين حبسهم القرآن وقضى بخلودهم: قاتل النفس ظلمًا الذي لم يَتُبْ من ذلك، قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ثالثهم: أكل الربا الذي مات غير تائب منه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وهؤلاء لا يحكم فيهم إلا ربُّ العالمين، ولا يخرجون من النار إلا بإذن أحكم الحاكمين. وكم يستمر خلودهم في النار حتى تتداركهم الرحمة، هذا علمه إلى الله سبحانه وتعالى وحده، ولا شك أن خلود هؤلاء العصاة ليس كخلود الكفار، ولكنه بقاءً طويلًا، لأن هذا هو معنى الخلود.

السَّقُوطُ عَنِ الصِّرَاطِ

قَدَّرَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَنْ لَا يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَجَاوِزَ النَّارَ عُبُوراً
فَوْقَ الصِّرَاطِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُذِجِيَ الَّذِينَ أَنْتَقَوْا
وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴾ [مريم : ٧١ ، ٧٢] .

والصراط ما قد علمتَ جسرٌ طويلٌ فوق جهنم ، ويوم يُضْرَبُ الجسرُ على
جهنم ستقوم الأمانة في جانب ، وتقوم الرحمُ في الجانب الآخر إيذاناً وإعلاناً أَنْ مَنْ
أَدَّى الْأَمَانَةَ وَوَصَلَ الرَّحِمَ نَجَا ، وَوَصَلَ الْجَنَّةَ ، وَأَمَّا مَنْ خَانَ الْأَمَانَةَ أَوْ قَطَعَ الرَّحِمَ
خَانَتْهُ رِجَالُهُ فَسَقَطَ ، وَانْقَطَعَ أَنْ يَصَلَ الْجَنَّةَ ، وَهَذَا الَّذِي سَقَطَ فِي النَّارِ ، كَمْ سَبَقَتْهُ
فِي النَّارِ حَتَّى تَدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ ؟ ! إِنْ بَقِيَ يَوْماً وَاحِداً فَقَدْ بَقِيَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَإِنْ بَقِيَ
نِصْفَ يَوْمٍ فَخَمْسَمِائَةَ عَامٍ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَتَجْلِبُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ
مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] .

لَحْظَةٌ وَاحِدَةٌ فِي النَّارِ تُنْسِي الْمَعَذِبَ كُلَّ نَعِيمٍ رَأَاهُ

وَإِنْ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي النَّارِ ، بَلْ غَمْسَةً وَاحِدَةً تُنْسِيكَ كُلَّ نَعِيمٍ تَنَعَّمْتَ بِهِ فِي
الْأَرْضِ . قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
فَيُصْبَغُ فِي جَهَنَّمَ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : يَا بَنَیْ آدَمَ ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ
قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ،
فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً ، فَيُقَالُ لَهُ : يَا بَنَیْ آدَمَ ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ
قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ . مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ » .

وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ

قُلْ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى مَعَاصِيهِمْ ، كَأَنهَا ذَبَابٌ وَقَعَ عَلَى أَنْفِ
أَحَدِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ لَذَبَّهُ وَطَرَدَهُ . . هَلْ سَمِعْتَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « وَفُتِّتْ عَلَى
بَابِ النَّارِ ، فَإِذَا عَامَةٌ مِنْ دَخَلِهَا النِّسَاءُ » ، [رواه مسلم] .

وَقَوْلُهُ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ ، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » . فَقُلْنَ :
وَيْمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتٍ
عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ » . قُلْنَ : وَمَا نَقِصَانُ دِينِنَا وَعَقْلُنَا يَا
رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ ﷺ : « أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ ؟ » قُلْنَ : بَلَى . قَالَ :

« فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟ ». قُلْنَ: بلى. قال: « فذلك من نقصان دينها »، [رواه البخاري].

أليس إكثار اللعن من صغار الذنوب، وأليس كفران نعمة الزوج أن تقول: ما رأيت منك خيراً قط!! وأليس كَوْنُ المرأة تستطيع أن تُمِيلَ الرجل الحازم وتفتنه أن يقوم بواجب، أو أن يفعل محرماً كذلك.. فإذا كانت النساء يدخلن النار في مثل هذه المعاصي.. ولا تدرك رحمة الله مَنْ تلبّست بمثل هذه المعاصي إلا بعد دخول النار، فهل يأمن أحدٌ بعد ذلك أن يؤاخذهُ الله بالذنب. فإن المرأة في أساس الخلق أقلُّ من الرجل عقلاً وحكمة، تُعَذَّبُ في النار بمثل هذه الذنوب.

فكيف بمن يرتكب الكبائر ولا يتوب، ومن يفعل ما يظنه من الصغائر ولا يرعوي!! ومن يظن أنه ناجٍ من أول وهلة بتصديق القلب فقط دون إسلام الجوارح وإيمان القلب.

بعد تلك الرحلة الشاقة العسيرة (عبور الجسر الصراط) وخلوص مَنْ خَلَصَ من النار من عُصاة المؤمنين. تبقى المقاصّة بين المؤمنين، وتصفية ما بقي من حساب بعضهم على بعض.

فقد قال رسول الله ﷺ: « يخلص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصر لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقِّوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدُهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا ».

وهذا الحبس على هذه القنطرة بين النار والجنة قد يطول ببعض العصاة.. فكَمْ لكثير من أهل الإيمان حقَّ على إخوانه المؤمنين قد هضموه، وعرض قد هتكوه، ومالٍ قد سلبوه، وكم يقع من الظلم بين المسلمين.

يقف المؤمنون على أبواب الجنة التي لم تُفتح بعد، ولا تُفتح حتى يأتي من أعلى الله منزلته في الدنيا والآخرة، ومن جعله سيداً للناس أجمعين. وهل يدخل المؤمنون الجنة إلا أن يدخل سيدهم وإمامهم.

يأتي رسول الله محمد بن عبد الله، أكرم العباد على الله، فيكون أول مَنْ يطرق باب الجنة والناس ينظرون، والمؤمنون ينتظرون، وينادي رضوان خازنها من داخلها: « بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك » [رواه مسلم].

قال ﷺ: « أنا أول شفيع في الجنة » [رواه مسلم]، وقال: « أنا أول مَنْ يأخذ بحلق باب الجنة فأقعقها » [رواه أحمد والترمذي وصححه شيخنا الألباني].

وتفتح الجنة أبوابها الثمانية، ما بين مصراعي الباب الواحد ما بين مكة وهَجَر (البحرين)، ولكل باب اسمٌ مخصوص، باسم عبادة من العبادات: باب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الريان (باب الصوم)، وباب الجهاد، وباب برِّ الوالدين.

ويُصنّف أهل الإيمان بحسب درجاتهم في العبادة، وينادي الملائكة الذين اصطفوا على باب الجنة كلَّ أهل باب ليدخلوا من بابهم. . . وهناك مَنْ يُكرَّم من أهل الإيمان فيناديه ملائكة كل باب، لأنه كان من أهل هذه العبادات جميعاً، فقد كان من السابقين في كل أبواب الخير، بارّاً بوالديه.

قال ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة»، [رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم]، سابقاً في الصلاة، وسابقاً في الصوم، وسابقاً في الزكاة. . . ويدخل الفقراء أولاً!! ويُحبَس أغنياء المؤمنين!! (يُحبَسون نصفَ يوم. . . خمسمائة عام).

قال ﷺ: «قُمْتُ على باب الجنة، فإذا عامّةٌ من دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجَدِّ (أي: الحظ والنصيب الوافر في الدنيا) مَحْبُوسُونَ، إلا أصحاب النار، فقد أُمِرَ بهم إلى النار، وقُمْتُ على باب النار، فإذا عامّةٌ من دخلها النساء»، [رواه أحمد البخاري].

وقال ﷺ: «أبشروا يا فقراء المهاجرين. . . تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم»، [رواه البخاري].

وإذا دخل أهل الجنة الجنة، ذهب كلُّ إلى منزله دون مُرشد أو قائد يقوده، أو مُعرِّف يُعرِّفه منزله. . . قال ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، لأحدّهم أهدى بمنزله في الجنة، منه بمنزله كان في الدنيا»، [رواه البخاري].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

وقد رأى النبي ﷺ النارَ رَأَى العَيْنَ، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولَبكيتم كثيراً»، [رواه البخاري].

وكان ﷺ إذا خطب عن الجنة والنار احمرَّ وجهه كثيراً، واشتدَّ غضبه وعلا صوته، كأنه مُنذرٌ جيشٍ يقول: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّكُمْ»، [رواه مسلم].

وكان ﷺ إذا سمع كلمةً يقولها صحابيٌّ من كلمات الطمأنينة والثقة بالجنة، لمن عُرِفَ صلاحه. . . يقول: «والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي»، [رواه البخاري].

ففي البخاري أن أمَّ العلاء امرأة من نساء الأنصار بايعت النبي ﷺ أخبرته أن

عثمانَ بنَ مظعونٍ طَارَ لهم في السُّكْنَى حين اقترعتْ الأنصار على سُكْنَى المهاجرين. قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا، فمَرَضَتْهُ حتى تُوْفِّي، وجعلناه في أثوابه، فدخل علينا النبي ﷺ فقلتُ: رحمةُ الله عليك أبا السائب!! شهادتي عليك: لقد أكرمك الله!!.

فقال النبي ﷺ: «وما يُدريك أن الله أكرمهُ؟» قلت: لا أدري.. بأبي وأمي. يا رسول الله. فمن؟ قال: «أما هو فقد جاءه والله اليقين!! والله إنني لأرجو له الخير، وما أدري والله، وأنا رسولُ الله ما يُفعلُ بي؟!»، قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده!! قالتُ: فأحزنني ذلك فَمِئْتُ، فرأيتُ لعثمانَ عيناً تجري، فجئتُ رسول الله ﷺ وأخبرتهُ. فقال: «ذلك عمله».

وأقول: فهل بعد ذلك يطمئن مؤمنٌ إلى عمله؟ وينام قريح العين، ولم يعلم منزله في الجنة أو في النار؟

فعلى مَنْ كانت لأخيه عنده مظلمةٌ من عَرَضٍ أو مال، فَلْيَتَحَلَّه اليوم، قبل أن يُؤَخَذَ منه يومٌ لا دينار ولا درهم، فإن كان له عملٌ صالحٌ، أخذ بقدر مَظْلَمَتِهِ وإن لم يكن له عملٌ أَخَذَ من سيئات صاحبه، فَجُعِلَتْ عليه»، [رواه البخاري].

اللَّهُمَّ.. إنني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العُليا، ورحمتك التي وسعت كل شيء، أسألك بأنك أنت الله ربُّ العالمين، البرُّ الرحيمُ الغفورُ الودودُ، ذو العرش الكريم، أن تتجاوز عن خطيئاتي، وأن تغفرَ لي ذنبي، وأن تجزي كلَّ مؤمن صنعاً إحساناً بإحسانٍ من عندك، وأن تغفرَ لكلِّ مَنْ أَسَاءَ إليَّ، أو ظلمني أيَّ مَظْلَمَةٍ كانت.

اللَّهُمَّ.. تقبَّلْ عملي، إنك أنت السميعُ العليمُ.. ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ، وأن أعملَ صالحاً ترضاه، وأصلحَ في ذريتي إنِّي تُبْتُ إليك، وإني من المسلمين.



اتقاء النار

اتقوا الله تعالى، واتقوا غضبه، واتقوا عذابه وعقابه، فمن أعظم عقوبات الله وعذابه نارُ جهنم، أجارنا الله وإياكم منها، فاتقوا نار جهنم، اتقوها بكل ما تستطيعون، وبكل ما تملكون.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

هل تعلمون ما هي النار؟ هي الدار التي أعدّها الله للكافرين، المتمردين على شرعه، المكذّبين لرسله، وهي عذابه الذي يُعذب به أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، هي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه ولا خسران أعظم منه.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]. ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ففي النار من العذاب والآلام والأحزان ما تعجز عن تسطيره الأقلام، وعن وصفه اللسان، إنها ساءت مستقراً ومقاماً، ﴿هَذَا وَارْتِ لِلظَّالِمِينَ أَشْرَ مَثَابٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [ص: ٥٥، ٥٦].

يقوم على النار ملائكة، خلّفهم عظيم، وبأسهم شديد، لا يعصون الله الذي خلقهم، ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وعدهم تسعة عشر ملكاً، كما قال تعالى: ﴿سَاصِلِيهِ سَقَرٌ * وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ * لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ * لَوْ ائْتَى النَّبِيُّ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦-٣٠].

النار شاسعة واسعة، بعيد قعرها، مترامية أطرافها، الذين يدخلونها أعداد لا تُحصى، يكون ضرسُ الواحد منهم في النار مثل جبل أحد، وما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام. . ومع ذلك فإنها تستوعب هذه الأعداد الهائلة التي وُجِدَتْ على امتداد الحياة الدنيا من الكفرة والمجرمين، ويبقى فيها مُتسع لغيرهم.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزال

جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العِزة فيها قدمه، وينزوي بعضها إلى بعض، فتقول: قط قط، بعزتكم وكرمكم».

ومما يدلُّ على بُعْد قَعْرِهَا أَنَّ الحجر كما أخبر الرسول ﷺ كما في صحيح مسلم، أنه يهوي سبعين سنة، حتى يصل إلى قَعْرِهَا، يُؤْتَى بهنَّ سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَكٍ يجزؤونها، فعِظْ هذه النار احتاج لهذا العدد الهائل من الملائكة الأشداء الأقوياء، الذين لا يعلم مدى قوتهم إلا الله.

وللنار سبعة أبواب، وإنَّ جهنم لموعدهم أجمعين، لكل باب منهم جزء مقسوم، قال ابن كثير: أي قد كُتِبَ لكل باب منها جزء، من أتباع إبليس، يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكلُّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقر في دَرَكٍ بحسب عمله.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحِتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

ومن تأمل القرآن الكريم علم أن نار جهنم تتكلم وتبصر، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج يوم القيامة عَنَقُ من النار، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، تقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمُصَوِّرِينَ»، [رواه الترمذي].

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة تقرر حقيقة خطيرة مهمة، إذا لم يحسب لها الإنسان حساباً دقيقاً، فقد يكون من الخاسرين، هذه الحقيقة هو أن الكثرة من بني آدم يدخل النار، والقلة تدخل الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

والسبب في ذلك اتباع الشهوات، ذلك أن حبَّ الشهوات مغروس في أعماق النفس الإنسانية، وكثير من الناس يريد الوصول إلى هذه الشهوات، بالطريقة التي تهواها نفسه ويحبها قلبه، ولا يراعي في ذلك شرع الله.

يقول ﷺ: «حُقَّتْ النارُ بالشهوات، وحُقَّتْ الجنةُ بالمكاره». فاتقوا الله،

وخافوا على أنفسهم من النار، فلا تعرضوا أنفسكم لعذاب الله وسخطه، والسبب شهواتكم.

وقد تواعد الحق سبحانه أصحاب الذنوب والآثام بالعذاب في النار، من هذه الذنوب ما يؤدي بصاحبه للخلود في النار.

أولها: وفي مقدمتها: **الكفر والشرك** بالله جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال جلّ وعلا: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال عن الشرك: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومما تواعد صاحبه بالنار **النفاق**، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

ومن الذنوب الموجبة للنار **الكبر**، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار».

ومن الذنوب والكبائر التي تواعد صاحبها بالنار، وهي بليّة هذا الزمان ومصيبتها العظمى **الربا**. قال الله تعالى في الذين يأكلونه بعد أن بلغهم تحريم الله له: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠، ١٣١].

ومن الذنوب أيضاً: **أكل أموال الناس بالباطل**، قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠].

ومن الذنوب **منع الزكاة**، يقول الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزِرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

ومما قد يُدخِل النار **الغفلة عن الآخرة**، والرضا والاطمئنان بالدنيا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَا لَهُمْ أُنَارٌ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

ويقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ومما توعّد صاحبه بالنار **الركون والميل إلى الظلمة**:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَائٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومن الذنوب التي توعّد صاحبه بالنار **الإجرام** بكل صوره وأشكاله، يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْنَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُجْرِمِينَ النَّارُ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].

فليفكر كل مجرم في حاله، وليتذكّر هذه الآيات، خصوصاً إذا كان إجرامه في حق غيره.

ومما يتوعّد صاحبه بالنار، **استبدال نعمة الله بالكفر**، بل وإلزام القوم والناس بذلك، قال تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أندَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٣٠].

ومما قد يُوجب النار **الفسق**، بكل أنواعه ودرجاته:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِينَ * أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨-٢٠].

ومما توعّد صاحبه بالنار **معصية الله ورسوله**، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ومما تُوعَدُ صاحبه بالنار - والعياذ بالله - **إضاعة الصلوات** وعدم الاهتمام بها، وهذا لا يكون إلا عن طريق اتباع الشهوات، ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ومن الذنوب التي يستحق فاعلها النار، الذي يقطع شجرة السدر، الذي يستظل به الناس، عن عبد الله بن حبيش قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سَدْرَةَ، صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ»، [رواه أبو داود].

وعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِينَ يَقْطَعُونَ السَّدْرَ يُصْبَوْنَ فِي النَّارِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ صَبًّا»، هذا الذي يقطع ظل شجرة ينتفع الناس بها، فكيف بالذي يقطع ظل الشريعة؟

ومن الأمور أيضاً المُتَوَعَّدُ صاحبها بأن يُعَذَّبَ بسببها في نار جهنم، وهذا خاص بطلاب العلم، وهو **عدم الإخلاص في طلب العلم**.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمْهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» - يعني ريحها، [رواه أبو داود والحاكم].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِنُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا تُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيِّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ»، [رواه ابن ماجه وابن حبان].

درکات العذاب في النار

فأهل النار ليسوا على درجة واحدة من العذاب، فهم يتفاوتون، وكُلٌّ بحسب ما قَدَّمَ من الأعمال. يقول عليه الصلاة والسلام، فيما رواه مسلم في صحيحه، فقال في أهل النار: «إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى تَرْقُوتِهِ». فليس كلُّ أحد يُعَذَّبُ كالآخر، وأيضاً فَصُورُ العذاب تختلف.

فمن المعذَّبين في جهنم - أجارنا الله وإياكم منها - مَنْ يُحْرَقُ جِلْدُهُ، وكلما احترق بُدِّلَ بجِلْدٍ غَيْرِهِ ليحترق من جديد، وهكذا دواليك. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ومن الناس مَنْ يُصَبُّ الحميمُ فوق رأسه، والحميمُ هو ذلك الماء الذي انتهى

حَرَّه، فَلَشْدَةً حَرَّه تَذُوبُ أَمْعَاؤِهِ، ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

ومن الناس مَنْ يَأْتِيهِ الْعَذَابُ عَنْ طَرِيقٍ وَجْهَهُ، وَأَكْرَمَ مَا فِي الْإِنْسَانِ وَجْهَهُ، لِذَلِكَ نَهَانَا الرَّسُولُ ﷺ عَنْ ضَرْبِ الْوَجْهِ، وَمَنْ إِهَانَةُ اللَّهِ لِأَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، عَلَى وَجْهِهِمْ عُمِيًّا وَصُمًّا وَبُكْمًا، يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيُحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وَيُلْقَوْنَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالْسَّيِّئَةِ فُكِّتْ وَجْوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ثُمَّ إِنْ النَّارُ تَلْفَحُ وَجْوهَهُمْ، وَتَغْشَاهَا أَبَدًا، لَا يَجِدُونَ حَائِلًا يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وَجْهِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿تَلْفَحُ وَجْوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُوا عَلَيَّكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤، ١٠٥].

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَغْشَى وَجْوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وَيَقُولُ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

وَلَوْ تَأَمَّلَ الْعَبْدُ هَذَا الْمَنْظَرَ الَّذِي تَقْشَعِرُ لَهُوْلُهُ الْأَبْدَانُ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وَجْوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ ثَقُلَ اللَّحْمُ عَلَى النَّارِ، كَذَلِكَ ثَقُلَ وَجْوهَهُمْ فِي النَّارِ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُسْحَبُ فِي النَّارِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].

وَالَّذِي يُزِيدُ فِي الْعَذَابِ أَنَّهُمْ حَالُ سَحْبِهِمْ فِي النَّارِ، يَكُونُونَ مُقِيدِينَ بِالْقِيُودِ وَالْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ، يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ ذَلِكَ: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَسُودُ وَجْهَهُ فِي النَّارِ، بِفَعْلِهِ السَّيِّئَاتِ فِي الدُّنْيَا: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا

السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[يونس : ٢٧] .

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] .

ومن عجائب كلمة ﴿اتَّقُوا﴾ أنها تأتي في أشياء يبدو أنها متناقضة، إنما هي ملتقية: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولم يقل هنا: اتقوا النار كما قال في آية أخرى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] . إذن: فكيف يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ويقول: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]؟ لأن معنى ﴿فَاتَّقُوا﴾ أي: اجعلوا وقاية بينكم وبين ربكم .

كيف نجعل وقاية بيننا وبين ربنا مع أن المطلوب منا إيمانياً أن نلتحم بمنهج الله لنكون دائماً في معية الله؟ نقول: الله - سبحانه - له صفات جلال ك: القهار، والمنتقم، والجبار، وذي الطول، وشديد العقاب؛ فهو يطلب من عبده المؤمن أن يجعل بينه وبين صفات جلاله وقاية، فالنار جُندٌ من جنود صفات الجلال .

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني: اجعلوا وقاية بينكم وبين صفات الجلال التي من جنودها النار. إذن: فـ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ مثل: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: اجعلوا وقاية بينكم وبين النار .

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] .

الحق - سبحانه - يريد هنا أن يلفتنا إلى عجز هؤلاء الكفار، فهم بحثوا عن أعذار، ليبرروا بها عدم إيمانهم، وتظاهروا بأنهم يشكون في القرآن الكريم .

يقول لهم: لو كانت لكم قدرة وذاتية فعلاً، فامنعوا أنفسكم من دخول النار وهذا وعيدٌ من الله، لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا ولم يختاروا قهراً، بل اختاروا عدم الإيمان بمشيئة الاختيار التي أعطاه الله لهم . ولكن هناك وقت ليس فيه اختيار وهو الآخرة، فحاولوا أن تتقوا في الآخرة عذاب النار يوم القيامة، ولكن لن يكون لأحد اختيار .

فأله - سبحانه وتعالى - يقول في ذلك اليوم: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] .

ويقول جلّ جلاله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩].

فإرادتكم التي منعتكم من الإيمان.. لن تفيكم يومئذ من عذاب النار، وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

لماذا هم وما يعبدون؟ لأن العابد يرتجي نفع المعبود. فكأنهما عندما يرى كلّ منهم الآخر في العذاب تكون الحسرة أشدّ؛ ولذلك فإن الحجارة والأصنام التي يعبدونها ستكون معهم في النار يوم القيامة، وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام؛ لأنها خلقت مقهور لله مُسَبَّح له، ولكن هذه الأصنام والأحجار تكون راضية وهي تحرق الذين كفروا بالله. وتقول:

عَبُدُونَا وَنَحْنُ أَعْبُدُ لِلَّهِ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] الله - سبحانه وتعالى - يخبرهم وهم في الدنيا أن النار أُعِدَّتْ للكافرين. وقوله تعالى عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن، وإرهاب غاية الإرهاب للكافر... وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ معناها أنها موجودة فعلاً، وإن لم نكن نراها. وأنها مخلوقة، وإن كانت محجوبة عنا.

ورسول الله ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ آتِيَكُمْ مِنْهَا بِقِطَافٍ لَفَعَلْتُ». وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً، والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً، وأن الإيمان سيقوده إليها، فإنه يُحسُّ بالسعادة ويشتاق للجنة. فإذا سمع قول الحق - سبحانه وتعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

ساعة تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أن الله - سبحانه وتعالى - سيجعلك في الجنة تأخذ ما كان لغيرك؛ لأن الميراث يأتيك من غيرك، وقد سبق علم الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعاً.

وقبل أن يخلق أعداً لكل واحد من خلقه مقعداً في النار ومقعداً في الجنة، فالذين سيدخلون النار خالدون فيها، مقاعدهم في الجنة ستكون خالية، فيأتي الله - سبحانه وتعالى - فيعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم في الجنة، والحق سبحانه عندما يقول: ﴿أُعِدَّتْ﴾ فهي موجودة فعلاً.



علامات الساعة الصغرى والكبرى

من الحكمة والمنطق قبل أن أتكلّم عن مراحل الساعة أن أتحدث عن علامات الساعة الصغرى والكبرى، بين يدي الساعة، ولا بد أن يُوقِنَ المسلم أن الساعة آتية لا ريبَ فيها، وتعدّد العلامات وتنوع:

أولاً: العلامات الصغرى التي وقعت وانقضت.

ثانياً: العلامات الصغرى التي وقعت ولم تنقض.

ثالثاً: العلامات الصغرى التي لم تقع بعد.

إن الحديث عن اليوم الآخر ليس من باب الترف العلمي أو الذهني، ولا من باب الثقافة الذهنية الباردة التي لا تتعامل إلا مع العقول فحسب، بل إن الإيمان باليوم الآخر ركنٌ من أركان الإيمان بالله جلّ وعلا، لا يصح إيمانُ العبد إلا به أصلاً وابتداءً، كما في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب، وفيه أن جبريل عليه السلام سأل الحبيب المصطفى ﷺ: ما الإيمان؟ فقال الحبيب ﷺ:

«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره».

فلا يستقر الإيمان باليوم الآخر في قلب عبد من العباد إلا إذا وقف على حقيقة هذا اليوم، وعرف أحواله وكُروبه وأهواله، فإذا استقرت حقيقة الإيمان باليوم الآخر في قلب عبد صادق، دفعه هذا العلم بهذا اليوم إلى الاستقامة على منهج الله، وعلى طريق الحبيب رسول الله ﷺ، لأنه سيعلم يقيناً أنه غداً سيقف بين يدي الله جلّ وعلا، ليكلّمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، ليقول له الملك: ﴿أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

قال الله جلّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ يَٰأَنَّا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧].

وإذا كان البشر يرون الساعة بعيدة، فإن خالق البشر يرى الساعة قريبة، قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَزَرَهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ [المعارج: ٦-١٠].

وقال سبحانه: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١].

وقال جلّ وعلا: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١].

وقال سبحانه: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِعْدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

أما عن وقت قيام الساعة، فإن هذا يختص بعلمه الحق سبحانه وتعالى، فلا يعلم وقت قيام الساعة ملكٌ مقربٌ أو نبيٌ مرسل.

قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سبحانه في سورة النازعات: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا * كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْوَىٰ لَهَا لَمَّا يَكُونُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا * ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

فلا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله، فجبريل عليه السلام هو أعلى الملائكة، ومحمد ﷺ هو أعلى الخلق منزلة، مع ذلك جاء جبريل إلى النبي ﷺ سائلاً: متى الساعة؟ فقال المصطفى ﷺ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل!! وهو جبريل، والمسؤول هو البشير النذير، لا يعلمان وقت قيام الساعة... أفيتجرأ عاقل بعد ذلك ليقول بأنه على علم بوقت قيام الساعة.

في صحيح البخاري من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، وتلا النبي ﷺ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وإذا كان الله عز وجل قد أخفى وقت قيام الساعة، فقد أخبر - سبحانه وتعالى - ببعض العلامات والأمارات التي تكون بين يدي الساعة، لينتبه الخلق بالإنابة والتوبة إلى الله جلّ وعلا، وقد سمى القرآن هذه العلامات والأمارات بالأشراط، فقال سبحانه: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ [محمد: ١٨].

أي: فقد جاءت علاماتها وأماراتها، وهذه العلامات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: علامات صغرى وقعت وانتهت.

ثانياً: علامات صغرى وقعت ولم تنقُص وما زالت مستمرة.

ثالثاً: علامات صغرى لم تقع بعد.

أما العلامات الصغرى التي وقعت وانتهت، فأولها بعثة الحبيب المصطفى ﷺ، ففي الصحيحين أنه ﷺ قال: «بُعْتُ أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى»، فبعثة النبي ﷺ علامة صغرى، وموت النبي ﷺ أيضاً، وكلاهما مَضِيَّتَا، كما في صحيح البخاري من حديث عوف بن مالك قال: «اغْدُ ستاً بين يدي الساعة...» وذكر النبي ﷺ أولها موته ﷺ..

ومن هذه العلامات الصغرى أيضاً التي وقعت وانقضت **انشقاق القمر،** قال الحق سبحانه: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقد وردت الأحاديث الكثيرة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، رواها الإمام مسلم في صحيحه، منها حديث أنس رضي الله عنه قال: طلب أهل مكة من رسول الله ﷺ أن يُريَهُمْ آيَةً، فأراهم انشقاق القمر. فقال: «ماذا تريدون؟». قالوا: نريد أن تشق لنا القمر في السماء نصفين.

فسأل الحبيب ﷺ ربه، فاستجاب الله للمصطفى ﷺ، وشق له القمر في السماء نصفين، فقال المصطفى ﷺ: «اشهدوا... اشهدوا». ومع ذلك أنكروا وأعرضوا، وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

ومن هذه العلامات الصغرى أيضاً خروج نار في أرض الحجاز، روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تُضيء أعناق الإبل ببُصْرَى».

وبُصْرَى بلد تسمى حوران في ديار الشام، ولقد وقعت هذه الآية بمثل ما حَدَّثَ الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. قال الإمام القرطبي في التذكرة: ولقد وقعت هذه الآية بمثل ما حَدَّثَ الصادق المصدوق ﷺ، ففي يوم الأربعاء في الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة خرجت نارٌ من أرض الحجاز، كانت لا تمر على جبل إلا ذكته وأذاخته، رآها من أرض الحجاز جميع أهل الشام.

أما العلامات الصغرى التي وقعت وما زالت مستمرة لم تَنْقُصْ بَعْدُ، فقد جاء في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «قام فينا

رسولُ الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدَّث به، حفظه مَنْ حفظه، ونسيه مَنْ نسيه».

وقد أخبر النبي ﷺ بالفتن التي ستقع، وقال - كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «بادرُوا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا».

فهي فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل على الإيمان، فلا يأتي الليل عليه إلا وقد كفر بالرحيم الرحمن! ويمسي على الإيمان، فلا يأتي الصباح عليه إلا وقد كفر بالله عز وجل!!.

ومن الفتن التي يتعرض لها المسلم اليوم فتنة الغربة: فالمسلم الصادق يعيش الآن فتنة قاسية، ألا وهي فتنة الغربة، قال الحبيب ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

فأهل الغربة الآن يفرون بدينهم من الفتن، بل لقد روى الترمذي في سننه أن النبي ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمانٌ، القابضُ فيه على دينه كالقابض على جمر بين يديه».

ومن الفتن التي يتعرض لها المسلم فتنة الشهوات: ففي الصحيحين من حديث المسور بن مخرمة أنه ﷺ قال: قال المصطفى ﷺ: «فوالله، ما الفقر أخشى عليكم، ولكنني أخشى أن تُبْسَطَ عليكم الدنيا، فتنافسوها كما تنافس فيها مَنْ كان قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم».

إذ يرى المسلم واقعَ أمته مرّاً أليماً في الوقت الذي يرى فيه أمَمَ الكفر ودول الكفر قد قفزت قفزات سريعة جداً في عالم الحضارة والرقى والتطور والمدنية. فينظر المسلم الشاب الغيور إلى واقع الأمة، فيرى الأمة ذليلةً كسيرة مبعثرة كالغنم في الليلة الشاتية الممطرة، وتعصف الفتنة بقلبه.

ويتساءل مع نفسه: أهذه هي الأمة التي دستورها هو القرآن ونبیها محمد عليه الصلاة والسلام، وربها هو الرحيم الرحمن، ما الذي بدّلَ عزّها إلى ذلٍّ؟! ما الذي غيّرَ علمها إلى جهل؟! ما الذي حوّلَ قوتها إلى ضعف وهوان؟!.

وهناك فتنة الأولاد، وفتنة الزوجات، قال جلّ وعلا: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْكُمْ أَرْوَاحٌ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَنَصَحُوا وَتَغَفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن فتن كثيرة، هي من أشراط الساعة وعلاماتها، قال المصطفى ﷺ، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه، «إن من أشراط الساعة أن يُرْفَعَ العلمُ، ويظهرَ الجهلُ، ويكثرَ الزُّنا، ويكثرَ شُرْبُ الخمر، ويقلَّ الرجالُ، وتكثرَ النساءُ، حتى يكونَ لخمسين امرأةَ القيمِ الواحد».

بل لقد ورد في سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «يتقارب الزمانُ بين يدي الساعة، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كالיום، ويكون اليوم كاحتراق السعفة». أي: احتراق جريدة من النخيل.

ومن علامات الساعة الصغرى التي وقعت ولم تنقض **إسناد الأمر إلى غير أهله**. ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة: أن أعرابياً دخل على النبي ﷺ وهو يُحَدِّثُ الناسَ، فقال الأعرابي: يا رسول الله، متى الساعة؟ فمضى النبي ﷺ في حديثه، ولم يُجِبِ الأعرابيَّ عن سؤاله، فلما أنهى النبي ﷺ حديثه قال: «أين السائل عن الساعة أنفاً؟». فقال الأعرابي: ها آنذا يا رسول الله. قال: «إذا ضيَّعت الأمانةُ فانتظر الساعة»، فقال الأعرابي الفقيه: وكيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «إذا وُسدَ الأمرُ إلى غير أهله، فانتظر الساعة».

تدبر معي حديث النبي ﷺ من حديث أبي هريرة قال ﷺ: «سيأتي على الناس سنواتٌ خَدَاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادق، ويؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، وينطق فيها الرُّويضة»... قيل: مَن الرُّويضة.. يا رسول الله؟ قال: «الرَّجلُ التافه يتكلم في أمر العامة».

ومن تلك العلامات التي جعلها الحق سبحانه من أشراط الساعة المتحققة الآن تداعي الأمم على أمة الحبيب المحبوب ﷺ، ففي الحديث الذي رواه أبو داود من حديث ثوبان أنه ﷺ قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلةُ إلى قَصْعَتِهَا».

قالوا: أو من قِلَّةِ نحن يومئذٍ يا رسول الله؟

قال ﷺ: «كلا... ولكنكم يومئذٍ كثير، ولكن غثاءَ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلْيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَنْزَعَ المهابةَ من قلوب عدوكم، وَلِيَقْذِفَنَّ في قُلُوبِكُمْ الوَهْنَ».

قيل: وما الوهنُ يا رسول الله؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكرهية الموت».

وهذا واقع نعيش فيه.. واقع تحياه الأمة، فقد تداعت أذلُّ أُمم الأرض من

اليهود، ومن عبَاد البقر، والملحدين على أمة الإسلام في كل مكان، وطمع في الأمة الذليل قبل العزيز، والضعيف قبل القوي، والقاصي قبل الداني، وأصبحت الأمة قصعةً مستباحةً لأمم الأرض.

ومن علامات الساعة وأشراطها أيضاً ما رواه أبو أمامة رضي الله عنه قال: «بين يدي الساعة رجالٌ معهم سياط، كأنها أذنانُ البقر يَغْدُونَ في سَخَطِ الله، ويروحون في غضبِ الله».

ومن حديث أبي هريرة، قال المصطفى ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: رجالٌ معهم سياط كأذنانِ البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهن كأسنمة البُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليُوجد من مسيرة كذا وكذا».

علامات صُغرى لم تقع بعد:

من هذه العلامات التي أخبر عنها النبي ﷺ ولم تقع، **كثرة المال والثروة في أيدي الناس**، حتى أنهم لا يجدون فقيراً يستحق الزكاة، وقد روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المالُ ويفيض، حتى يُخرج الرجلُ زكاةَ ماله فلا يجد أحداً يقبلها».

ومن أهل العلم من قال: إن هذا قد وقع على عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ومن العلامات التي لم تظهر **انحسار الفرات عن جبل من ذهب**، وهو ما أخبر عنه الصادق المصدوق، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفراتُ عن جبل من ذهب، يقتتل الناسُ عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، فيقول كل رجل منهم: لَعَلِّي أكون أنا الذي أنجو».

وفي رواية قال ﷺ: «يوشك الفرات أن يُحسَرَ عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً».

ومن العلامات أيضاً التي لم تظهر بعد: **ظهور المهدي رضي الله عنه**، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو لم يبقَ من الدنيا إلا يومٌ واحدٌ لطوّل الله ذلك اليوم، حتى يبعث الله فيه رجلاً مني - أو من أهل بيتي - يُواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً».

يخرج هذا الرجل، يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين، يملأ الأرض عدلاً
كما ملئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، تُخرج الأرض
نباتها، وتُمطر السماء قَطرَها، ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير: في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافراً،
والسلطان قاهراً، والدين قائماً، والعدد راغماً، والخير في أيامه دائماً.



علامات الساعة الكبرى

والآن حديثنا عن العلامات الكبرى التي ستقع قبل قيام الساعة مباشرة .
وقد ذكر النبي ﷺ هذه العلامات في حديثه الصحيح الذي رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال :
اطلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر، فقال : « ما تذكرون؟ » قلنا : نذكر الساعة . قال :
« إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشر آيات، فذكر : الدخان، والدجال، والداية،
وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة
خسوف : خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك
نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » .

وستقع العلامات الكبرى متتابعة، فهي كحَبَّاتِ الْعُقَدِ، إذا انفطرت منه حبةٌ
تتابعَتْ بقية الحبات، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :
« الأمارات (أي : العلامات الكبرى) خرزات منظومات في سلك، فإنَّ يقطع السلك
يتبع بعضها بعضاً » .

فتنة الدجال أعظم فتنة على الأرض :

والآية العظيمة الأولى التي تُؤذِنُ بتغيُّر الأحوال على الأرض، هو خروج
المسيح الدجال، فهو أعظم فتنة على وجه الأرض، من يوم أن خلق الله آدم إلى
قيام الساعة .

وقد يسأل البعض : لماذا سُمِّيَ الدجال بالمسيح الدجال؟ فالجواب أنه سُمِّيَ
بهذا، لأن عينه ممسوحة، قال المصطفى ﷺ : « الدجال ممسوح العين »، وسُمِّيَ
بالدجال لأنه يغطي الحقَّ بالكذب والباطل، فهذا دجل، فسمي بالدجال .

وفتنة الدجال فتنة عظيمة، ففي صحيح مسلم من حديث عمران بن حصين
وأمر الدجال أمرٌ غيبي، والأمر الغيبي لا يجوز أن نتكلم فيه بشيء من عند أنفسنا،
إنما ننقل عن الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيُّ
يُوحى .

وقد روى أبو أمامة الباهلي أن النبي ﷺ قال: «إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة المسيح الدجال، ولم يبعث الله نبياً إلا وقد أُنذر قومه الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج الدجال وأنا بين أظهركم فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج الدجال من بعدي، فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم».

الوصف الدقيق للدجال:

ولقد وصف النبي ﷺ الدجال وصفاً دقيقاً محكماً، وبَيَّن لنا فتنته بياناً شافياً حتى لا يغتر بالدجال أحد من الموحدين بالله رب العالمين، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً: فحمد الله، وأثنى على الله بما هو أهله... فذكر الدجال فقال: «إني لأُنذركموه، وما من نبي إلا وقد أُنذر قومه الدجال، ولقد أُنذر نوح قومه، ولكن سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، ألا فاعلموا أنه أعور، وأن الله ليس بأعور».

وقد جَلَّ ربنا عن الشبيه... وعن النظير... وعن المثل... لا كُفء له، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شبيه له، ولا زوج له، ولا ولد له:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم قال المصطفى ﷺ: «الدجال ممسوح العين، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مسلم».. وفي رواية حذيفة في صحيح مسلم قال ﷺ: «الدجال، مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب».

لا ينبغي أن نصرف لفظ النبي ﷺ على غير ظاهره، الكتابة على جبين الدجال كتابة حقيقية، لدرجة أنه وردت في رواية في صحيح مسلم قال ﷺ: «الدجال ممسوح العين، مكتوب بين عينيه (ك ف ر) أي كافر». وهو وصف عجيب للدجال من رسول الله ﷺ.

وقد قال الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ: «لأننا أعلم بما مع الدجال من الدجال، معه نهران يجريان: أحدهما رأي العين ماءً أبيض، والآخر رأي العين نارٌ تأجج، فإما أدركن أحد فلَيَأْتِ النهر الذي يراه ناراً، وليغمض، ثم لِيُطَأِطِءَ رأسه فليشرب منه، فإنه ماء بارد».

فلا تخش نار الدجال، فهو دجال يغطي الحق بالكذب والباطل، إن رأيت ناره فاعلم أنها ماء عذب بارد طيب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال

وإنَّ معه ماءً وناراً، فما يراه الناس ماءً فهي نارٌ تحرق، وما يراه الناس ناراً فهو ماء باردٌ عَذْبٌ».

مدة مكوث الدجال في الأرض :

وقد سأل الصحابةُ رسولَ الله ﷺ عن المدة التي سيمكثها الدجال في الأرض، فقال الحبيب ﷺ: «أربعون يوماً، يومٌ كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كجمعة، وسائر أيامه كسائر أيامكم». قلنا: يا رسولَ الله، اليوم الذي كسنة تكفيها فيه صلاةٌ يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»، يعني: صلُّوا الفجر وعدوا الساعات التي كانت قبل ذلك بين الفجر والظهر، وصلُّوا الظهر، وعدوا الساعات التي كانت بين الظهر والعصر وهكذا.

فسأل الصحابةُ رسولَ الله ﷺ: وما سرعته في الأرض؟! قال: «يمكث في الأرض أربعين ليلةً، فيمر على الأرض كلها؟ سرعته كالغيث [أي: المطر] استدبرته الرِّيح». يعني: يمرُّ في كلِّ أرجاء وأنحاء الأرض.

ثم قال الحبيب ﷺ: «يأتي الدجال على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً، وأسبغه ضروعاً، وأمدّه خواصر».

فتفتنة الدجال فتنة رهيبة، تفتن ضعفاء الإيمان، فلو عقل هؤلاء لعلمو أن صفات النقص من أعظم الأدلة على كفره وبطلان ادعاءاته، فالذي يستحق أن يُعبد هو المتصف بكل صفات الكمال والإجلال.

ثم ينطلق الدجال إلى قوم آخرين فيقول لهم: أنا ربكم. فيقولون: لا ويكذبونه. يقول المصطفى ﷺ: «ويمرُّ بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيحاسب النحل، [أي: جماعات النحل]».

وممن يتعرّضون لفتنة الدجال ذلك الشاب الذي ملأ الإيمان قلبه، وأثار بصيرته، يقول النبي ﷺ: «ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزأين، فيمشي الدجال بين القطعتين أمام الناس، ويقول للشاب: قُمْ. فيستوي الشاب حياً بين يديه». يخدع الناس بأنه قادر على كل شيء، مُوهماً إياهم أنه ربُّهم.

وفي رواية أبي سعيد الخدري في صحيح مسلم، يقول المصطفى ﷺ: «فيخرج إليه شابٌ فتلقاه المسالِح، مسالِح الدجال [أي: أتباعه من اليهود الذين يحملون السلاح]، فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: إلى هذا الذي خرج [أي: إلى

الدَّجَالِ]، فيقولون له: أو لا تؤمن بربنا؟ فيقول: ما برَّبنا خفاءً، أي: لو نظرتُ إلى الدَّجَالِ سأعرفه!

فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أو ليس قد نهانا ربنا أن نقتل أحداً دونه، فينطلقون بهذا الرجل المؤمن إلى الدَّجَالِ، فإذا نظر المؤمن إليه قال: أيها الناس! هذا المسيح الدَّجَالِ الذي ذكره لنا رسول الله ﷺ، يقول المصطفى ﷺ: «فَيَأْمُرُ الدَّجَالُ بِهِ فَيُشَبِّحُ، فيقول: خذوه وشجُّوه، فَيُوسِعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْباً، قال: فيقول: أَمَا تَوَّمنُ بي؟ فيقول: أنت المسيحُ الكذاب؟ قال: فَيُؤَمِّرُ بِهِ فَيُنْشَرُ بِالْمَنْشَارِ مِنْ مَفْرَقِهِ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ رَجُلَيْهِ، قال: ثم يمشي الدَّجَالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثم يقول له: قُمْ، فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أَتَوَّمنُ بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيكَ إلا بصيرة؟ قال: ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدَّجَالُ لِيَذْبَحَهُ فَيَجْعَلُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه وَرَجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ بِهِ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ، فقال رسول الله ﷺ: «هذا أعظمُّ الناس شهادةً عند ربِّ العالمين».

ومما ورد عن هذه الفتنة العظيمة ما روته فاطمة بنت قيس الداري رضي الله عنها قالت: سمعتُ منادي الرسول ﷺ ينادي: «الصلاة جامعة، فخرجتُ إلى المسجد، فصليتُ مع النبي ﷺ، وكنتُ في النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى الرسول ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال: «أيها الناسُ ليلزم كلُّ إنسان مُصَلَّاهُ»، ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعْتُكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا إِنِّي وَاللَّهِ مَا جمعْتُكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعْتُكم لأن تميماً الدَّارِيَّ كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحَدَّثني حديثاً وافق الذي كنتُ أحدثكم عن المسيح الدَّجَالِ، حَدَّثني أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَحْمٍ وَجِذَامٍ [قَبِيلَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ مَشْهُورَتَانِ]، فلعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ ثُمَّ أَرْفَوْا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرَبَ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرَبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا جَزِيرَةً، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبَ كَثِيرِ الشَّعْرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ، فَقَالُوا: وَيْلَكَ، مِنْ أَنْتَ؟

قالت: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قالوا: وما الجَسَّاسَةُ، قالت: أيها القوم، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّيْرِ، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فلما سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرَقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَانْطَلَقْنَا سَرْعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطَّ خَلْقًا، وَأَشَدَّهُ وَثَاقًا، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيْلَكَ

ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني: ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا ندري ما قبُله من دُبُرِه من كثرة الشعر. فقلنا: ويملك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل الذي في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكونَ شيطانة.

فقال: أخبروني عن بيسان. قلنا: وعن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا يثمر، قال: أخبروني عن بحيرة طبرية، قلنا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إنَّ ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زغر، قالوا: عن أيِّ شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نبيِّ الأميين، ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنعَ بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على مَنْ يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خيرٌ لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذَنَ لي في الخروج، فسأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطَبِية فهما محرَّمتان عليَّ كلتاها، كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها، وإن على كل ثقب منها ملائكة يحرسونها.

قالت: قال رسول الله ﷺ: وطعن بمخصرته في المنبر «هذه طَبِية.. هذه طَبِية»، يعني: المدينة «ألا هل كنتُ حدثكم عن ذلك؟»، فقال الناس: نعم، قال: «فإنه أعجبني حديث تميم؛ لأنه وافق الذي كنتُ حدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قِبَل المشرق، ما هو؟ من قبل المشرق ما هو؟ وأوماً بيده إلى المشرق»، قالت: فحفظتُ هذا من رسول الله ﷺ.

هل سَيَقْتُل الدَّجَالَ؟! وَمَنْ الذي سَيَقْتُلُه؟

عن أبي أمامة الباهلي أنه ﷺ قال: «بينما إمام المسلمين يُصلي بهم الصبح في بيت المقدس إذ نزل عيسى ابن مريم، فإذا نظر إليه إمام المسلمين عرفه،

فيتقهقر إمام المسلمين لنبي الله عيسى، ليصلي بالمؤمنين من أتباع سيد النبيين محمد، فيأتي عيسى عليه السلام ويضع يده في كتف إمام المسلمين، ويقول: لا، بل تقدم أنت فصل، فالصلاة لك أقيمت، ويصلي نبي الله عيسى خلف إمام المسلمين لله رب العالمين، فإذا ما أنهى إمام المسلمين، قام عيسى وقام خلفه المسلمون.

فإذا فتح عيسى باب بيت المقدس، رأى المسيح الدجال، معه سبعون ألف يهودي معهم السلاح، فإذا نظر الدجال إلى نبي الله عيسى، ذاب كما يذوب الملح في الماء، ثم يهرب، فينطلق عيسى وراءه، فيمسك به عند باب لد في فلسطين، فيقتله نبي الله عيسى، ويستريح الخلق من شر الدجال.

نزل عيسى عليه السلام:

زعم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة أنهم قتلوا عيسى ابن مريم وصلبوه، وزعم النصارى أن عيسى صلب وقُتل ودُفن، وخرج من قبره بعد ثلاثة أيام، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الرب أبيه، وهو ينتظر إلى يوم الخلاص ليقضي بين الأحياء والأموات!

يقول الحق سبحانه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

فبين الله الحق، وكذب اليهود والنصارى، فقال سبحانه: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

قال أهل التفسير: إن الله عز وجل لما أراد أن يرفع نبيه عيسى إلى السماء بعد ما انطلق اليهود لقتله ألقى الله شبه عيسى على يهوذا الأسخريوطي الخائن الذي أخذ اليهود ليدلهم على مكان عيسى، فابتلاه الله، فألقى عليه شبه عيسى فأخذه اليهود فقتلوه وصلبوه، وهذا قول.

والقول الآخر: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما أراد الله أن يرفع عيسى خرج إلى بيت فيه اثنا عشر رجلاً من الحواريين، فقال نبي الله عيسى: إن منكم من سيكفر بي بعد أن آمن بي، ثم قال لهم: أيكم يقبل أن يُلقى عليه شبيه ليقتل مكاني، ليكون معي في درجتي في الجنة، فقام شاب أحدثهم سناً (أصغر الجالسين) فقال له: أنا، فقال: اجلس، فجلس، ثم أعاد عيسى القول مرة ثانية، فقام نفس الشاب، فقال له: اجلس فجلس، ثم أعاد عيسى قوله للمرة الثالثة فقام نفس

﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمُ لِسَاعَةَ﴾ أي: أن نزول عيسى أمانةً وعلامةً على قيام الساعة، فإن نزل فهذه علامة كبرى تدلُّ على قُرب قيام الساعة، وقال الحق سبحانه في الآية التي ذُكرت آنفاً:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: قبل موت عيسى عليه السلام.

وقد بيّنت السُّنَّةُ الصحيحة المتواترة نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض من السماء، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد».

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ليس نبيُّ بيني وبين عيسى ابن مريم، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، إنه رجلٌ مربوعٌ، ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بالسمين ولا بالحنيف، مائلٌ إلى الحمرة والبياض، كأن رأسه يقطر ماءً من غير بلل».

وعن النواس بن سميان أنه ﷺ قال: «ينزل عيسى عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كَفَّيْهِ على أجنحة مَلَكَيْنِ، إذا طأطأ رأسه قَطَرَ، وإذا رفع رأسه تنحدر منه جمان كحبات اللؤلؤ، يتوجه نبيُّ الله عيسى من دمشق إلى بيت المقدس وقد أقيمت الصلاة».

فإذا رأى الإمامُ الفَظَنُ الذَّكِيُّ اللُّبْقُ نبيَّ الله عيسى عرفه وتقهقر للخلف ليتقدم نبيُّ الله عيسى، فيقول له نبيُّ الله: «لك أقيمت»، فإنَّ بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله لهذه الأمة، فيصلِّي نبيُّ الله عيسى خلف إمام المسلمين، فإذا انتهوا من الصلاة انطلق نبيُّ الله عيسى إلى باب بيت المقدس، وأمرهم أن يفتحوا الباب، فإذا فتحوا الباب رأوا الدَّجَالَ خلف الباب، ومعه سبعون ألفاً من اليهود بالسيوف، فإذا نظر الدَّجَالُ إلى نبيِّ الله عيسى ذابَّ كما يذوبُ الملح في الماء، فيريد الدَّجَالُ أن يهرب فيتبعه نبيُّ الله عيسى، ويدركه عند باب لُدَّ مدينة معروفَة الآن بفلسطين فيقتله، ويُرِيحُ الناس من شرِّه».

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «فيهلك في زمان عيسى المملُّ كُلُّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، ويهلك الله المسيح الدَّجَالَ، وتنزل الأُمَّةُ في الأرض حتى ترعى الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئب مع الغنم».

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الدَّيْبَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْكَنُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ورسول الله ﷺ جاء لتصفية الوضع الإيماني في الأرض .

إذن: الذين آمنوا أولاً مع آدم، أو مع الرسل . . الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي وقعت . . ثم الذين تسمَّوا باليهود، والذين تسمَّوا بالنصارى، والذين تسمَّوا بالصابئة . . فالله - تبارك وتعالى - يريد أن يبلغهم: لقد انتهى كل هذا . . فَمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون .

فكأن رسالته - عليه الصلاة والسلام - جاءت لتصفية كل الأديان السابقة . . وكل إنسان في الكون مُطالَب بأن يؤمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - فقد دعي الناس كلهم إلى الإيمان برسالته . . ولو بقي إنسانٌ من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من عهد نوح أو إبراهيم أو هود . . وأولئك الذين نُسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئة .

كل هؤلاء مُطالبون بالإيمان بمحمد ﷺ والتصديق بدين الإسلام . . فالإسلام يمسح العقائد السابقة في الأرض . . ويجعلها مُركزةً في دين واحد . . الذين آمنوا بهذا الدين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] . . والذين لم يؤمنوا لهم خوفٌ وعليهم حزن . . وهذا إعلان بوحدة دين جديد . . ينتظم فيه كلٌّ مَنْ في الأرض إلى أن تقوم الساعة .

أما أولئك الذين ظَلُّوا على ما هم عليه، ولم يؤمنوا بالدين الجديد، لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة . . ولذلك فإن الآية التي تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة . . جاء فيها كلٌّ مَنْ لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام . . بما فيهم المجوس والذين أشركوا .

والحق - تبارك وتعالى - أراد أن يرفع الظنَّ عَمَّنْ تبع ديناً سبق الإسلام، وبقي عليه بعد الإسلام . . هو يظن أن هذا الدين نافعه . . نقول له: إن الحق - سبحانه وتعالى - قد حسم هذه القضية في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

وقوله جلّ جلاله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] .

إذن: التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات في الوجود حُسمت . . فالذي آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة . . والذي لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧] . . إذن: الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم . . والذين هادوا هم أتباع

موسى عليه السلام . . وجاء الاسم من قولهم: ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: عُدْنَا إِلَيْكَ.

والنصارى: جمع نصراني، وهم منسوبون إلى (الناصرة) البلدة التي وُلِدَ فيها عيسى عليه السلام . . أو من قول الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

ترعى الأسود مع الإبل . . والنمور مع البقر . . والذئاب مع الغنم:

قال رسول الله ﷺ: «فيكون الذئب مع الغنم كأنه كلبها، ويمر الوليد على الأسد فلا يضره، وتمر الوليدة على الحية فلا تضرها، رُفِعَ الظلم واستقر الأمن والأمان والرخاء، وزادت البركة حتى تنزل الأمانة في الأرض».

بل في رواية النواس بن سمعان قال ﷺ: «فيقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدِّي بركتك، فيومئذ تَأْكُلُ العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، وبارك في الرسل [البن]، حتى أن اللقحة [الوليدة التي وضعت ولدها] من الإبل لتكفي الفئام من الناس [الجماعة]، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس . . .».

وهكذا تعيش الأرض حالة لا نسيج لها في التاريخ كله، حتى قال المصطفى ﷺ: «طوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح، يُؤذَنُ للسماء في القطر، ويُؤذَنُ للأرض في النبات، حتى إذا بذرت حَبَك على الصفا لنبت، ولا تشاحن، ولا تحاسد، ولا تباغض، حتى يمر الرجل على الأسد ولا يضره، ويطأ على الحية فلا تضره، ولا تشاحن ولا تحاسد ولا تباغض».

الفوائد التي تعود علينا من ذكر علامات الساعة

على أننا لا بدَّ أن نتوقف لنعرف أن للساعة علامات، أنبأنا عنها رسول الله، وقد تحققت العلامات الصغرى التي أنبأنا عنها رسول الله ﷺ كلها . . أما العلامات الكبرى فهي لم تتحقق بعد . . بعض الناس هنا يتساءلون: إذا كان علمُ موعد الساعة لا يفيدنا، فلماذا تحدّث رسول الله ﷺ عن علامات اقتراب الساعة؟

نقول: إن هذه الأحاديث لرسول الله ﷺ لا تعطينا موعد الساعة، فإنها لا تقول لنا: إنه إذا تحقق كذا وكذا فانتظر الساعة بعد مائة عام أو ألف عام . . ولكنها تذكرك لأولئك الذين سيعم الفساد بينهم كلما اقترب موعد الساعة . . تذكرك لهم،

تطالبهم بأن يتنبهوا جيداً إلى أن ما يحدث في الكون هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وامتداد لرسالة رسول الله ﷺ .

حتى إذا قرأناها ورأيناها قد تحققت نقول: صدق رسول الله ﷺ . . . ونذكر المنهج الذي بعث به الله رسوله ﷺ . . . فنسارع باتباع المنهج، وتكون علامات الساعة هذه تذكراً لنا بصدق الرسالة التي بعث بها الرسول الكريم . . . وتكون من المعجزات المستمرة لرسول الله ﷺ .

كلما تحققت نبوءة للنبي ﷺ كانت بمثابة معجزة جديدة لنا، تُثَبِّتُنا على الإيمان كما ثَبَّتَتِ المعجزات التي حدثت في عهد الرسول ﷺ صحابة النبي على الإيمان . فكأن رسالة رسول الله ﷺ متجددة، وليست متجمدة بأشياء رواها تحدث الآن . . . وأشياء رواها ستحدث في المستقبل . . . كلما حدث شيء قلنا: هذا حق . . . ورسول الله حق . . . وكانت لفتة إيمانية تعيد الناس إلى المنهج الذي تركوه بمرور الزمن .

إذن: العلامات الصغرى للقيامة فيها تثبيت للإيمان . . . وفيها إعجاز يُفِيْقُ الناس الذين غفلوا عن منهج الله . . . ولكن ليس فيها ما يمكن منه أن نحدد موعد يوم القيامة . . . ربما يكون الموعد قريباً . . . ولكن القريب عند الله بعيدٌ عندنا، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَيْنَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ٦، ٧] .

إذن: فالقرب والبُعد عند الله مختلفٌ عن مفهومنا . . . الساعة قريبةٌ نعم بعد أن تحققت علاماتها الصغرى، ولكن كم عدد سنوات هذا القرب، لا أحد يدري! .

اختلال الموازين وانقلاب المبادئ

من علامات الساعة الصغرى

لكن ما هي علامات القيامة الصغرى التي تحققت . . . في ملخصها، أو إذا أردنا أن نضعها في إطار عام . . . هي اختلال الموازين وانقلاب المبادئ . . . فبهذا الكون موازين أخلاقية كان من المفروض أن تحكم الحياة بين الناس . . . وكانت هي الطريق السوي الذي لا بد أن يمضي بها هذا الكون ليصلح . . . هذه الموازين والقيم الأخلاقية التي كانت سائدة، تختل وتهتز وتنقلب . . . فيصبح ما هو مُستنكر واقعاً . . . وما هو واقعٌ وحقيقةٌ مستنكراً .

وترى الشخَّ المُطَاعَ بأن كلَّ إنسان لا يعطي ما عنده بل يبخل به . . . وليس

الشُّح هنا شُح المال .. ولكنه شُحُّ في كل شيء .. الصانع لا يعطي صنعته كلَّ علمه وإتقانه .. والأستاذ لا يعطي تلاميذه كلَّ ما يعلم، بل يعطيهم على قَدَر الأجر، فجزء في المدرسة، وجزء في الدرس الخصوصي، وجزء في الدرس الخاص جداً.

يبخل الناس بمالهم، فلا ينفقونه في سبيل الله، ولا يعطونه للفقير والمحتاج .. ويبخل العاملُ بعمله، فتجده يستطيع أن يعمل ولكنه لا يعمل .. ويبخل الموظف بجهده فتجد أنه يستطيع أن ينتج، ولكنه لا ينتج .. وكل عمل يبخل العاملون فيه بجهدهم.

فهناك بُخل من كلِّ ذي قدرة بقدرته، وبُخل من كلِّ ذي علم بعلمه، وبُخل من كلِّ ذي جاه بجاهه. أي: أن الإنسان يكون في مجتمعه مسموع الكلمة مطاع الأمر، ولكنه يرفض أن يستخدم ما وهبه الله له في مساعدة المحتاجين، أو إنصاف المظلومين، أو قضاء الحاجات .. وهو يستطيع أن يفعل ذلك بكلمة واحدة.

ولكن الإنسان يجد أنه يستطيع أن يرفع ظلماً يقع فلا يتحرك ليمحو هذا الظلم، ويجد أنه يستطيع أن يُقرِّ الحق بشهادة يقولها، ولكنه لا يذهب لأداء هذه الشهادة.

كلُّ إنسان يبخل بما عنده .. لتتحد الإنسانية بعد ذلك إلى أسفل السافلين، لأن كل جيل سيأخذ من علم الجيل الذي قبله القشور .. وبهذا تضمحل الحضارات جيلاً بعد جيل .. هذا هو معنى الشح المطاع .. ولعلنا نشهده الآن في الدنيا كلها .. ولعلنا نرى جميعاً أن كلَّ جيل هو أقلُّ عطاءً من الجيل الذي قبله .. ويقلُّ العطاء كلما مضت الأيام.

وهكذا نجد في كل أوجه الحياة شحاً مطاعاً يُبْثِننا عن بداية انحدار الإنسانية للهاوية، بينما المجتمعات التي سبقت كانت قائمة على العطاء بلا حدود، حتى أن الأنصارَ عرضوا على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن نصف أموالهم وزوجاتهم بلا مقابل.

العلامة الثانية لاختلال الميزان هي ضياع الحق .. أو كما يقول رسول الله ﷺ: «إعجاب كلِّ ذي رأي برأيه». وإعجاب الناس بآرائهم هو بداية الخروج من الحق إلى هوى النفس، وكل واحد يقول: هذا رأيي ولا بد أن يُتبع، ويحاول بشتى الطرق أن يزيّن هذا الرأي ولو بالباطل .. وأن يجمع الأدلة عليه، ولو كذباً.

فإذا رأى الحق فإنه ينسى أن الرجوع إلى الحق فضيلة .. ويرفض أن يُهزم،

وَأَنْ يُؤْخَذَ بِغَيْرِ رَأْيِهِ . . . فَكَأَنَّ النَّاسَ قَدْ وَضَعُوا أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ الْحَقِّ . . . بَيْنَمَا الْحَقُّ هُوَ الَّذِي كَانَ يَجِبُ أَنْ يَسُودَ الْجَمِيعَ ، وَأَنْ يَخْضَعَ لَهُ النَّاسُ .

ولكن الدنيا كلها تتفنن في الخداع ، وكل صاحب رأي يُحاول أن يحقق غايته بأيّ طريق . . . بالضلال والإضلال . . . وهكذا يختل ميزان الدنيا لأنه مُقَامٌ على الحق . . . ويصبح الحق ضائعاً لا صاحب له . . . لأنَّ كُلَّ صاحب رأي مُعْتَزٌّ برأيه ، بصرف النظر عن الحق . . . وهذا ما نجده الآن في الدنيا . . . فالناس يحاولون أن يفعلوا أشياء تُخَلِدُ أَسْمَاءَهُمْ . . . أو ليقال إنها فعلتْ دون أن يكلف الإنسان نفسه أن يسألَ : أين الحق وأين الباطل من كل ما يجري؟

نأتي بعد ذلك إلى علامة أخرى من علامات اختلال الميزان ، وهي إعطاء الشيء لغير أهله . . . والدنيا كلها قائمة ، والحياة كلها تقدمتْ بأن يُعْطَى الشيء لأهله . . . فتُعْطَى قضايا العلم للعلماء . . . وتُعْطَى قضايا الاختراعات للباحثين والمخترعين . . . ويُعْطَى القضاء مثلاً لمن درسوا قوانين الله وشرعه . . . ولكن العقل البشري عند اقتراب الساعة لا يُعْطِي الشيء لأهله .

فإذا بدأنا بالقضية الكبرى ، وهي قضية خَلْقِ الحياة والكون ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق . . . وهو الذي أخبرنا بأنه خلق . . . ولم يخبرنا أحد ، ولا يجرؤ أحد أن يدَّعي أنه خلق الكون . . . ومع ذلك يأتي بعض الناس ليقولوا : إن الكون خُلِقَ بالصدفة . . . وأن هناك تفاعلات كذا وكذا هي التي فعلت كذا . . . ونجد نظرية التطور تقول : إن الإنسان أصله قرد . . . مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ، وأخبرنا كيف خلقه .

ولكن في هذه القضية الكونية الكبرى يُنسب الشيء لغير أهله . . . ويفتري الناس على الله ويغرّهم ما كشف الله لهم من قوانين وأسرار في الكون . . . فيظنون أنهم قد أوجدوا هذه القوانين ، وأنهم قد صنعوها بقدرتهم ، وأنها تتصرف وفق إرادتهم ، فتختل الموازين ، ويعبد الإنسان نفسه .

فتأتي إرادة الله - سبحانه وتعالى - لتزيلَ هذا الزيف كله ، ويدّعي الناس للحساب إلى الله . . . فيرون أنهم كانوا عجزاً لا يقدرّون على شيء ، وكانوا خاضعين لا يملكون شيئاً ، ولكن الله هو الذي أعطاهم من قدرته ، ومنحهم من مُلكه ، فإذا بهم يقابلون ذلك بالكفر بدلاً من الشكر .

هذا هو المعنى الواسع لأن يُعْطَى الشيء لغير أهله . . . أي : أن يحسب الإنسان أنه الأصيل في الكون ، وأن كل شيء خاضع له ، وينسى خالقه .

وكلما مرَّ الزمنُ شهدنا ذلك يبرز على الساحة في العالم.. فنجد مَنْ يقول: انتهى عصرُ الدين، وبدأ عصرُ العلم.. كأنما الدينُ والعلمُ متعاندان، بينما الدينُ هو دينُ الله، والعلمُ هو علمُ الله.. وكلاهما مُثَبَّتٌ للإيمان.

ونرى العالم كلما تقدمنا في الزمن يحسب أنه قد استطاع أن يسيطر على الأرض بالعلم، ويُخضعها لإرادته، ويتحكم فيها.. بينما العلم لم يخلق شيئاً، وإنما استخدم المادة التي خلقها الله، والعقل المسخَّر له من الله، واستخدم ما شاء الله من أسرار هذا الكون.

فالذي اخترع الصاروخ مثلاً جاء بالمواد التي خلقها الله، وأوجدها في الأرض ليصنع منها بنية الصاروخ ووقوده.. فهو لم يخلق المادة التي صنع منها جسم الصاروخ، وإنما جاء بها من المناجم التي أوجدها الله في الأرض. قد يكون قد طوّرها وقوّاها بمواد أخرى.. ولكنها كلها جاءت من خلق الله.. مما أودع الله - سبحانه وتعالى - في كونه من نعم وكنوز.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿حَقَّقْ إِذَا أَخَذْتَ الْأَرْضَ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَنَدَرُونَ عَلَيْهِمْ أَتْلَهُمْ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

إِسْنَادُ الْأَمْرِ لغير أهله :

إذا أخذنا هذا الحديث بالمعنى الواسع، وهو أن يُعطى الشيء لغير أهله.. نجد أننا بدلاً من أن نعطي ما في الدنيا لله - سبحانه وتعالى - الخالق والموجد.. نأتي لغير أهل هذا الأمر، وهو الإنسان، فننسبه إليه لغرور التقدم العلمي.. والإنسان غير أهل لذلك.. فهو لا يستطيع أن يُخضع قانوناً واحداً من قوانين هذا الكون لإرادته.. ومع ذلك فهو يظن باطلاً على غير حقيقة أنه قادرٌ على هذا الكون.. وأنه هو الذي أخضع القوانين بالعلم والتكنولوجيا.. حينئذٍ يأتي أمرُ الله ليعلم الناس الحقيقة.

وإذا أخذنا هذا الحديث: «يعطى الشيء لغير أهله» بأنه سيكون هناك حكام وولاة يحاولون الإبقاء على حكمهم، بدلاً يختاروا الناس لكفاءتهم، أو عملهم، أو خبرتهم، ولكنهم يختارونهم من المخلصين لهم بغير علم.. ومن الذين يُطيعونهم بالحق والباطل، ويعطونهم ما هم ليسوا بأهل له.

وهو ما يُعبّر عنه في العصر الحديث بأهل الثقة وأهل الخبرة، وهم يعرفون مَنْ يصلح للعمل، ولكنه مُتمسك بالحق فيبعدونه عنه.. ويضعون فيه أولئك الذين لا يفقهون شيئاً.

وبهذا لا تُنتقى الخبرة السليمة في إدارة العمل، فيصبح الذين يعلمون لا يفعلون شيئاً، والذين لا يعلمون هم الذين يديرون حركة الحياة في الكون كله.

وما دامت المسألة أهل ثقة وأهل خبرة.. تكون حركة إشراف الناس على الحياة مُختلة، فيختل الكون كله.. ورسول الله ﷺ يُنبئنا إلى ذلك في الحديث الشريف حين يقول: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً، فَوَلَّى رَجُلًا، وَهُوَ يَجِدُ مَنْ هُوَ أَصْلَحُ مِنْهُ، فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَخَانَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ».

ويقول ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ أَمَاتُوا الصَّلَاةَ، وَأَضَاعُوا الْأَمَانَةَ، وَأَكَلُوا الرِّبَا، وَاسْتَحْلَوْا الْكَذِبَ، وَبَاعُوا الدِّينَ بِالدُّنْيَا، فَهَذِهِ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ».

والصلاة هي الصلة بين العبد وربّه.. وكل أحكام الدين تُرفع ما عدا الصلاة لأنها الصلة بين العبد وربّه.. فالحج لمن استطاع إليه سبيلاً، فَمَنْ لم يستطع لأنه كان فقيراً يسقط عنه الحج.. وَمَنْ لم يستطع لأنه مريض بمرض مزمن لا يُشْفَى منه سقط عنه الحج.. والزكاة تسقط عَمَّنْ لا يملك إلا قُوَّتُهُ وقُوَّتَ عِيَالِهِ.. والصوم لمن كان في تمام صحته، ولم يَكُنْ مسافراً.

ولكن الصلاة لا تسقط بالمرض، ولا تسقط بالفقر، ولا تسقط بالسفر، فالإنسان يصلي واقفاً، ويصلي قاعداً إذا كان لا يستطيع أن يقف، ويصلي في فراشه إذا كان لا يستطيع أن يغادر الفراش، ويصلي حتى ولو لم يَكُنْ قادراً على أَنْ يُحَرِّكَ يديه وقدميه.. فالصلاة هي أساس حياة المؤمن لا يتركها أبداً.

وقول رسول الله ﷺ: «أَمَاتُوا الصَّلَاةَ»، أي: لم تُعدْ موجودة في حياتهم، فالميت يخرج من الحياة الدنيا، وكذلك الصلاة تخرج من حياة الناس في آخر الزمان، والميت يصبح نَسِيًّا مَنْسِيًّا، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿يَلْتَمِثْنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

وهكذا تُنسى الصلاة في آخر الزمان، ويؤذن الله أكبر، والناس لَاهُونَ في أمور الدنيا فلا يقوم أحد إلى المسجد ليصلي، أو يقوم ليتوضأ ويصلي، بل عندما يؤذن المؤذن للصلاة يكون كأنه ينادي على مَوْتَى، فلا يجيبه أحد.

ضياع الأمانة:

قول رسول الله ﷺ: «وَأَضَاعُوا الْأَمَانَةَ» معناه: أنهم أضاعوا منهج الله، لأن الأمانة هي المنهج الذي حمله الإنسان ليؤديه في الدنيا، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فكأن الناس في آخر الزمان يضيعون منهج الله، وكيف يضيعونه؟ إنه يكون في أيديهم ولكنهم لا يعملون به، وهكذا ضيعوا على أنفسهم ثواب المنهج الذي لو عملوا به لحصلوا على خير الدنيا والآخرة.

فكأن الله - سبحانه وتعالى - قد أعطاهم شيئاً ثميناً وهو منهج السماء، وهو القرآن الكريم فأضاعوه، أي: وضعوه في مكان بعيد عن حياتهم ولم يلتفتوا إليه، ولم يحاولوا أن يبحثوا عمّا فيه من كنوز ومن علم.. هذه واحدة.

والثانية أنهم أهملوا الأخذ به.. فبدلاً من أن يتبعوا التشريعات التي جاء بها الله ذهبوا ليُقننوا لأنفسهم، وكأنما قوانين البشر هي أعلى من قوانين الله، ولذلك ترك الإنسان المنهج الذي أعطاه الله إياه وانطلق يُشرع لنفسه.. وسمعنا عن القانون الروماني، والقانون الفرنسي، والقانون الإنجليزي إلى آخر هذه القوانين.. كل قانون منها يتبع هوى النفس، وكل قانون منها وُضع ليميز طبقة عن طبقة، ويميز أفراداً عن أفراد.

ولذلك أعطى الله - سبحانه وتعالى - لخلق القانون الذي فيه العدل بلا هوى، والحق بلا غرض، فأضاعوه وأخذوا يبحثون عن قوانين البشر.. يضعونها.. فإذا العيوب تظهر فيعدلون ويبدلون فيها، حتى يصبح القانون غارقاً في التعديلات كالثوب المهلهل المُرَقَّع لا يصلح لشيء.

«وأضاعوا الأمانة» أي: جعلوا الدين في خدمة الدنيا، بينما الدين هو السيد، وكل ما في الدنيا يجب أن يخدمه، ففسروا دين الله بغير ما قاله، وأصدروا الفتاوى ليُحلوا ما حرم الله، ويُحرّموا ما أحله خدمةً لأُمور دنياهم، وتقرباً منهم لذوي النفوذ، فأضاعوا عدل الدين، وأضاعوا حكمته، وأضاعوا كل شيء يمكن أن يعطي الإنسان الحياة الآمنة المستقرة.

إذا حدث هذا كله فاعلم أنه من علامات الساعة.

استحلال الكذب:

أما قول رسول الله ﷺ: «واستحلوا الكذب»، فمعنى ذلك أن الكذب قد أصبح حلالاً يتعامل به كل الناس، وأصبح مقبولاً في المجتمع، لا ينفر منه ولا يستنكره أحد.

والكذب هو انفصال الكلام عن الواقع . فأنت إذا قلتَ : محمد عندي ولم يكنْ عندك فقد انفصل كلامك عن الواقع الحقيقي ، ولذلك يقال : كذب .

واستحلال الكذب معناه أن القول قد انفصل عن الفعل في حياة المجتمع ، فيصبح المجتمع ، كلامه شيء وفعله شيء آخر ، ويصبح كلام الناس غير أفعالهم ، فما يقوله الناس شيء ، وما يفعلونه شيء آخر تماماً .

تجد إنساناً يحدثك عن الأمانة ، فإذا ائتمنته خانك ، وإنسان يحدثك عن الذمة والشرف ، فإذا فعل كان لا ذمة له ، ولا شرفَ عنده . . وإنسان يحدثك عن المال الحرام حديثاً مستفيضاً ، فإذا أتيحت له الفرصة مدَّ يده إلى المال الحرام ، وفي هذه الحالة ينفصل واقع الحياة عن أولئك الذين يعيشون فيها .

والإنسان لا يكذب إلا إذا كان يريد أن يُخفي خطيئة ، فإذا رأى إنساناً امرأة معك وسألك عَمَّنْ معك ، فإن كانت زوجتك فإنك تقول : زوجتي . أما إذا كانت زوجة غيرك ، فإنك تحاول أن تخفي هذه الخطيئة بالكذب ، وإذا كنت تحصي مالاً حلالاً ، ودخل عليك إنسان وسألك عن هذا المال تقول بلا تردد ولا خوف : هو مالي . فإذا كان مالاً حراماً حاولتَ أن تكذب لتخفيَ هذه الخطيئة .

وهكذا نرى أن معنى أن يستحل الناس الكذب أن يكون المجتمع مليئاً بالخطايا ، ولذلك يحاول الناس أن يكذبوا لتغطية خطاياهم ، فإذا رأيتَ مجتمعاً يملؤه الكذب فاعلم أنه تملؤه الخطيئة . . وإذا رأيتَ مجتمعاً يعيش بالصدق فاعلم أنه مجتمع خطايا قليلة . ومعنى قول رسول الله ﷺ : « واستحلوا الكذب » أي : أن مجتمعات آخر الزمان ستكون مليئةً بالخطايا التي يخجل منها الناس فيكذبون .

وقول رسول الله ﷺ : « واستخفوا بالدماء » أي : أن الناس أصبحوا يهدرون دمَ بعضهم البعض باستخفاف غريب ، ودم الإنسان لا يُهدر إلا بحقه ، ولكن في آخر الزمان يُستخف بالدماء ، فيُقتل الأبرياء دون أن يفعلوا شيئاً ، وتُهدم الأماكن فوق رؤوس النساء والأطفال دون ذنب فعلوه .

وهذا ما يحدث الآن ، فقد استخفَّ الناسُ بالدماء ، فترى رجالاً مثلاً يدبر حادثَ نفس بسيارة ملغومة يُقتل فيها العشرات من الأبرياء باستخفاف غريب ، دون أن يشعر بأيِّ ذنب ، وكذلك خطف الرهائن وقتلهم ، ووضع المتفجرات في الأماكن المزدحمة ، ونسف القطارات والسيارات ، وما يحدث في الحروب من استخفاف بالأرواح الأبرياء ، وقصف المدن بالقنابل والصواريخ .

كل هذا يحدث الآن باستخفاف غريب، ولا ضَمِيرَ يستيقظ، ولا إنسانَ يثور على قتل الأبرياء بلا حساب، وهذا هو الاستخفاف بالدماء.

ويقول رسول الله ﷺ: «أن يكون فاسقُ القوم كبيرهم»، فالمفروض أن الكبير - سناً كان أو مقاماً - هو الذي يحافظ على الخُلُق الكريم، وهو الذي ينهى وينهر كل مَنْ يخرج على السلوك القويم، أو يرتكب عملاً سيئاً، فإذا كان الفسق والفجر في الكبير، فمعناه أن الفاحشة تعمُ الجميع، لأن الكبير هو القدوة، وهو المثل.

علامات أخرى:

وأن يَعُقَّ الولدُ أباه، حتى أنه يصبح خيراً للأب أن يربي كلباً صغيراً من أن يربي ولده، لأن الكلب يُخلص لصاحبه، أما الابن فيكون غَيَظَ أبيه وأمه.

وهذا معناه انتشار عقوق الوالدين، وألاً يُوقَرُ الناسُ الكبير، ولا يرحموا الصغير، وأن يلبسوا جلود الضأن وقلوبهم قلوب الذئاب. أي: أنهم يتظاهرون بالمسالمة، بينما هم في داخلهم متوحشون، لا شفقةَ عندهم ولا رحمة.

«وأن يتعالى الحفاة العراة، رعاة الشاة في البنيان». أي: يصبح المالُ في يد مَنْ لا علمَ لهم، يملكون مال الدنيا، وليس عندهم علمٌ لكي يحسنوا استثماره.

ومن علامات الساعة التي أنبأنا بها رسول الله ﷺ نقص الكيل والميزان، ومعناها أن يسود المجتمع أكل حقوق الناس، فالكيل والميزان معناهما حقوق الناس. أي: أن حقوق الناس تضيع.

«وأن يقتل الرجل أباه». أي: تنقطع صلة الأرحام بين الناس.

«وأن يركن العلماء إلى الولاة». أي: يُخضع العلماءُ أحكامَ الدين للدنيا، يريدون بها مالاً أو وظيفة، فيُحلون الحرام ويحرمون الحلال.

«وأن يُؤخذ المالُ بغير حقه» فينتشر المال الحرام حتى تصبح الصفة الغالبة في المجتمع هي أن يحصل الناسُ على المال حراماً بدون عمل، فتكثر السرقة والرشوة والنصب والاختلاس، ويتحايل الناس بالمشروعات الوهمية، ليحصلوا على الأموال بالباطل.

ومن علامات الساعة التي رواها رسول الله ﷺ أن تُقطع الأرحام، وأن يشتكي ذو القرابة لقرابته، فلا يعود عليه ذلك بشيء رغم أنهم يستطيعون أن يفعلوا، وأن يعبد المال فيعصي الناسُ الله في سبيل الحصول على المال الحرام، وأن

تختلط الأمور بين الناس ، فلا يعرف ما هو الحرام وما هو الحلال .
 وأن يظهر البغي والحسد والشح ، وأن يجهر الناس بالفحشاء كأن يرتكب رجل
 أو امرأة فاحشة ، ثم يأتي وسط أصدقائه ويجاهر بها وكأنه يتفاخر بمعصية الله .
 وأن يأكل القوم بالسنتهم كما تأكل البقر . أي : يعيشون على النفاق والرياء
 والكذب ومديح الناس بالباطل ولا يعملون شيئاً .

« وأن يعز الله ثلاثاً : درهماً من حلال ، وعملاً مستفاداً ، وأخاً في الله » . أي :
 يكون من العزيز والنادر أن يكسب الناس مالاً حلالاً ، أو يستفيدوا من علم يُقال لهم
 فيتبعوه ، أو يحب الرجل رجلاً في الله ولله .

ومن علامات الساعة التي أنبأنا عنها رسول الله ﷺ أن تنتشر الخرافات ،
 فيصدق الناس التنجيم وقراءة الطالع بالنجوم ، وأن يمر الرجل على المسجد فلا
 يدخل في قلبه خشوع ، ولا يركع ركعتين ، وأن يكون السلطان والقوة للنساء
 فيحكم الرجال ، ويطيع الرجال النساء في كل الأمور .

وأن تكون قلوب المسلمين قلوب الأعاجم ، وألسنتهم ألسنة العرب . أي :
 أنهم يتكلمون باللغة العربية ، ولكن قلوبهم تهوى وتعشق كل ما هو أجنبي ، فحياة
 الأجانب الأعاجم هي التي تستهويهم ، وهي التي تعجبهم .

« وأن تُزخرف المساجد ، وتُحلّى المصاحف » أي : أن يكون الإيمان ظاهرياً
 فقط دون قلوب تخشع أو أفئدة تخضع . فبدلاً من أن يعمر المسلمون المساجد
 بالصلاة يصنعون فيها الزخرفة ويحلونها بالنقوش ، وبدلاً من أن يقرأ المسلمون
 القرآن يحلون المصاحف بماء الذهب . أي : أن القلوب تكون خاوية خالية من
 الإيمان .

هذه بعض علامات الساعة الصغرى التي أخبر بها النبي ﷺ ، وقد تحققت
 جميعاً ، وما دامت تحققت فهي لا تختفي ، وتزيد ولا تنقص حتى تقوم الساعة .



مشاهد يوم القيامة

عندما تبدأ الحديث عن مشاهد يوم القيامة لا بدّ أن نتعرض إلى ثلاث نقاط :

أولاًها : معنى الموت .

وثانيها : نفخة الصور .

وثالثها : طريقة البعث .

فمع البعث تبدأ أحداث يوم القيامة ، ولكن يسبق هذا الموت ، والحديث عن الموت أو انتهاء الحياة حديثٌ يمكن أن يُلخّص في سطور قليلة ، فالموت خُلِقَ من خَلَقَ الله ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] .

ولعلنا نلاحظ أن الحق - سبحانه وتعالى - قد قدّم الموت في هذه الآية على الحياة ، فقال سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ [الملك : ٢] .

ولنا أن نتساءل : لماذا قدّم الله سبحانه وتعالى الموت على الحياة ؟ فنجد أنه لسببين :

السبب الأول : أنه يسبق الحياة ، فالله - سبحانه وتعالى - يقول : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] ، أي : أن الموت يكون قبل الحياة ، ومن هنا فهو سابق للحياة .

والسبب الثاني : أن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يلفتنا إلى أن الموت حتى إذا تذكرناه سارعنا إلى الخير والإيمان والعمل الصالح ، ولكنه ليس في حاجة لأن يلفتنا إلى الحياة ، فدوافع الحياة متمكنة متأصلة في النفس البشرية .

مَنْ منا إذا جاء أول الشهر ينسى أن يقبض مرتبه . . مَنْ منا إذا أحس بالجوع ينسى أن يأكل لعدة أيام . . مَنْ منا لا يحاول أن يحصل على أكبر حظ من الدنيا . . دوافع الحياة كثيرة وموضوعة في النفس البشرية لتستطيع هذه النفس أن تؤدي مهمتها في الكون ، وهي عمارة الأرض وبناء الحضارة .

ولكننا ونحن نتذكر الحياة في ثانية ننسى دائماً الموت ، وقد تمر سنوات دون

أن نتذكر أننا سنموت ونلاقي الله، بل إننا إذا ذكرنا إنساناً بذلك فإننا نحاول أن نبعد هذه الصورة.. صورة نهاية الحياة ونستعيد منها.

إذن: فنحن محتاجون دائماً لأن يلفتنا الله - سبحانه وتعالى - إلى الحقيقة، فيأتي ذكر الموت أولاً ليلفتنا الله - سبحانه وتعالى - إليه حتى لا نحسب أننا أخذنا الحياة الدنيا اغتصاباً واقتداراً، ولن نخرج منها.

والموت هو انتهاء الإرادة البشرية، فما دُمْتَ حياً فإنك تستطيع أن تفعل كذا ولا تفعل كذا، ويكون لك اختيار وبدائل، ولكن متى جاء الموت انتهى هذا الاختيار تماماً، ولم يعد لك اختيار فيما سيفعل بك، أو سيقع عليك من أحداث من لحظة الموت إلى يوم القيامة، فالإرادة البشرية انتهت مهمتها في اختبارات الدنيا، وما دامت قد انتهت مهمتها فهي الأخرى لم يعد لها وجود.

وهكذا تنتهي إرادتك البشرية، وتنتقل إلى حياة البرزخ التي لا تملك فيها إرادة، ثم يوم القيامة الذي لا تملك فيه إرادة أيضاً، على أننا لا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

ولكن، هل للموت مذاق وطعم يتذوقه الإنسان؟ هل له طعم مثل الطعام مثلاً؟

نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - يستخدم لفظ الذوق، لأنه الإحساس الصارخ في الأشياء الذي يحس بها كيانك كله.. فأنت ترى مثلاً بعينيك، وتسمع بأذنك، وتلمس بيدك، وتشم بأنفك.

ولكن الذوق باللسان هو الشيء الذي يعود بالنفع على هيكل الجسم كله، فيعطيك إحساساً باللذة وجمال الطعم، ويعطي جسدك الطاقة التي يعيش بها، ويعطي الدم الغذاء الذي يحتاج إليه، ويعطي المعدة ما تمتصه للجسم، ويعطيك القدرة على الحركة.

فأنت إذا تناولت الطعام فإنك تعطي لجسدك كل شيء يحتاج إليه، ولا يصل تأثير ذلك إلى جزء معين من الجسد، بل يصل إلى أعضاء الجسد كله، فإذا كان الإنسان بدون طعام فإنه لا يقوى على الحركة، ولا على التفكير، ولا على الكلام، ولا على الرؤية السليمة بالعينين.

وهكذا نرى أن أثر الذوق يصل إلى الجسد كله.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

أي: أن الكفار حين يُعذبون في النار يصل الحريق إلى كل خلية من أجسادهم، كما يصل الطعام إلى كل خلية من خلايا الجسد في الحياة . . والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أي: أن الجوع تمكّن منهم حتى ذاقته كل خلية في الجسم . . أو أن الخوف ملكهم حتى مَسَّ كل خلية من أجسادهم، فارتعدت أيديهم، ولم تكن أقدامهم قادرة على التفكير من شدة الخوف.

إذن: فمعنى الذوق هو أن يحيط الشيء إحاطة كاملة بالإنسان حتى تتأثر به كل خلية في جسده . . وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

أراد الله أن يعطينا بها معنى الإحاطة، فكأن كلَّ خلية من الجسد سيمسها الموت، فالموت لا يؤثر على الحواس فقط أو العقل والقلب فقط، ولكنه يشمل كل خلية في جسد الإنسان له تأثير عليها، وهي تحس به، وتتأثر به.

وهذا هو المعنى الذي قصده الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وبعد الموت تأتي حياة البرزخ بقوانينها، فهي حياة لا زمن فيها، ﴿قَدْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

وضربنا مثلاً لذلك بأصحاب الكهف الذين أماتهم الله ثلاثمائة عام، وعندما بُعِثُوا لم يُحسوا بالزمن: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩].

وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئاً يدل على مرور زمن طويل، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة، ولم يتغير شعرهم مثلاً على البياض؛ لذلك قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، ولو وجدوا أنفسهم شيئاً لُقِّدُوا الزمن المناسب لهذا الشيب.

وهذه وقفة المشدوه حين يسأل عن زمن لا يدري مدته، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَاركَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى عِظَامِكَ

كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿البقرة: ٢٥٩﴾.

لقد حكم على مدة لبثه بيوم أو بعض يوم؛ لأنه وجد نفسه على الحال التي عهد لها لم يتغير منه شيء، فكيف يتأتى الصدق من الحق سبحانه في قوله: ﴿مِائَةً عَامٍ﴾، والصدق في قول العزيز بيوم أو بعض يوم؟

لا شك أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه، ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان والمكان، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم، الباسط له إلى مائة عام.

لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق القولين: ففي طعام العزيز الذي ظل على حاله طازجاً لم يتغير دليلاً على يوم أو بعض يوم، وفي حماره الذي رآه عظماً بالية دليلاً على المائة عام، فسبحان الذي يجمع الشيء وضده في آن واحد.

ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار في هذا الشأن، السؤال هو: كم لبثت؟ فأجاب الرجل: لبثت يوماً أو بعض يوم.

وإجابة الرجل تعني أنه قد تشكك، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أو يكون قد قال ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم في تقدير الزمن.

فهل هو صادق في قوله أو كاذب؟ إنه صادق، لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت، أو قد نام بشعر أسود، وقام بعد ذلك بشعر أشيب، فلو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها، لكنه لم يجد تغيراً.

فماذا كان جواب الحق سبحانه؟ قال تعالى: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. إننا هنا أمام طرفين، ويكاد الأمر أن يصبح لغزاً، وطرف يقول: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ورب يقول: ﴿بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ﴾. ونريد أن نحل هذا اللغز.

إن الحق سبحانه صادق في حدود ما رأى من أحواله. ونريد دليلاً على هذا، ودليلاً على ذلك. نريد دليلاً على صدق العبد في قوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليل اطمئنان لا دليل برهان على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة.

ونقول: إن في القصة ما يؤيد: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وما يؤيد: ﴿بَلْ

لَيْشْتَ مِائَةَ عَامٍ، فقد كان مع الرجل حماره، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين. فقال الحق سبحانه وتعالى: **﴿بَلْ لَيْشْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾**.

وأراد أن يدلل على الصدق في القضيتين معاً، فقال: **﴿فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾**، ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغيرا، وهذا دليل على أنه لم يمكث إلا يوماً أو بعض يوم، وبذلك ثبت صدق الرجل، بقيت قضية: **﴿مِائَةَ عَامٍ﴾**.

فقال الحق: **﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾** وهذا القول يدل على أن هنا شيئاً عجيباً، وأراد الله أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام، ووجد الرجل حماره وقد تحوّل عظاماً مبعثرة، ولا يمكن أن يحدث ذلك في زمن قصير، فإن موت الحمار أمر قد يحدث في يوم.

لكن أن يرمّ جسمه، ثم ينتهي لحمه إلى رماد، ثم تبقى العظام مبعثرة، فتلك قضية تريد زمناً طويلاً لا يتسع له إلا مائة عام، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صدق مرور مائة عام، والنظر إلى الطعام دليل على صدق: **﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾**.

فالقضية إذن قضية عجيبة، وكيف طوي الزمن في مسألة الطعام، وكيف بسط الزمن في مسألة الحمار. إنه سبحانه يظهر لنا أنه هو القابض الباسط، فهو الذي يقبض الزمن في حق شيء، ويبسط الزمن في حق شيء آخر، والشيئان متعاصران معاً. وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية.

وقد قال الحق سبحانه: **﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾**، فمن هم الناس الذين سيجعل الله من قضية الذي مرّ على قرية آية لهم؟ كان لا بد أن يوجد أناس في القصة، لكن القرية خاوية على عروشها، وليس فيها إنسان أو بنيان، أهم الذين كانوا في القرية أم سواهم؟

قال بعض المفسرين هذا، وقال البعض الآخر الرأي المضاد.

وأصدق شيء يمكن أن يتصل بصدق الله في قوله: **﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾** هو قبض الله للزمن في حق شيء، وبسطه في حق شيء آخر.

وعُزَيْر - كما قال جمهرة العلماء - هو الذي مرّ على قرية، وعزير هذا كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة، فلم يحفظ التوراة إلا أربعة: موسى، وعيسى، وعزير، ويوشع، وقد أراه الله العظام، وكيف يُنشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحماً، أي: أراه عملية الإحياء مشهدياً.

وفي هذا إجابة للسؤال: ﴿أَنْ يَحْيِيَ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ والحق يقول: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ تُنْشَرُّهَا﴾، و﴿تُنْشَرُّهَا﴾ أي: نرفعها، ورأى (عزير) كل عظمة في حماره، وهي تُرفع من الأرض، وشاهد كل عظمة تُركب مكانها، وبعد تكوين الهيكل العظمي للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحماً، وبعد ذلك تأتي الحياة.

لقد وجد عزير إجابة في نفسه، ووجد إجابة في الحمار، ومن بعد ذلك تذكر قريته التي خرج منها، وأراد العودة إليها، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام، وكان في تلك القرية مولاة لهم، أي: أمة في أسرته، وكانت هذه الأمة قد عميت وأصبحت مُفعدة.

فلما دخل وقال: أنا العزير. قالت الأمة: ذهب العزير من مائة عام، ولا ندري أين ذهب ولم يعد؟ قال: أنا العزير. قالت: إن للعزير علامة، هذه العلامة أنه مُجاب الدعوة، ولم تنس نفسها.

قالت: فإن كنت العزير فادعُ الله أن يرُدَّ عليَّ بصري، وأن يُخرجني من قعودي هذا. فدعا عزيرُ الله فبرئت، فلما برئت؛ نظرت إليه فوجدته هو العزير فذهبت إلى قومها، وأعلنت أن العزير قد عاد. وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه، فوجده رجلاً قد تجاوز مائة سنة، وكان العزير لا يزال شاباً في سن خمسين سنة.

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلغزاً: وما ابنُ رأى أباه وهو في ضعف عمره؟ والمقصود بهذا اللغز هو العزير الذي أماته الله وهو في الخمسين، ثم أحياه الله في عمره نفسه بعد مائة عام، والتقى العزير بابنه. قال الابن: كنت أسمع أن لأبي علامة بين كتفيه «شامة».

فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة. وثبت أهل القرية من صدق عزير بشيء آخر هو: أن (بختنصر) حينما جاء إلى بيت المقدس وخربها حرق التوراة، إلا أن رجلاً قال: إن أباه قد دفن في مكان ما نسخة من التوراة، فجاءوا بالنسخة، قال العزير: وأنا أحفظها.

وتلا العزيرُ التوراة كما وُجدت في النسخة، فصَدَّقَ القوم أنه العزير، وتعجب الناس وهم يشاهدون ابناً تخطى المائة، وأباً في سن الخمسين. ولذلك يذيل الحق سبحانه الآية بالقول: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ألم يكن قبل ذلك يعلم أن الله على كل شيء قدير؟ نعم.. كان يعلم علم الاستدلال، وهو الآن يعلم علم المشهد، علم

الضرورة، فليس مع العين أين. إذن: فـ: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هي تأكيد وتعريف بقدرة الله على أن ييسط الزمن ويقبضه، وقدرة الله على الإحياء والإماتة، فصار يعلم حقّ اليقين بعد أن كان يعلم علم اليقين.

وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم الحديث عن تعليق الحياة. ومعنى تعليق الحياة يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوي، أي: تنكمش في الشتاء في ذاتها، ولا تبدي حركة، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء، ومدة البيات الشتوي لا تُحتسب من عمر الثعابين، ولذلك يقال: إن ذلك هو عملية تعليق الحياة. وهذه العملية التي قد نفسر بها مسألة أهل الكهف.

فأهل الكهف أيضاً مرّت عليهم العملية نفسها:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسِقَ لُبَّهُمْ قَالَتْ قَائِلُ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

إنهم لم يروا شيئاً قد تغيّر فيهم. . وبعد ذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَلْيَتَوَفَّي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

إن الله حدّد الزمن الذي لبثوه، بينما هم قالوا: إن الزمن هو يوم أو بعض يوم. ومعنى ذلك أنهم عندما ناموا هذا اللون من النوم واستيقظوا وجدوا أنفسهم على حالتهم التي كانت قبل هذا اللون من النوم. إذن: فقد علّق الله حياتهم. ونلاحظ أن كل هذه العملية قد جاءت هنا في قصة العُزَيْر، بعد آية الكرسي التي تصوّر العقيدة الإيمانية:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وتصوّر قضية الحياة وقضية الموت، ونعلم أن إبراهيم عليه السلام حين حاجّه الرجل وقال له: ﴿أَنَا أُحْيَى وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، نقل إبراهيم الحجة إلى الليل والنهار، وطلب منه أن يعكس آية الليل والنهار، فقال للرجل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وحتى لا يظن أحد أن إبراهيم عليه السلام إنما ترك الكلام عن الإحياء والإماتة فراراً من الجدل. ونقل الأمر إلى الشمس، لكن أراد الله أن يأتي بقصة هذا

الإنسان الذي مرَّ على قرية وهي خاوية، فيحدث له كل ما تقدم ليثبت الحقُّ لنا أن قضية الحياة وقضية الموت بيده وحده. وليُخرج الحق سبحانه أمرَ الحياة والموت عن مجال السفسطة الجدلية.

وعرفنا من قبل معنى السفسطة الجدلية حينما تعرَّضنا لقول الذي حَاجَّ إبراهيم في ربه باثنين من المسجونين، وقال: أنا أستطيع أن أقتل واحداً، وأن أترك الثاني بلا قتل.

هذه هي السفسطة: إنه لم يُحيي، بل أبقى حياة. وعرفنا أن الإحياء ضد الإماتة؛ لأن الإماتة هي أن تخرج الروح من الجسد بدون جرح، أو نقض بنية، أو عمل يفعله الإنسان في البدن. أما إذا فعل إنسانُ أيَّ شيء من هذه الأفعال ضد إنسان آخر فلا يقال إنه أماته، بل يُقال لقد قتله. . والموت كما عرفنا غير القتل.

ونأتي بعد ذلك لقصة إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم بعد أن نقل الجدل مع الرجل إلى الشمس، فبُهِتَ الرجل الذي كفر، أما إبراهيم عليه السلام فهو يؤمن بقدرة الله، لكنه يريد أن يعرف الكيفية.

إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ونحن المسلمين لم نشكَّ في هذا الأمر. إذن: فإبراهيم عليه السلام لم يشكَّ من باب أوَّلَى، بدليل منطوق الآية، حين قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُظْمِنَ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

النَّفْخَ فِي الصُّورِ

وهكذا نرى أنه لا زمنَ في حياة البرزخ، وأن الذين يعيشون في البرزخ لا يُحْسِنون بالزمن، يقول الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، وهو يوم القيامة.

والصُّور: هو البوق الذي يُنْفَخ فيه النفخة الأولى والثانية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

أي: نجمعهم ونسوقهم زُرْقًا، والزُرْقَة هي لونهم، كما ترى شخصاً احتقن وجهه، وازرقَّ لونه بسبب شيء تعرَّض له، هذه الزُرْقَة نتيجة لعدم السلام والانسجام

في كيمائية الجسم من الداخل، فهو انفعالٌ داخلي يظهر أثره على البشرة الخارجية، فكان هَؤُلَ القيامة وأحداثها تُحدث لهم هذه الزُرْقَة .

والبعض يفسر: ﴿ زُرْقًا ﴾ أي: غُمَيًّا، ومن الزُرْقَة ما ينشأ عن العمى، ومنها المياه الزرقاء التي تصيب العين، وقد تُسبب العمى .

﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أي: في هذه الحال التي يُخَشَرُونَ فيها زُرْقًا ﴿ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: يُسَرِّونَ الكلام، ويهمس بعضهم إلى بعض، لا يجروا أحد منهم أن يجهر بصوته من هَؤُلَ ما يرى، والخائف حينما يُلاقِي من عدوه ما لا قِبَلَ له به يُخفي صوته، حتى لا ينبهه إلى مكانه .

أو: لأن الأمر مَهُول لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقةً للكلام، فليس في وَسْعه أكثر من الهمس . . فما وجه التخافت؟ وبِمَ يتخافتون؟ يُسِرُّ بعضهم إلى بعض: ﴿ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ .

يقول بعضهم لبعض: ما لبثنا في الدنيا إلا عشرة أيام، ثم يوضح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي، بدليل قوله في الآية بعدها: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٤] .

فانتهت العشرة إلى يوم واحد، ثم ينتهي اليوم إلى ساعة في قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُؤَاخِرَ سَاعَةَ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥] .

فكل ما ينتهي فهو قصير، إذن: أقوال متباينة تميل إلى التقليل؛ كأن الدنيا على سعة عمرها ما هي إلا ساعة: ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

وما هذا التقليل لمدة لبثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم، وقلة الخير الذي قدموه فيها، لقد غفلوا فيها، فخرجوا منها بلا ثمرة؛ لذلك يلتمسون لأنفسهم عذراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسع الأحداث، كأنه لم يَكُنْ لديهم وقت لعمل الخير!! .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٤] .

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ على رسوله ﷺ في الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين في الآخرة، فإذا ما وقعت القيامة جاءت الصورة كما حكاها الله لرسوله هي هي؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شيء علماً .

وهذا القول الذي حكاه القرآن عنهم أمر في اختيارهم، وقد سمعوا ذلك من رسول الله، وبؤسهم ألا يقولوا، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يغيرون منه شيئاً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾.

يعني: أحسنهم حكماً.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ [الزمر: ٦٨].

في هذه الآية ملاحظتان: **الملاحظة الأولى:** أن الله - سبحانه وتعالى - استثنى من الصَّعِقَةِ التي ستحدث في الآخرة، فكأن هناك مَنْ لن تصيبهم الصعقة، وقد قدّم الحق سبحانه النظر في هذه الآية على السمع.

وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن الكريم التي قدّم فيها النظر على السمع، فالله تعالى في كل آيات القرآن كان يأتي بالسمع قبل البصر: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن في هذه الآية وحدها قدّم النظر على السمع.

نقول: إنه بالنسبة للصعقة التي ستصيب الإنسان يوم القيامة، فإن الله - سبحانه وتعالى - كتب على نفسه أن تصيب المخلوقات كلها صعقة واحدة، ولذلك فكل مَنْ أُصيبوا بالصعقة من قبل لن يُصابوا بالصعقة مرة أخرى، لأن المخلوقات لا تجمع بين صعقتين.

فموسى عليه السلام صُعِقَ في الدنيا عندما طلب أن يرى الله جهرًا، مصداقًا لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولذلك فإن موسى لن يُصاب بالصعقة مرة ثانية، وكذلك الجبل الذي تجلّى له الله - سبحانه وتعالى - فأصيب بالصعقة فكان دكًا.

وكذلك أولئك النفر من قوم موسى الذين صُعِقُوا قبل ذلك، وقال عنهم القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وهناك مَنْ أخذتهم الصعقة من قوم عاد وثمود، ولذلك فإن كلَّ من صُعِقُوا لن تصيبهم الصعقة مرة أخرى، وهذا معنى قول الحق سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

على أن ذلك لا يعني أنه ليس لله - سبحانه وتعالى - طلاقة القدرة، فإله له طلاقة قدرة يفعل ما يشاء متى شاء، وطلاقة القدرة في الكون هي التي صنعت المعجزات للأنبياء، فمعجزات الرسل خرقَتْ نواميس الكون، وأبطلت الأسباب، ذلك أن أسباب الدنيا ليست قيداً على خالقها، وهو الله سبحانه وتعالى.

ولذلك، فإن الله جعل للنار خاصية الإحراق، جعلها برزخاً وسلاماً على إبراهيم، وجعل البحر ينشق لموسى، وطلاقة القدرة موجودة في الكون منذ خلق إلى يوم القيامة، فهي التي تُعين المظلوم على الظالم، وتنصر الضعيف على القوي.

لذلك عندما ترى إنساناً يصيح: ربنا كبير. أو: ربنا موجود. فاعلم أنه رأى طلاقة قدرة الله، لأنه لو رأى الأسباب تعطي ما تعجب وما صاح، ولكن لأن الأسباب تعطلت بعدل المسبب، فإنه صاح: ربنا كبير. ربنا كبير.

إذن: فقول الحق فيمن ستصيبهم الصعقة إلا مَنْ شاء الله.. يعني: من أصابته الصعقة من قبل.. ومَنْ يشاء الله - سبحانه وتعالى - بطلاقة قدرته ألا تصيبه الصعقة.

أما استخدام (ينظرون) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، لأنها الحالة الوحيدة التي سنرى فيها قبل أن نسمع عند البعث من القبور.. يخرج الناس فيرون أولاً الأرض، وهي تتشقق والناس يخرجون منها.

ولكن العكس يحدث في كل الأحداث الأخرى، فعندما يخرج الطفل من بطن أمه فإنه يظل عدة أيام لا يرى، حتى أنك إذا قرّبت إصبعك من عينه لا تهتز جفناه، ولكنك إذا أحدثت صوتاً عالياً بجانب أذنه في لحظة الولادة الأولى فإنه ينزعج.

ولذلك، كانت الأذن أولاً في آيات القرآن، لكننا في الآخرة نخرج من القبر فنرى أولاً.

البعث يوم العرض على خالق الأرض

على أن مشاهد يوم القيامة التي ذكرها القرآن الكريم تُرينا أننا سنقوم دفعة واحدة من الأرض.. سنُبعث مرةً واحدة.. سنقوم جميعاً في لحظة واحدة، ولذلك سماها الله سبحانه وتعالى (الحشر).. ما معنى الحشر؟

معناه: محاولة إدخال أشياء متعددة في مكان ضيق لا يتسع لها.. بهذا يريد الله أن يقرب لنا صورة ما سيحدث ساعة البعث ليسميه الحشر، لأن الناس الذين دُفِنوا في الأرض من عهد آدم حتى يوم القيامة سيخرجون منها دفعةً واحدة.. وبما أننا سنُبعث من نفس الأرض التي دُفِنّا فيها.. وسنُبعث في لحظة واحدة،

فسيكون الازدحام رهيباً، والأرض تحمل كل المخلوقات من عهد آدم حتى يوم القيامة.

يخرج الناس من الأرض يوم البعث، ويخرجون هم هم بكل صفاتهم وأوصافهم التي كانوا عليها في الدنيا. . بعض الناس يتساءلون: كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن أن تخرجنا الأرض بذواتنا مرة أخرى بعد أن اختلطت المكونات.

ويقول هؤلاء الناس: لنفرض أن إنساناً مات ودُفن في مكان ما. . ثم زُرعت شجرة تفاح في هذا المكان، فإنها ستتغذى على العناصر المكوّنة لجسد الميت المدفون تحتها. . فإذا طرحت هذه الشجرة ثماراً، وجاء إنسانٌ وأكل من هذه الثمار التي فيها عناصر من إنسان آخر مدفون تحت هذه الشجرة، واختلطت العناصر بعضها ببعض.

فالعناصر التي في جسد الإنسان الذي أكل التفاحة هي من إنسان آخر، ثم بعد ذلك أولاد هذا الرجل سيأخذون من عناصر الجسد الآخر. . وكذلك أولادهم وأحفادهم، وتصبح العناصر مختلطة وفي أجساد متفرقة. . كيف يجمعها الله - سبحانه وتعالى - يوم القيامة في جسد صاحبها مرة أخرى.

نقول لهؤلاء الذين يقولون هذا الكلام: إن تفكيركم تنقصه الحكمة والعلم، ذلك أن كل إنسان مخلوق من طين، وقد انتهى العلم التجريبي أو العلم المعلمي إلى أن الجسد الإنسانيّ مكوّن من ستة عشر عنصراً هي عناصر الطين. . وأن أولها الكربون والأكسجين، فهي أعلاها نسبةً وآخرها المنجنيز. . ذلك هو الجسد البشري، والجسد البشري قوّته من عناصر الأرض نفسها، أو مما تنتجه الأرض.

ولذلك، فإن الإنسان إذا أكل كثيراً ترهّل جسده وزاد وزنه، من نفس جنس المواد المصنوع منها الجسد. أي: أن الإنسان إذا أكل بشرهة وزاد وزنه عشرين كيلو مثلاً، فإن هذه الزيادة لا تكون من مادة غريبة على الجسم، ولكن من نفس مادة الجسم، لأنها من الطين، والإنسان مخلوق من طين، وإذا لم يأكل الإنسان انخفض وزنه من نفس عناصر الجسم أيضاً، هذه الزيادة في الوزن لا تتعلق بالتكوين الدقيق للإنسان، ولكنها مواد تُفقد وتعود حسب الطعام الذي يتناوله كل منا.

إذا جئنا بعد ذلك إلى الإنسان. . صحيح أننا جميعاً مخلوقون من عناصر الأرض ولكن لكل منا خلقٌ مميز. أي: أن نسب عناصر تكوين كل منا تختلف عن الآخر. . فبعضنا يزيد في جسمه الحديد ذرة أو ذرتان، وبعضنا ينقص. . والبعض الآخر يزيد فيه ذرة منجنيز، والبعض الآخر ينقص.

ولذلك، فإنك تجد في كثير من الأحيان أنك حين تذهب للطبيب يقول لك: إن عندك نقصاً في الحديد أو في البوتاسيوم.. ويعطيك الدواء الذي يكمل لك هذا النقص.

إذن: فعناصر الأجسام كلها واحدة.. كل واحد فيه الستة عشر عنصراً الموجودة في الأرض.. ولكن النسب تختلف بين كل واحد منا والآخر.. تكوين هذه النسبة هو الذي يُكوّن كل شخص فينا.. وهذا التكوين هو من خلق الله سبحانه وتعالى.

ولذلك إذا أعدت النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هو هو إلى الحياة، وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله.. واختلاف النسب يعطينا عدداً لا نهائياً من الأشخاص الذين يتميز كلٌ منهم عن الآخر.. إذن: فاختلاف الشخصيات مبنيٌّ على اختلاف النسب، وليس على عناصر التكوين التي نشترك فيها جميعاً.

مثال للتقريب إلى الأذهان:

لكي نُقَرِّب ذلك إلى الأذهان - ولله المثل الأعلى - نقول: لنفرض أننا أردنا طلاء منزل، وأتيننا بستة عشر لوناً أساسياً.. ولا يوجد في الكون ستة عشر لوناً أساسياً حسب علمنا.. ثم بدأنا نعد الطلاء الذي نريده.. وأتيننا باللون الأبيض مثلاً، لو وضعنا فيه ذرة من اللون الأصفر لاختلف.. ولو زدنا ذرة أخرى لاختلف.

وإذا جئنا باللون الأحمر ووضعنا منه ذرة على الخليط لاختلف.. وإذا وضعنا ذرتين لاختلف.. فإذا جئنا باللون الأبيض المخلوط بذرتين من اللون الأحمر.. ثم وضعنا فيه ذرة صفراء أو سوداء أو خضراء.. كل ذرة تعطي لوناً مختلفاً، ولذلك فإن الذي يريد طلاء المنزل، فإنه لا بدّ أن يقوم بعمل خلطة البويات كلها معاً.

ذلك أنه لو قام بعمل خلطة كل حجرة على حدة لما استطاع أن يضبط الألوان أبداً، لأنها عملية غاية في الدقة.. توجد بدائل لا نهائية.. بل إن اللون إذا تركته يوماً في وعاء، فإنك تأتي في اليوم التالي لتجده قد تغير، بل إنك حين تضع ساعة أو صورة أو نتيجة على الحائط وترفعها بعد عدة أيام تجد أن اللون في مكانها قد اختلف عن بقية لون الحائط، لأن إشعاعات الضوء تتفاعل مع اللون.

إذا كان ذلك يحدث بالنسبة لقدرات البشر المحدودة، فماذا يمكن أن تفعل طلاقة قدرة الله مع خلقه.. إنها تؤلف نسباً لا نهائية.. لا يقف أمامها عددٌ مهما بلغ، ذلك لأن إمكاناتنا الدنيوية لها حدود، ووسائل إدراكنا لها حدود.

فهذا نظره قوي، وهذا ضعيف، وهذا أضعف، وهذا يسمع دبيب النملة، وذلك لا يسمع دويّ القنابل. . . ولك أن تضع ما تشاء من درجات السمع بين دبيب النملة ودويّ القنبلة.

إذن: فالإدراكات عند البشر تختلف، واختلاف المدرك حجماً ولوناً وتكويناً هو الذي يعطي هذه الإدراكات درجاتها من ضعف وقوة. . . فتعطينا في الدنيا اختيارات بلا حدود. . . فكيف بإدراكات الخالق سبحانه وتعالى؟

إذن: فالذين يُثيرون هذا الكلام يعتقدون أنه ما دامت أجسادنا مخلوقة من الأرض، وما دامت الأرض مكونة من ستة عشر عنصراً، فإن الأجساد ستختلط.

نقول لهم: لا. . . إن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد خصوصيتها، فإذا قال الله - سبحانه وتعالى - «كُنْ» عادت هذه النسب بنفس الطريقة التي تكونت بها، أو بنفس الخلق الذي تم أول مرة، فيُبعث الإنسان يوم القيامة بجسده هو هو وبشخصيته هي هي ليُحاسب، ولا تأتي الأجساد ولا الشخصيات يوم القيامة، وقد اختلطت ببعضها البعض، بل كل منا مميز بتمييز لا يختلط مع أحد غيره، وكل منها سيأتي بجسده هو، وشخصيته هي يوم القيامة، ويُبعث هو هو ليُحاسب. . . فإما أن يُنعم، وإما أن يُعذب.

تأتي ساعة البعث ويخرج الناس جميعاً مرة واحدة، ويُبعثون من نفس الأرض التي دُفِنوا فيها، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، وبعد أن نخرج من هذه الأرض التي كنا نعيش عليها نُساق إلى أرض المعاد، ذلك لأن هذه الأرض مُعدّة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث، مُدخّر فيها أقوات البشر وأرزاقهم.

والحياة فيها تمضي بالأسباب، ولكن المسبب والخالق قيّوم على هذه الأسباب، لا يترك كونه لحظة، ولا يغفل عنه ولو بُرْهة صغيرة. . . وهو إذا شاء ومضى شاء عطّل الأسباب لتتدخل قدرة المسبب، لتنصر مظلوماً على ظالم، أو تقتصّر لضعيف بُغي عليه من قويّ طغى بالأسباب، وأفسد في الكون.

أرض الأسباب هذه انتهت مهمتها، ولذلك فهي تُدمر، والبشر يُساقون إلى أرض المعاد التي يتم عليها الحساب، لأنه في الحياة الآخرة تنتفي الأسباب، ولا تصبح الأرض التي نعيش عليها صالحة ليوم الحساب، وما بعد يوم الحساب.

ماذا يتم عند تبديل الأرض؟

فالناس يخرجون من أرض الأسباب إلى أرض المعاد. . . ولكن هل يخرجون

هكذا؟ كل منهم يذهب حيث يريد، ويتجه إلى أي مكان يريده. . أم أن المسألة لها نظامٌ محكم دقيق مُعَدُّ، بحيث يكون كل شيء في موضعه تماماً.

إن الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فإذا كانت هذه الأرض ستبديل بأرض جديدة وكذلك السماوات، فهل سنمضي كلٌّ يذهب باختياره إلى المكان الذي يريده وعلى هواه. . هذا يتأخر، وهذا يتقدّم، وهذا يذهب يميناً، وهذا يذهب يساراً، وبعضنا يجري إلى الخلف هروباً من هذا الموقف الرهيب. . وآخرون يزاحمون من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى الصفوف الأمامية. . هل سيحدث هذا؟ لا.

لقد قلنا: إن الموتَ معناه انتهاء إرادة الإنسان. . انتهاء الاختيار. . فلا أحد يملك أن يختار لنفسه شيئاً، ولا أحد يملك أن يفعل أو لا يفعل حسب هواه، فهذا الاختيار كان ممنوحاً للبشر في الحياة الدنيا كامتحان لهذا اليوم. . والآن انتهى الامتحان. . وأصبح كل إنسان يحمل أعماله التي أطاع فيها منهج الله، والتي عصى فيها هذا المنهج. . وبدأت أولى خطوات الطريق إلى الحساب.

لم يعد أحدٌ يملك من أمره شيئاً. . تأمل دِقَّةَ القرآن الكريم، وهو يصف لنا كيف سننتقل من هذه الأرض التي نعيش عليها إلى أرض المعاد.

الكل قادمون إلى الله:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَحَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

تأمل قول الحق سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾. أي: لن يفلت أحدٌ. . الكل قادم. . من عهد آدم إلى يوم القيامة، ولكن ليس كل قادم باختياره ومشيئته. . بل كل نفس معها سائق.

ما هو السائق؟ السائق في اللغة هو الذي يسوق الغنم إلى المرعى، وهو الحريص على أن تسير الغنم في الطريق المرسوم إلى مكان الماء أو العُشب، فلا تتجه يميناً أو يساراً، بل هي ذاهبة إلى مكان محدد لها، حيث يوجد العشب أو الماء، والسائق يسوقها أمامه حتى يوصلها إلى هذا المكان. . ولماذا يسوقها أمامه؟

لماذا لا يجزئها خلفه؟ أو لماذا لا يأتي بواحدة أو اثنتين من هذا القطيع، فيسوقهما والكل يتبعه، لأنه لو فعل ذلك وجعلها خلفه يمكن لواحدة منها أن

تنحرفَ يميناً أو يساراً، أو تبتعد عن الطريق دون أن يدرك هو ذلك، ولكنها حين تكون أمامه إذا انحرفتْ أي واحدة منها يميناً ويساراً فإنه يجري ويعيدها إلى الطريق المستقيم.

وهذا التشبيه الذي أعطاه لنا القرآن الكريم جملةً هو الذي سيحدث يوم القيامة تفصيلاً، فعندما يُنفخ في الصور ونخرج من القبور سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره.. ذلك السائق من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون، وهذا الملكُ مُكَلَّفٌ بأن يسوقَ الإنسانَ من مكان الحشر على هذه الأرض التي نعيش فيها إلى مكانه المحدد له في أرض المعاد، حيث سيتم الحساب.

وهذا الملكُ يكون خلف الإنسان.. تماماً كما يكون سائق الأغنام خلفها.. والإنسان لا يغيب عن الملك المكلَّف به ولو لحظة، ولو برهة.. بل يسوقه الملك وهو أمامه، حتى مكانه في أرض المعاد، ويكون حريصاً عليه لا يستطيع الإنسان أن ينحرف يميناً أو يساراً، فإذا انحرف قام الملك بتصحيح مساره.

ولكن الحق - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

أي: ليس معها فقط سائق يُوصلها إلى المكان المحدد لها في أرض المعاد، بل معها أيضاً الشهيد، وهو أعمالها.. شريط حياتها.. ما فعلته في الدنيا لحظةً بلحظة.. حتى أن الحق - سبحانه وتعالى - يعطينا لمحة عن دقة الحساب، فيقول:

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُوءٌ﴾ [المجادلة: ٦].

الكتاب شاهد على الإنسان:

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾.

أي: وضعت الملائكة بأمر من الله تعالى، فيعطون كل واحد كتابه، فهي - إذن - صور متعددة، فمن أخذ كتابه بيمينه فرح، وقال:

﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ١٩].

يعرضه على ناس، وهو فخور بما فيه؛ لأنه كتاب مُشرف، ليس فيه ما يخجل؛ لذلك يتباهى به، ويدعو الناس إلى قراءته، فهو كالتلميذ الذي حصل على درجات عالية، فطار بها ليعرضها ويذيعها.

وهذا بخلاف مَنْ أوتي كتابه بشماله، فإنه يقول:

﴿يَلَيِّنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ * يَلَيِّنَهَا كَأَنَّتِ الْفَاضِيَةُ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ * هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

إنه الخزي والانكسار والندم على صحيفة مخجلة.

﴿فَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: خائفين يرتعدون، والحق - سبحانه وتعالى - يصور لنا حالة الخوف هذه ليفزع عباده ويحذرهم ويوضح لهم العقوبة، وهم ما يزالون في وقت التدارك والتعديل من السلوك، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده.

فحالتهم الأولى الإشفاق، وهو عملية هبوط القلب ولجلجته، ثم يأتي نزوع القول: ﴿وَيَقُولُونَ يَوَلَيْنَا﴾ [الكهف: ٤٩].

يا: أداة النداء، كأنهم يقولون: يا حسرتنا يا هلاكنا، هذا أوانك فاحضري. ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابني آدم عليه السلام لما قتل قابيل هابيل، وكانت أول حادثة قتل، وأول ميت في ذرية آدم؛ لذلك بعث الله له غراباً يعلمه كيف يدفن أخاه، فقال: ﴿يَوَلَيْتَ أَخَعِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١].

﴿يَوَلَيْتَ﴾ أي: يا هلاكي.. كأن يتحسر على ما أصبح فيه، وأن الغراب أعقل منه، وأكثر منه خبرة؛ لكي لا نظلم هذه المخلوقات ونقول: إنها بهائم لا تفهم، والحقيقة: ليتنا مثلهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. أي: لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدّها وحسبها.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فكل ما فعلوه مُسَجَّلٌ مُسَطَّرٌ في كتبهم.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لأنه - سبحانه وتعالى - عادل لا يؤاخذهم

إلا بما عملوه.

إذن: هذا الكتاب الشاهد على الإنسان.. الشهيد عليه.. لا يترك شيئاً صغيراً بسيطاً إلا أحصاه، فإذا كان لا يترك صغيرة، فإنه من باب أولى لا يترك كبيرة.



تصوير البعث . . . وشدة الهول

كيف سيكون الناس في يوم البعث . . يوم الهول العظيم؟
أحوال كثيرة . . ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم، ولا نستطيع
أن نتعرض لها كلها في هذا الكتاب . . ولكن موعداً إن شاء الله في أكثر من كتاب
قادم .

انظر إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢] .

هذا تصوير دقيق للحالة التي سيكون عليها الناس - كل الناس - يوم البعث
وقبل الحساب . . وهم يُساقون من الأرض التي نعيش عليها، وبُعثنا منها إلى أرض
المعاد . . عقولهم من هَوْل الموقف ستكون ضائعة، فالأُم التي هي في الحياة الدنيا
أحرصَ الناس على ابنها، تتابعه أينما كان، وتلاحظه أينما وُجد، وبخاصة إذا كان
رضيعاً صغيراً .

هذه الأُم ستذهل عن ابنها، يكون أمامها فلا تراه . . ويناديهما فلا تجيبه،
ويقرب منها فلا تحس به . . ذهول تام من هَوْل الموقف .

فالناس في يوم الحساب . . كل واحد منهم مشغولٌ بنفسه، يفكر في ذاته، ولا
يدور في فكره أي شيء آخر . . إنه يريد أن ينجو من هذا الهول العظيم، يريد أن
يطمئن إلى مصيره، وقد أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه . . يراها بعينه، ويتابع
أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيباً عنه .

اللحظة التي يفيق فيها الإنسان، ويعرف أن يومَ القيامة قد جاء، وأن ساعةَ
الحشر قد بدأت . . يذهب عن عقله كلُّ ما كان فيه، ولا يفكر إلا في نفسه . . إنه
يَوْمٌ كما وصفه الله سبحانه وتعالى :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] .

وقول الحق سبحانه: ﴿وَنَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلٍ حمْلَهَا﴾ [الحج: ٢].

أي: أن المرأة التي تعزز في الحياة الدنيا بجنينها تتخلص منه، فهي لا يشغلها إلا نفسها، وعندما يُساق الناس إلى أرض المعاد لا يمشون بخطى ثابتة.. لا يكونون ثابتين في مَشْيهم وفي تقدُّمهم.. بل من الرعب الذي يجتاح القلوب يترنحون يميناً ويساراً كالسكارى، حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا أترانهم من الخمر، ولكنهم حقيقةً لم يتناولوا قطرة واحدة من الخمر.

ولكن هَول الموقف الذي هم فيه، وشدة عذاب الله الذي يخشون أن يصيبهم يجعلهم كالسكارى، لا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم، ويترنحون في مشيتهم.

انشغال الإنسان بنفسه

ويزيد الصورة وضوحاً قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

إذا قرأت قول الحق - سبحانه وتعالى - هذا، فإنك تعرف أنه سيكون هناك نداء أو تنادٍ بين الناس في هذا الموقف.. هذا ينادي هذا بحكم قرابة الدنيا، وبحكم الصلات التي كانت بينهم في حياتهم قبل الموت، ولكن الأنساب هنا تختفي، فلا يصبح كل واحد ملتفتاً إلى تحية أو سلام أو لقاء، رغم أنهم اختلفوا لفترة طويلة.. كل واحد منهم يقول: نفسي نفسي.

فإذا ناداه أو حاول أن يحتمي به مثلاً أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه، بل يفر منه، فإذا ظن الابن مثلاً أنه يمكن أن يستنجد بأبيه الصالح في هذا اليوم، فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه، ولن تشفع القرابة بين الاثنين، لأن القرابة والألفة والأنساب تنفع في الحياة الدنيا، فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه في ساعة الشدة، ويقفوا معه في ساعات العسرة، وهم في دنيا الأسباب يفعلون ذلك.

ولكن في هذا اليوم.. كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين.. يريد أن يهرب من أولئك الذين قد يصيبهم العذاب من الله، لا يريد أن يتعلق به أحد، ولا أن يحمل من أوزار أحد، بل يبتعد قدر الإمكان عن الناس، كل الناس، متمنياً أن يُنجيه الله من العذاب.

الحوار بين كل من المؤمن والكافر

هكذا يُساق الناس إلى أرض المعاد، وهم يترنحون من هول الموقف..

مشيتهم غير ممتزنة . . وخطواتهم غير ثابتة . . وكل مَنْ له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء . . ينادونه فلا يردّ عليهم . . ويستنجدون به فلا ينجدهم، ويظنون أن قرابته لهم أو صداقته لهم ستشفع لهم في ذلك اليوم، ولكنه لا يلتفت إليهم، لقد كانت هناك مظنة أنه سيعاونهم .

وترى أولئك الذين اجتمعوا على حب الدنيا، واجتمعوا على معصية الله . . يفرون من بعضهم البعض، وهم أعداء ألداء، صداقتهم في الدنيا قد تلاشت تماماً، وكيف لا وكلّ منهم قد ساعد الآخر على أن يكونَ من أهل النار . . كل الناس في هذا الموقف أعداء إلا المتقين .

لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض في ذلك اليوم، لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير، إذا رأى واحدٌ منهم زميله يمشي في الخير وفي طاعة الله، يقول له: عليك أن تكثر من فعل الخير . . وإذا رأى أحدهم صديقه يمشي في طريق الشر والمعصية يقف أمامه وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير .

لقد كان المتقون يتعاونون على الخير فوقوا أنفسهم عذاب النار . . كل واحد منهم نصح الآخر . . والنصيحة كانت نافعة لينجو من العذاب في هذا اليوم العظيم .

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف: ٦٧] .

وهكذا تظهر الصورة الأولى ليوم البعث . . المؤمنون في هذا اليوم لهم نورٌ يمشون به وسط ظلمات هذا اليوم العظيم . . والكافرون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم، أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم، أو يكونوا لهم عوناً، ولكن هذا كله لا يفيد، لقد تقطعت الأسباب، وأصبح كلُّ إنسان مشغولاً بنفسه .

وتكتمل الصورة في قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بِإِثْنٍ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد: ١٣] .

في هذه الآية الكريمة يعطينا الحق - سبحانه وتعالى - صورة أخرى، ففي يوم الحشر والناس في طريقهم إلى أرض المعاد، من كثرة عدد الناس وشدة الزحام تسود الظلمة، فلا يرى الناس ما أمامهم . . الله - سبحانه وتعالى - يضيء للمؤمنين نوراً يمشون على هداه .

وحين يرى المنافقون ذلك النور، يحاولون أن يقتربوا من المؤمنين ليستعينوا بهذا النور على السير، دون التخبُّط الذي يفرضه الظلام . . حينئذٍ يُقال لهم: ارجعوا

فَيُعَادُونَ بَعِيداً عَنِ الْمُؤْمِنِينَ . . ثم يكون بينهم سور أو ما يشبه السور أو حاجز .

هذا الحاجز من ناحية المؤمنين، فيه رحمة الله - سبحانه وتعالى - بما عملوا من صالح الأعمال، فيُحْسِنُونَ بِالرَّحْمَةِ تَحِيْطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ . . بينما من الناحية الأخرى . . ناحية المنافقين والمنافقات . . يكون هذا السور مُحَاطاً بِعَذَابِ اللَّهِ، حيث يُحْسِنُونَ بِالْعَذَابِ يَحِيْطُ بِهِمْ .

وهكذا يمشي الاثنان . . المؤمن تحيط به رحمة الله ونوره . . والكافر والمنافق يحيط بهما عذاب الله . . وحينئذ يعرف الكفار والمنافقون الفرق، ويُحْسِنُونَ بِأَنَّ الْعَذَابَ يَحِيْطُهُمْ . . بينما رحمة الله تحيط بالمؤمنين .

تذكير الكافر بظلمه في الدنيا

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] .

حينئذ عندما يُحَسُّ الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذي يحيط بهم، والرحمة التي تحيط بالمؤمنين . . ينادي الكفار والمنافقون المؤمنين: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟ أَلَمْ نَعِشْ مَعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؟

فيردّ عليهم المؤمنون: نعم لقد عشنا في وقت واحد، ولكنكم أيها الكافرون والمنافقون فتنتم أنفسكم بما تقدمه الدنيا من نعم زائفة، وكنتم ترتبصون بعباد الله المؤمنين، لتؤذوهم وتدبروا لهم الشر، ودخلت في أنفسكم الريبة في أنكم ملاقو الله، فظننتم أنكم لن تلاقوه، وأنكم ستفلقون من هذا اليوم .

وجاءت شياطين الإنس والجن لتقدم لكم الأمانى الزائفة عما ستحققونه في الدنيا، فأصابكم الغرور بهذه الأمانى، وتكبرتم وتجبّرتم حتى جاء أجلكم، وجاء أمر الله، وجاء يوم الحساب فوجدتم أن ما وعدكم الله حقّ، وأن غرور الشيطان باطل، فالיום لا ينفعكم شيء، ولا ينجيكم من عذاب الله أحد .

تلك هي بعض المشاهد التي ستحدث يوم القيامة، والناس يُساقون إلى الحساب على أن هناك مشاهد أكثر ساعة يُوضع الميزان، ويُحاسب الناس، يومها يوضح الله الكافرين أمام كل خلقه، ويحدث حوار كبير يشهده الخلق جميعاً .

والحق - سبحانه وتعالى - يعرض لنا عدداً من هذه المواقف في القرآن الكريم، ليُرِينَا كيف ستكون أحوال العباد المختلفة، فلا المؤمنون على درجة واحدة، ولا الكافرون على درجة واحدة، ولكن لكلّ منا حالّ من الأحوال .

هناك الذين كذبوا على الله . . وهناك الذين أشركوا بالله . . وهناك الذين عبدوا غير الله . . وهناك الذين أضلوا الناس . . وهناك صور عديدة ومتعددة . . كُلُّ في صورة . . كُلُّ في شأن .

هذا يريد أن يفرَّ . . وهذا يتمنى أن يكون تراباً . . وهذا يريد أن يعودَ ليعمل صالحاً . . ولو عاد لأفسد . . والناس حين يُساقون إلى أرض المعاد، يعطينا الله تعالى لأحوالها صوراً مختلفة في القرآن الكريم، لأن الناس في هذا اليوم العظيم لا يمكن أن يكونوا في حالة واحدة، ولكنهم في أحوال متعددة، وفي أول يوم الحشر هم في حال، وفي آخره هم في حال .

لقطات كثيرة، وكل واحد من الناس له حالة تناسب عمله، له حال مع الله - سبحانه وتعالى - يناسب ما قدّمه في الدنيا، فكل نفس بشرية لها عمل . . خيراً كان أو شراً . . فهو متفاوت . . الخير متفاوت والشر متفاوت .

ولنستعرض معاً بعض هذه الصور التي ستحدث يوم القيامة . . هناك وجوه ستكون سوداء . . ووجوه ستكون بيضاء، مصداقاً لقوله :

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] .

هل البياض أو السواد يتعلق باللون . . أم يتعلق بالحالة؟ إنك في كثير من الأحيان ترى إنساناً إذا أصابه همٌّ، وبلغ حالة اليأس يقول لك: لقد اسودّت الدنيا في وجهي . . هل الدنيا اسودّت حقاً، ولونها أسود . . إن الدنيا كما هي، ولكن ما ينتظر هذا الإنسان من الهمّ والعَمّ قد جعل الدنيا تبدو سوداء في نظره، بحيث لا يرى فيه أملاً، ولا يرى شعاع النور .

وهناك إنسان آخر ترى وجهه، فتقول: إن وجهه أسود كأن غضبَ الله نزل عليه . . مع أنه لونه في الحقيقة . . لون وجهه يكون أبيض، وليس أسود . . ولكنك تُحس من الهمّ الذي يركبه، والآثام التي يحملها أن وجهه أسودّ حالك السواد .

وكم من إنسان يكون وجهه أسود اللون فعلاً، وتراه مُشرقاً بالإيمان متلألئاً بالنور، تستبشر به وتقول: إن وجهه مشرقٌ . إذن: فاللون هنا ليس هو المحل، ولا يستطيع إنسان أن يقول: إن الله - سبحانه وتعالى - قد مدح الوجوه البيضاء في الدنيا، وذمّ الوجوه السوداء، وشبّه بهم الكافرين بأن وجوههم سوداء .

نقول لك: لا . . إن عدلَ الله يأبى هذا . . ولا فرق بين عباد الله جميعاً . . بل

إن أهل جهنم في الآخرة قد يكون معظمهم من أصحاب الوجوه البيضاء في الدنيا، وأعمالهم يملؤها السواد.

إذن: فالسواد هنا معناه أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بغَضِّ النظر عن لونها، فإنك ترى سحاب السواد يحيط بها، تراها وقد غاب عنها الإشراق.. تبدو ذميمة كالحة تُحس أن كل ما حولها أسود.. فعملها أسود.. وحسابها أسود.. ومصيرها أسود.. ولا أمل لها ولا فيها.

موكب الحشر يمضي، وهم يومئذ على صور مختلفة.. إنهم يمشون جماعات.. المؤمنون جماعات.. والكافرون جماعات.. وكل جماعة من أصحاب الوجوه السوداء في الآخرة يقولون:

﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

قد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا.. وجماعة أخرى من أصحاب الوجوه السوداء هم الذين كذبوا على الله:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَنَزَعُوهُمْ ذُلٌّ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

وجماعة يتمنون أن تسوى بهم الأرض: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وهناك صور عديدة في القرآن الكريم تبين أحوال الخلق جميعاً يوم القيامة.. فنجد خلقاً يحملون أوزارهم، والوزر هو المعصية والفسق وكل ما يغضب الله.. ونجد خلقاً يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم. أي: أنهم لا يحملون خطاياهم فقط، بل هم يحملون خطايا أخرى.

ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك مع أن الله - سبحانه وتعالى - قال في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨]. أي: أن كل واحد يحمل ذنبه فقط وما اقترفه.. ولا يحمل إنساناً ذنب آخر.

وقد ضرب الله - سبحانه وتعالى - أمثلة في القرآن الكريم توضح لنا ذلك، وهذه الأمثلة في قمة الإيمان، ففرعون مثلاً كان من أشد العصاة لله، نصَّب نفسه إلهاً في الأرض ليعبده الناس، وجاء موسى بآيات كثيرة، فرفض أن يؤمن، بل استمر في ضلاله وفي ادعائه الألوهية.

حتى أن الله - سبحانه وتعالى - من كثرة ذنوب فرعون وعصيانته لله وعده بأشد العذاب، فقال تبارك وتعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ضَرْبُ الْأَمْثَالِ لِلنَّاسِ.. لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

فرعون هذا الذي هو من أكفر أهل الأرض.. كانت له امرأةٌ صالحة مؤمنة، ومن شدة صلاحها وإيمانها ذُكرت في القرآن الكريم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْفَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١].

وهكذا نرى أن امرأة فرعون، وقد عاشت في قمة الإثم في عصرها في قصر فرعون، إلا أنها أخلصت لله - سبحانه وتعالى - وطلبت منه النجاة من فرعون وعمله، ومن القوم الظالمين المحيطين به، فجاءت في الآخرة ومصيرها الجنة، ولم يُحملها الله من أوزار فرعون شيئاً.

وننتقل من قمة الإيمان إلى قمة المعصية.. امرأة نوح وهو نبي، وامرأة لوط وهو نبي.. تأمل قول الحق - سبحانه وتعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

هذه قصة امرأتين كانتا في بيتي نبوة، ولكنهما كفرتا بالله، وارتكبتا الآثام، فكان مصيرهما إلى النار، ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتي نبيين، لأن أهل الأنبياء هم المؤمنون الذين آمنوا بهم وصدقوا بالرسالة وعملوا بها.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى ابن نوح، وقد رفض أن يؤمن، وأصرَّ على الكفر، فلم يُغن عنه أنه ابن رسول ونبي، وعندما أراد نوح أن يستغفر الله لابنه، وقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

رَدَّ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - عليه: ﴿يَسْأَلُكَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وإبراهيم حين أراد أن يشفع لعمه آزر: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهكذا نرى أن الحق - سبحانه وتعالى - قد أعطانا أمثلة في القرآن الكريم،

تؤكد لنا أن الإنسان لا يحمل يوم القيامة إلا ما ارتكب من أوزار أو من معاصي، وأن كل إنسان يُحاسب عن عمله، وأن أي نفس لا تحمل إثم أو ذنب أو عقوبة ذنب اقترفته نفس أخرى.

فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

لترى كيف يوضح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة؛ وإذا أسرفت على نفسها في تلك الجوانب؛ فهي قد تسرف في الجانب الأخلاقي؛ والجانب الاجتماعي؛ وغير ذلك، فتأخذ وزر كل ما تفعل.

ويوضح هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضل نفساً غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلتها إلا ما نتج عن الإضلال فيقول: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

ذلك أن النفس التي تمّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال. والحق سبحانه أعدل من أن يُحمّل حتى المضلّ أوزاراً لم يكن هو السبب فيها.

ولذلك قال الحق سبحانه هنا:

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

أي: أن المضلّ يحمل أوزار نفسه، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلتهم تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال، وفي هذا مطلق العدالة من الحق - سبحانه وتعالى - فالذين تمّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال؛ وتلك يحملها معهم من أضلوهم.

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أن يدفعهم لذلك من أضلوهم؛ فهم يتحملون تبعاتها وحدهم، وبذلك يحمل كل إنسان أحمال الذنوب التي ارتكبتها.

وقد حسّن رسول الله ﷺ ذلك حين قال: «والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر».

كيفية حمل الأوزار يوم القيامة

على أن السؤال هنا.. هو الصورة التي سيتم عليها ذلك.. هل سيحمل

الإنسان فوق ظهره عمارة أو عدة عمارات بناها بمال حرام؟ وهل من الممكن أن تكون الصورة هكذا؟ أم أن الناس سيحملون كتاباً فيه أعمالهم . .

وكلما كانت هذه الأعمال سيئة كان الحمل على ظهورهم ثقيلاً يتعثرون به، لا يستطيعون المشي، وأحياناً يضطرون أن يزحفوا على بطونهم، أو على ركبهم من ثقل ما يحملون.

الصورة هنا في غيب الله - سبحانه وتعالى - ولكن من المؤكد أنهم سيشعرون بثقل عظيم على ظهورهم، ثقل يجعل هذه الظهور تننّ مما تحمل، تجعل صاحبها ينقل قدميه بصعوبة بالغة، ويبدل جهداً كبيراً في أن يخطو خطوة واحدة.

وهنا يتلفت يميناً ويساراً، يبحث عمّن يساعده في هذا الحمل الرهيب، فلا يجد أحداً . . الكل يهرب منه . . والله - سبحانه وتعالى - يكمل لنا الصورة، فيقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾

[فاطر: ١٨].

النفس العاصية والكافرة التي تحمل هذه الأثقال الرهيبة ستبحث يميناً ويساراً، تحاول أن تستنجد بأحد، وأول من يلجأ إليه الإنسان هم أقاربه، فتحاول هذه النفس أن تستنجد بأولادها وإخوتها، ولكنهم جميعاً يهربون، ولا يحمل أحد من هذا الحمل شيئاً، فيظل الحمل الرهيب يئنّ منه ظهر هذه النفس، وهي تحمله وتمضي به حتى مكانها في يوم القيامة.

كل هذا قبل الحساب؟ أم بعد الحساب؟

كل هذا وغيره يتم قبل الحساب . . بل إن هناك حواراً يجري بين الله - سبحانه وتعالى - وأولئك الذين لم يستجيبوا لمنهج الله ولا دعوته، فيجمع الله المتخذين له - تبارك وتعالى - أنداداً، وذلك المتخذ نداءً، ويواجههم حتى تكون الفضيحة تامة وعامة بين عابد عبد باطلاً، وبين معبود لم يطلب مرة من عابده أن يعبد، ومرة طلب منه .

فالذين يعبدون من دون الله شركاء . . منهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد رسولاً وجعله إلهاً، ومنهم من عبد صنماً، ومنهم من عبد: شمساً أو قمراً أو جنّاً. إذن: فالمعبودون متعددون، والعابدون متعددون، وكل معبود وكل عابد له حكم في ذلك الحشر، والمواجهة ستكون علنية، يراها الناس جميعاً من عهد آدم إلى يوم القيامة.

هذا الحوار الذي سيتم، وهذه المواجهة ستكون أمام الأَشْهاد جميعاً، قد يتساءل بعض الناس: كيف يمكن لهذا الخَلْق كله أن يشهدَ ويسمع، ويرى هذا الحوار مع وجود هذا العدد الهائل من البشر؟

نقول لهؤلاء جميعاً: لو فكرتم قليلاً لما أصابتكم الدهشة.. ماذا يحدث الآن عندما يكون هناك حدث مهم في العالم تنقله الأقمار الصناعية، ألا تستطيع الدنيا كلها أن تراه في جميع الأماكن بالأرض في وقت واحد؟

إذا كانت هناك مثلاً بطولة العالم لكرة القدم، ألا نستطيع أن نشهدا هنا في مصر في عشرات الألوف من المنازل في وقت واحد.. ونسمع كل ما يدور هناك.. فإذا أحصينا ذلك في العالم أجمع نجد أن هناك ملايين المشاهدين في ملايين الأماكن المتفرقة من أقصى الدنيا إلى أقصاها، يستطيعون أن يشهدوا هذا الحدث في نفس لحظة حدوثه بالصوت والصورة.

إذا كانت هذه قدرة البشر للبشر، فكيف بقدرة الله - سبحانه وتعالى - ألا تستطيع قدرة الله أن تجعل خَلْقَ الله كلهم يرون هذا الحوار ويشهدونه، وهم في أماكنهم؟ إن ذلك على الله يسير.

المهم أن هذا الحوار سيكون علنياً يشهده أهل الأرض كلهم، يرون ويسمعون ما يدور.. سيرون ما يحدث، وكيف سيكون الحساب، وذلك مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

[هود: ١٠٣].

المعبودون الذين عبدتهم هؤلاء المشركون، إما أن لهم علماً بهذه العبادة، أو لا علم لهم بها، الذين لا علم لهم بأنهم معبودون، ولا دعوة لهم إلى الناس أن يعبدوهم، كالأصنام والشمس والقمر والأشجار والأحجار والرسل الذين اتخذوهم آلهة.

ولكن المعبود الذي له علم وله دعوة للناس لأن يعبدوا غير الله إنما يتركز في شياطين الجن وشياطين الإنس.. ذلك أن إبليس وذريته وشياطين الإنس هم الذين يسعون في الأرض ليفسدوا منهج الله، هم الذين يحاولون أن يُغروا الناس بالشرك، ويُزينوا لهم السوء، وهؤلاء على علم بما يعملون، أما باقي مخلوقات الله فلا علم بأنها تُعبد، ولا مطلب لها في ذلك، بل هي مُسَبَّحة لله خاشعة.

وهنا في يوم القيامة، تحدث مواجهة بين الذين عبدوا غير الله وبين مَنْ عبدوا الله، هذه المواجهة تتم بين كل مخلوقات الله ما عدا الملائكة. ذلك لأن

الملائكة لا يواجههم الله سبحانه بمن عبودهم، ولكن يسألهم مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ بِإِيمَانِكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وهكذا يتبرأ الملائكة من أنهم كانوا معبودين من دون الله، والله يعلم ذلك لأن الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

البراءة من المشركين

تأتي بعد ذلك المواجهة مع الشمس والقمر والنجوم والأصنام، فتبرأ جميعاً ممن عبدها من البشر، وتقول: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا﴾ [سبأ: ٤١].

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات لتعلن أمام الله - سبحانه وتعالى - أنهم لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة، وأنهم لم يدعوا أحداً لاتخاذهم آلهة، ولذلك فعندما يخاطب الله - سبحانه وتعالى - الأحجار التي اتخذوا منها أصناماً.. تقول الأحجار:

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَادُ اللَّهِ مِنَ الْقَائِمِينَ فِي الْأَسْحَارِ
ذلك أن هذه الأحجار تُسَبِّح بحمد الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما من شيء، كل ما يُقال له شيء.. والشيء هو جنس الأجناس، فالمعنى أن كل ما في الوجود يُسَبِّح بحمده تعالى.

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية، وقالوا: أي تسبيح دلالة على عظمة التكوين، وهندسة البناء، وحكمة الخلق، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنْزَه ومُتَعَالٍ وقادر، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه.

وقد أخرجنا الحق - سبحانه وتعالى - من هذه المسألة بقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إذن: يُوجد تسبيح دلالة فعلاً، لكنه ليس هو المقصود، المقصود هنا التسبيح الحقيقي كل بلغته. فقله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ يدل على أنه تسبيح فوق

تسبيح الدلالة الذي آمن بمقتضاه المؤمنون، إنه تسبيح حقيقي ذاتي ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس.

وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح، فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ قَدِّعِلَمٍ صِلَانُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ [النور: ٤١].

إذن: كل شيء في الوجود علم كيف يصلي لله، وكيف يُسبِّح لله، وفي القرآن آيات تدلُّ بمقالها ورمزيتها على أن كلَّ عالم في الوجود له لغةٌ يتفاهم بها في ذاته، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لغته، فكيف نستبعد وجودَ هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها؟

بعض الناس يتساءلون: هل ستحدث الأحجار يوم القيامة؟ وهل ستنتطق؟ نقول لهم: إن كلَّ شيء سينطق يوم القيامة.. تسألونا: كيف سينطق؟ وبأي لغة سيتكلم؟ ولكنها ستكون بلغة يفهمونها جميعاً، فإذا كان الإنسان سيفهم لغة العين والسمع والجلود، ويعاتب أعضاء جسمه، فيقول لهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

ومعنى ذلك أنهم فهموا كلامهم.. وإلا لما قالوا: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾، فترد الجلود والأسماع والأبصار: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

إذن: هناك حوار سيدور بين الإنسان وسمعه وبصره وجلده في لغة يفهمها الإنسان، وتفهمها هذه الأعضاء كلها، وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة.

فلو أننا أتينا برجل إنجليزي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية، ورجل عربي لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية.. هل يمكن أن يدور بينهما حوار؟ طبعاً لا، ولكن لا بد أن تكون هناك لغة مشتركة، وسيعلمنا الله - سبحانه وتعالى - يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض، ولغة كل مخلوقات التي نراها، والتي لا نراها حتى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى.

فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا، ونحن سنرى إبليس وذريته، ويدور بينه وبين الكافرين حواراً، وكل شيء سيتكلم وينطق، كل شيء كان صامتاً في هذه الدنيا.. سيتكلم وسينطق وسيشهد، حتى الأشياء التي سخرها الله لإرادة الإنسان، وجعلها خاضعة لهذه الإرادة في الدنيا، كاللسان مثلاً الذي جعله الله صالحاً لأن يقول كلمة الإيمان، وأن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله.

فإذا أمر الإنسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها، ولكن هذا اللسان

عابد وطائع ومُسَبِّح، ولذلك يأتي يوم القيامة ويشهد على صاحبه، بأنه أجبره على نطق كلمة الكفر، بما جعله الله مُسَخَّرًا لإرادة الإنسان.

ولكن، عندما تخمد الإرادة البشرية بالموت، يشهد كل شيء على الإنسان، ولا يملك الإنسان أن يقهر عضواً من أعضائه، على أن يفعل ما يغضب الله، بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه، لذلك فإن الحجارة التي هي أعبد لله من كثير من البشر، ستشهد على مَنْ عبدها يوم القيامة وتبرأ منهم، وكذلك الشمس والقمر والنجوم، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاهُوا الْكُذَّابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فإذا انتقلنا إلى البشر، وعلى قَمَّتِهِم الرسل، يأتي الله - سبحانه وتعالى - بعيسى ابن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وهكذا يتبرأ الرسل من الذين عبدهم من دون الله، ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم في موقف حقير جداً، فهؤلاء الذين عبدهم في الدنيا وقدموا لهم القرايين، وأتبعوا أنفسهم في إقامة التماثيل لهم من الذهب والفضة والمعادن النفيسة، هؤلاء الذين أمضى المشركون حياتهم يتقربون إليهم يبتعدون عنهم، لأنهم رجس، ولأنهم عملٌ غير صالح، لا بد أن يبتعد عنه الناس جميعاً في هذا اليوم العظيم.

ويُحَسُّ أولئك المشركون بتفاهتهم وعِظَم ذنبهم، ويتمنَّون لو أنهم سُيِّرَتْ بهم الأرض أو كانوا تراباً، بدلاً من أن يقفوا هذا الموقف المخزي أمام الله سبحانه.

فيوم القيامة سيحشر الله هؤلاء جميعاً، فهناك مَنْ عبده الناس وهو لا يدري عن عبادتهم شيئاً، فالشمس والقمر والنجوم والأحجار والأشجار وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم، بل هم أعبد لله من القائمين في الأسفار، وهم لم يرسلوا رسلاً إلى البشر ليقولوا لهم: اعبدونا. أو: ليلغوهم بمنهج عبادة.

فالشمس لم ترسل رسولاً مثلاً إلى مَنْ عبدها لتدعي أنها إله، وتطلب منهم أن يسجدوا لها وتقول لهم: إن منهجي كذا وكذا. وكذلك النجوم والأحجار التي اتخذوا منها أصناماً.

لذلك، فإن هؤلاء جميعاً يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم، ويتجهون لله - سبحانه وتعالى - يُسَبِّحونه، بل إن الأحجار التي عبدها الناس،

يجعلها الله سبحانه وقود النار يوم القيامة، وتكون الأحجار سعيدة بذلك، وهي تحرق من عبدها من دون الله وتُذيقه العذاب.

كما أن هناك من الرسل من اتخذ الناس آلهة، يُؤتى بهم يوم القيامة ليتبرعوا أمام الأشهاد، أمام خلق الله كلهم، من الذين اتبعوا واتخذوهم آلهة.

وفي هذا يقول الحق - سبحانه وتعالى - لعيسى ابن مريم عليه السلام:

﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَانتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

بماذا يرد عيسى ابن مريم؟ يقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

أي: تعاليت يا رب، وتنزهت عن هذا، فنحن جميعاً عبيدك، نُسَبِّحُ بحمدك، ثم يكمل عيسى ابن مريم كلامه:

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلهاً، ويقول: إن الله - سبحانه وتعالى - يعلم ما نعلن وما نخفي، فإن كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علناً فقد علمه الله - سبحانه وتعالى - وإن كان قد قاله سراً وفي نفسه فقد علمه الله - سبحانه وتعالى - لأنه يعلم ما تُخفي الصدور.

ويكون هذا على مشهد من جميع خلق الله منذ عهد آدم إلى يوم القيامة، وهم يشاهدون كل ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة علناً، وأمام كل خلق الله.

الحوار الذي دار بين شياطين الإنس والجن

ثم يأتي الله - سبحانه وتعالى - بعد ذلك إلى شياطين الجن والإنس. . إلى إبليس الذي قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

إلى إبليس الذي أعلن من يوم الخلق الأول أنه سيكون عدواً لآدم وذريته، واستطاع أن يصل إلى ذلك بالقسم الذي يمكنه أن يفعل ما يقول، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. أي: يا رب نشهد أن لك العزة، وعِزَّة الله عن خلقه جعلته غنياً عنهم: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

فهذه العِزَّة التي استغنى بها الله - سبحانه وتعالى - عن خلقه، تدخل إبليس ليأخذ حق الغواية، ولذلك فقد قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

إذن: فكل من عبد الله مخلصاً وقاه الله غواية إبليس، ولم يستطع أن يقدر عليه. . وكل من عبد الله وفي قلبه شك أو رياء أو نفاق، فإن غواية الشيطان تدخل

إلى نفسه، فيُزَيَّن له المعصية، وإبليس يعرف ناحية الضعف في الإنسان فيُغويه منها .
فإن كان الإنسان ضعيفاً أمام المال أغواه إبليسُ بالمال، وإن كان الإنسان
ضعيفاً أمام النساء أغواه إبليسُ بالنساء، وإن كان الإنسان ضعيفاً أمام الحياء والسلطة
والسلطان أغواه إبليسُ بالجاء والسلطان .

إذن: فقد بقي الحوار والمخاصمة بين إبليس وذريته وبين ذرية آدم، معزولاً
عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية لله، فهؤلاء ليسوا طرفاً في الخصومة، لأن الله
وقاهم ما يمكن إبليس وذريته من أن يُغووههم، فلم يعصوا ولم يشركوا، ولم
يكفروا، وإنما عبدوا الله وأخلصوا له الدين .

يجمع الله إبليس وذريته، وهم الفاسقون من الجن، لأن هناك الجنَّ الصالحين
المؤمنين، وهناك الجن الظالمون الفاسقون، فالجن الذين يتبعون إبليس في إغواء
الإنسان، وفي إفساد منهج الله في الأرض . . هؤلاء هم الذين يُسَمَّوْنَ الشياطين،
ولا بد أن نعرف أن الجنَّ هم مقابل الإنس ولهم اختيار، وأنه كما يوجد في الإنس
طائعٌ وعاصٍ، كذلك يوجد في الجن .

العاصون هم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس في إغواء الإنسان بالكفر،
ويوجد من الإنس مَنْ أغواهم الشياطين، فأصبحوا في خدمتهم يفسدون منهج الله،
وهؤلاء هم شياطين الإنس .

إذن: فالحوار بين مَنْ وَمَنْ؟ أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئاً
عن ذلك؟ أم يكون بين شياطين الإنس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج .

وقَوْلُ الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ٢٢]، يشمل كل
مخلوقاته: الملائكة، والأحجار، والكواكب، والرسل، والشياطين من الإنس
والجن . . والخطاب في القرآن مُوجَّهٌ للأحياء . . الله - سبحانه وتعالى - يريد أن
يقولَ لنا: اذكروا جيداً وأنتم في الدنيا أنكم ستُحْشَرُونَ حَشْراً إلى موقف تُفْضَحُونَ
فيه أمام كلِّ مخلوقات الله :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ٢٢] .

إذن: فالكلام هنا: ونقول للذين أشركوا من الإنس والجن: مكانكم . وحين
تسمع إنساناً يقول لك: مكانك . يعني: لا تتحرك حتى ينتهي هذا الموقف ويُحْسم .
وهي كلمة وعيد، كلمة تهديد من الله سبحانه وتعالى . ومعناها: لا تتحركوا فإن لي
معكم موقفاً، وهذا الموقف ليس في صالحكم .

الذين أشركوا يحسبون أنهم قد ضاعوا في زحام الآخرة، وأنهم أفلتوا من

المواجهة ومن الفضيحة أمام خَلَقَ الله . . والله - سبحانه وتعالى - يقول لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، أي: كل الذين اجتمعوا على باطل يُجَمَّعون معاً.

ولكن الله - سبحانه وتعالى - لا يريد لهم في معسكر واحد، إنه يريد الذين أغووهم في معسكر، والذين قاموا بالغواية والإضلال في معسكر، والذين خضعوا لهذه الغواية في معسكر آخر.

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

أي: مزقنا بينهم، حتى يصبح هناك فريقاً فريقاً يواجه فريقاً: ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا نَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

كيف الميزان؟

هنا لا بُدَّ لنا من وقفة . . إذا كان هذا الحوار أو جزءاً من الحوار الذي يدور في الآخرة . . فهل هذا هو الميزان؟ وهل هذا هو الحساب؟ أم أن الحساب شيء مختلف تماماً عن كل هذه المشاهد، بحيث هناك هذه المشاهد وحدها، ثم بعد ذلك يكون الحساب.

قبل أن نبدأ الإجابة عن هذا السؤال، لا بدَّ أن نردَّ على الفكرة التي تقول: إن هناك ميزاناً منصوباً في الآخرة، تُوضع فيه السيئات في كفة، والحسنات في كفة، فمن ثقلت حسناته وأعماله الصالحة يذهب إلى الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته يذهب إلى النار.

فكرة ماديات الدنيا لا يمكن أن تكون في الآخرة، ليست المسألة أوراقاً مكتوبة بشكل مادي، وإنما فكرة الميزان هي فكرة العدل في أساسه، بل هي دقة متناهية في العدل الذي لا يقوم شيء بدونه.

لقد سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف سيحاسب الله الناس في وقت واحد يوم القيامة؟ فقال علي رضي الله عنه: كما يرزقهم في وقت واحد في الحياة الدنيا.

الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد رفع السماء ووضع الميزان، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام مُحْكَمٌ تماماً، الشمس تطلع من الشرق وتغرب في الغرب،

والقمر والنجوم تسير في مُنتهى الدقة والإبداع، لأنه لا دَخَلَ لأحد من البشر فيه .
فإن أردتم أن تصلح حياتكم، وأن تستقيم أموركم كما استقامت هندسة السماء
والأرض، فخذوا الميزان من السماء في أعمالكم، واتبعوا القول الحق: ﴿وَالسَّمَاءَ
رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾
[الرحمن: ٧ - ٩] .

وما دُمتم قد رأيتم أن الأمور الموجودة التي تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل
باستقامة، وترون أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التي دخلتم فيها، فلماذا لا نتبع
منهج الله في الأمور التي لنا دَخَلَ فيها؟ إنك إن عملت في الحياة بمنهج الله الذي
خلق الحياة فإن أمورك تستقيم لك كما استقامت الأمور العليا في الكون .
واحفظ جيداً قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾
[الرحمن: ٧، ٨] .

ليحفظ كلُّ منا هذا القول لنعرف أن الأمور العليا موزونة، لأن يد الإنسان لا
تدخل فيها . . إن السماء لا تقع على الأرض لأنها محكومة بنظام مُحَكَّم تماماً .
والأرض لا تدور بعيداً عن فلكها؛ لأن خالقها قد قَدَّر لها النظام المحكم تماماً .
وأنت تدخل إلى دار القضاء مثلاً ترى رسماً للميزان موضوعاً في المكان الذي
يجلس فيه القاضي . . هل القاضي يأتي بميزان مادي ليحكم القضايا؟ أم أن هناك
ميزاناً في كل نفس، وضعه الله لُتُفَرَّقَ أنت بين الحق والباطل .

حينما تجد إنساناً في تفكير عميق، فإذا سألته: لماذا هو صامت؟ قال لك: إنه
يزنُ الأمور قبل أن يتكلم . . هل جاء بميزان مادي؟ أم أن الميزان داخل نفسه . .
يضع الحقيقة هنا، ويضع هذه الحقيقة هنا، ويزنُ كلَّ شيء بعقله .

وهل إذا جَرَّ عليك إنسانٌ وأخذ منك حقوقك، وقلت له: إن كفة الميزان
مالت ناحيتك . . أياكون هناك ميزانٌ مادي؟ إن الميزان في الدنيا معناه الحق، معناه
التفريق بين الحق والباطل، ومعناه العدل في كل شيء .

العقل يستطيع أن يعرف جيداً في كل أمر من أمور الدنيا، يستطيع أن يعرف إذا
كانت كفة الميزان معتدلة أو مائلة . . الله وضع فينا فطرة الإيمان، ومع فطرة الإيمان
فهمنا فكرة الميزان لنفريق بين الحق والباطل، ولا يستطيع إنسانٌ أن يمضي في الحياة
دون أن يكونَ هناك ميزان في نفسه، يزن الأمور حتى بعيداً عن الدين . . هذا الميزان
في عقل كلِّ مِثْلٍ وفي تكوينه .

الإنسان عندما يُبعث يوم القيامة يكون معه سائق وشهيد . . السائق عرفناه، هو

الْمَلَكُ الْمُكَافَ بِهِ لَكِي يُوصِّلَهُ إِلَى الْمَكَانِ الْمَحْدَدِّ لَهُ، فَلَا يَذْهَبُ يَمِينًا أَوْ يَسَارًا، وَإِنَّمَا يَسُوقُهُ أَمَامَهُ . . وَالنَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَذْهَبُونَ جَمَاعَاتٍ: جَمَاعَاتُ الْمُؤْمِنِينَ . . وَجَمَاعَاتُ مَنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَّا الشَّهِيدُ الَّذِي مَعَ الْإِنْسَانِ فَهُوَ عَمَلُهُ يَشْهَدُ عَلَيْهِ .

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] .

الحق - تبارك وتعالى - يُصَوِّرُ لَنَا مَوْقِفًا مِنْ مَوَاقِفِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ يَقِفُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يَقْرَأَ كِتَابَهُ بِنَفْسِهِ، لِيَكُونَ هُوَ حُجَّةً عَلَى نَفْسِهِ، وَيُقَرَّرَ بِمَا اقْتَرَفَ، وَالْإِقْرَارُ سَيِّدُ الْأَدْلَةِ .

فهذا موقف لا مجال فيه للعناد أو المكابرة، ولا مجال فيه للجدال أو الإنكار، فَإِنْ حَدَثَ مِنْهُ إِنْكَارٌ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَاهِدًا مِنْ جَوَارِحِهِ، فَيُنْطَقُهَا الْحَقُّ سَبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ٢١] .

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه في الدنيا، وجعلها خاضعةً لإرادته لا تعصيه في خير أو شر، فبيده يضرب ويعتدي، وبيده ينفق ويُقِيلُ عشرة المحتاج، وبرجله يسعى إلى بيت الله، أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه في كل هذا مُسَخَّرَةٌ طَائِعَةٌ لَا تَتَأَبَّى عَلَيْهِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ كَارِهَةً لِلْفِعْلِ؛ لِأَنَّهَا مُنْقَادَةٌ لِمَرَادَاتِكَ، فَفَعَلَهَا لَكَ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى الرِّضَا عَنْكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ رِضَا انْقِيَادٍ .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية، فَأَمْرُهُ نَافِذٌ عَلَى جُنُودِهِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ خَطَاً، فَإِذَا مَا فَقَدَ هَذَا الْقَائِدُ السَّيْطِرَةَ وَأَصْبَحَ الْجُنُودُ أَمَامَ الْقَائِدِ الْأَعْلَى بَاحُوا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ .

كذلك في الدنيا، جعل الله للإنسان إرادةً على جوارحه، فلا تتخلف عنه أبداً، لكنها قد تفعل وهي كارهة، وهي لاعنة له، وهي مُبْغِضَةٌ لَهُ وَلِفِعْلِهِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَانْحَلَّتْ مِنْ إِرَادَتِهِ، وَخَرَجَتْ مِنْ سَجْنِ سَيِّطَرَتِهِ، شَهِدَتْ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ مِنْهُ .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

أي: كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك.

إن من دَقَّةِ الكتاب الذي سيحمله الإنسان معه يوم الحساب أن المجرمين سيقولون: ﴿يَوَلِّينَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، أي: لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدّها وحسبها.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فكل ما فعلوه مُسَجَّلٌ مُسَطَّرٌ في كتبهم.

﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فالحق - سبحانه وتعالى - عادل، لا يؤاخذهم إلا بما عملوه.

فالحق - سبحانه وتعالى - أحصى أعمالهم غاية في الدقة، حتى الأشياء النافعة التي نسيها الإنسان، والأشياء الصغيرة سيجدها في كتابه، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

شهادة الإنسان على نفسه:

ما معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]؟ وما هو الدليل الدامغ يوم القيامة لأن يكون الإنسان شهيداً على نفسه، إلا أنه يرى كل حياته أمامه، كفيلم سينمائي سَجَّلَ كل شيء، فإذا أنكر أي شيء فإنه يُواجه بما كان يفعل بالدليل الدامغ.. وإذا كانت قدرة الإنسان في تسجيل الأحداث قد وصلت إلى هذا الحد المذهل، فما هي قدرة الله سبحانه وتعالى.

قول الحق: ﴿أَفَرَأَىٰ كُنْبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

أي: كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك.. فكل إنسان ستشهد عليه نفسه بكل ما حدث، ولن يستطيع أن ينكر شيئاً، لأنه سيرى كل شيء، لعل الله - سبحانه وتعالى - غير قادر على أن يُرينا حياتنا كلها، لحظةً بلحظة في ساعة الحساب.. أليس هذا ممكناً؟

إذن: ففيم المجادلة؟ وهل قدرة الملائكة أقل من قدرة الإنسان، بحيث تستطيع أية قوة من قوى التجسس في الدول المتقدمة، أو حتى المتخلفة.. أن تسجل على الإنسان الأحداث التي تقع وتواجهه بها، ولا تستطيع الملائكة الحفظه الأبرار أن تقوم بأكثر من هذا، إن مجرد النقاش في أن هذا ممكن أن يحدث يرفضه العقل.

ونحن حين نمثل ما سيحدث يوم القيامة بالإمكانات المادية الموجودة في

الدنيا، فإنما نحاول أن نقرب ذلك من الأذهان . . ولكن الله الذي ليس كمثله شيء لن يجعلنا نرى كتابنا بهذه الطريقة البدائية . . بل في علمه أشياء وأشياء .

والمهم أن الإنسان سيرى كل ما فعله، وسيشهد ويسمع كل كلمة قالها، حتى يكون هو الشهيد على نفسه، ويكون عدلُ الله وأفعاله فلا يستطيع أن ينطق .

حينما يُواجه الإنسان بكتابه لا يستطيع أن ينكر، ولا أن يقول لم أفعل . ولا أن يجادل في أنه ظلم . . بل كلنا يوم القيامة سنشهد بعدل الله، حتى الذين سيخلدون في نار جهنم سيشهدون أن عقابهم حق، وأنهم الذين ظلموا أنفسهم، وأن الله لم يظلمهم .

قد يطلبون الرحمة . . قد يطلبون فرصة أخرى . . ولكنهم لا يمكن أن يدعوا مهما كان الكبر في صدورهم أنهم ظلموا في يوم الحساب .

حساب أئمة الكفر

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَرِيقٌ لَّنَحْشُرَنَّهُمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾ [مريم: ٦٨، ٦٩] .

وهكذا نرى مشهداً آخر يوم القيامة . . الكفار وهم حول نار جهنم ساجدون من الذل والهوان، ومن وسط هؤلاء الكفار والعاصين يأتي الله - سبحانه وتعالى - إلى أئمة الكفر، أولئك الذين كانوا يحاربون دين الله في الأرض، ويحاولون أن يضلوا المؤمنين . . تجدهم في كل مكان يسخرون من الذين آمنوا، ويُسقَّهون منهج الله .

وهم في ذلك أشداء . أي: يستخدمون كل ما لديهم من قوة، وكل ما يملكون من وسائل، فالإنسان حين يكون شديداً يجمع كل قواه لمواجهة الحدث الذي يشغله، وهؤلاء في الدنيا كانوا أشداء على دين الله، يستخدمون كل ما في إمكانهم من وسائل لمحاربة هذا الدين .

والحقيقة أن الكفار هم أغنى خلق الله من ناحية المنهج، فالله - سبحانه وتعالى - يستخدمهم في إثبات منهجه، بينما هم يحسبون أنهم يفسدون هذا المنهج .

واقراً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣١] .

هذه صورة يعطيها الله - سبحانه وتعالى - لنا عن الكفار، إنهم في الدنيا يسخرون من المؤمنين، ويتغامزون عليهم، إلى آخر ما نراه في هذه الأيام مما يحدث بالنسبة للمؤمنين، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج الله .

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فهؤلاء الكفار إنما يشبتون منهج الإيمان، ويكونون هم أنفسهم دليلاً على صدق القرآن، وأنه مُنَزَّل من الله سبحانه وتعالى لأن الله أخبرنا في كتابه العزيز بأن هؤلاء سيسخرون ويتغامزون على المؤمنين في الدنيا، ولو أن لديهم فطنة لما اتخذوا هذا السلوك .

وحينئذ كنا سنقول: إن القرآن قد قال لنا: إن المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا في الدنيا، ولم يسخر منا أحد، ولم يتغامز علينا أحد، ولكن كَوْنَهُمْ سخروا وتغامزوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج الله، لأنهم فعلوا ما أنبأنا الله أنهم سيفعلونه .

وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلاً على صدق المنهج، لأنهم جاءوا وفعلوا ما أخبرنا الله أنهم سيفعلونه، ولا يجب أن يضيق صدر المؤمن بهذه الأفعال، بل كلما حدثت قال المؤمن: سبحان الله . . لقد أخبرنا الله أنهم سيفعلون وفعلوا . . وصدق الله العظيم . . وأصبح هؤلاء المجرمون مُثبتين للإيمان، وهم يحسبون أنهم سيهدمونه .

تماماً كقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾ [الكهف: ٥١] .

والإنسان لا يدري كيف تمَّ الخلق . . ولا ما هي مراحلها . . إلا أن يخبرنا الله - سبحانه وتعالى - بها . . فهو جَلَّ جلاله يقول:

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الكهف: ٥١] .

وما داموا لم يشهدوا خَلْقَ السماوات والأرض ولا خَلَقَ أنفسهم . . فلا بُدَّ أن نأخذ ذلك عن الله، فما يُنبئنا به الله عن خَلْقِ السماوات والأرض وعن خَلْقنا هو الحقيقة، وما يأتيها عن غير الله - سبحانه وتعالى - فهو ضلال وزيف .

ونحن الآن نجد بحوثاً كثيرة عن كيفية السماوات والأرض، وخلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان. وكلها لن تصل إلى حقيقة. بل ستظل نظريات بلا دليل . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾ [الكهف: ٥١] ،

أي: أن هناك مَنْ سيأتي ويضل. ويقول: هكذا تم خلق السماوات والأرض، وهكذا خلق الإنسان.

هؤلاء المضلُّون الذين جاءوا بأشياء هي من علم الله وحده.. جاءوا تثبيتاً لمنهج الإيمان.. فلو لم يأت هؤلاء المضلون، ولو لم يقولوا خلقت الأرض بطريقة كذا. والسماء بطريقة كذا. لقلنا: إن الله تعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أن هناك مَنْ سيأتي ويضل في خلق الكون وخلق الإنسان، ولكن كونهم أتوا هو في حد ذاته دليل على صدق القرآن الذي أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا بقرون.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا﴾ [مريم: ٦٨، ٦٩].

الحشر: أن يبعثهم الله من قبورهم، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغرونهم بالمعصية ويزيئونهم لهم.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ [مريم: ٦٨].

يقال: جثا يجثو فهو جاث. أي: ينزل على رُكْبَتَيْهِ، وهي دلالة على الذلّة والانكسار والمهانة التي لا يقوى معها على القيام.

الذلُّ والهوان يوم القيامة

يأتي الله - سبحانه وتعالى - يوم القيامة، وينزع أئمة الكفر هؤلاء.. ومعنى ينزعهم أنه يأخذهم بالقوة والقهر دون إرادتهم، فكأنهم يُنزعون نزعاً، ويأتي بهؤلاء على رءوس الأشهاد في المحشر، يرى الناس - كل الناس - هؤلاء الذين كانوا أعزاء في الدنيا يبارزون الله بالمعاصي.. في قمة الذل والهوان يوم القيامة.. وكأن الله يأخذهم من قمة العز والنعيم التي كانوا فيها في الدنيا، إلى قمة الذل والهوان في الآخرة وأمام خلق الله جميعاً.

على أننا قبل أن نمضي في الحديث عن مشاهد يوم القيامة.. لا بدُّ لنا من وقفة عند حديث رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته. قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: حتى أنا».

إذا كانت هذه هي الحقيقة، فلماذا الحساب؟ وإذا كان الإنسان لا يدخل الجنة بعمله، فلماذا العمل الصالح شرطٌ لدخول الجنة؟ ألم يكن من المنطقي أن الله - سبحانه وتعالى - يدخل مَنْ يشاء الجنة برحمته وكفى؟

نقول للذين يثيرون هذا الكلام: إنكم لم تفهموا معنى حديث

رسول الله ﷺ، ذلك أن الأعمال الصالحة عند الله - سبحانه وتعالى - لا تزيد من مُلكه شيئاً. . والعمل الصالح مهما بلغ لا يمكن أن يتكافأ مع النعم التي أوجدها الله - سبحانه وتعالى - فالنعم الموجودة في هذا الكون. . والنعم التي يُنعم بها الله علينا لا يمكن أن تتساوى معها الأعمال الصالحة في الدنيا مهما كانت.

ولقد قيل: إن هناك عبداً من عباد الله كان يعبد الله ليلاً ونهاراً، ولا يكفّ عن الصلاة والتسبيح والركوع والسجود. . حتى أنه قُبِضَ وهو ساجد. . وعندما جاء الحساب يوم القيامة قيل له: ادخل الجنة برحمة الله، فقال: بل أدخل الجنة بعملتي.

فجاءوا بالميزان، ووُضِعَتْ فيه كل الأعمال الصالحة للرجل. . ووضع في الكفّة الأخرى نعمة النظر وحدها، فرجحت نعمة النظر. فقال الرجل: أدخل الجنة برحمة الله، فالعمل الصالح الذي يقوم به الإنسان في الدنيا لا يتساوى مع نعم الله عليه.

والإنسان المؤمن عندما يتبع منهج الله، فإنه لا يعمل عملاً ينفع الله جلّ جلاله. . ولكن منهج الله لنفع الإنسان. . يعطيه الحياة الطيبة في الدنيا، ويمنع عنه كثيراً من الشرور التي يتعرض لها إذ لم يتبع المنهج. فكما قلنا من قبل: إن المنهج يحمي الإنسان من المجتمع، وينقله من حياة الغابة إلى الحياة الآمنة المطمئنة.

تماماً كما تقول لابنك: ذاكر حتى تنجح. فإذا نجحت فلك مكافأة. . المذاكرة لا تفيد الأب، ولكنها تفيد الابن في مستقبله، وتزيد أمامه فرص الحياة لكي ينشأ، وهو قادرٌ على أن يكسب قوته، وقادر على أن يتقدم في المجتمع إلى أكبر المراكز.

إذن: فالمذاكرة للابن، وليست نفعاً للأب، فإذا أعطاه الأب مكافأة على نجاحه، فذلك فضل من الأب على ابنه.

والله - سبحانه وتعالى - حين وضع لنا المنهج، لم يضعه ليحقق لنفسه تبارك وتعالى نفعاً، فأنت حين تصلي لا تفيد الله صلاتك، وإنما تعود عليك هذه الصلاة بالنفع بأنك تنضبط انضباط عبادة، يجعل الله معك، ينظرك وقت الشدة، ويستترك وقت الفضيحة، ويرزقك وقت العُسْر.

القوانين عند الله

الله قادر على أن يجعل خَلْقَه جميعاً يروون كل ما يحدث دون عناء أو تعب، كما ترى الدنيا كلها الشمس دون عناء أو تعب، وكما يرى الناس اليوم باستخدام

قوانين الله التي وضعها الله - سبحانه وتعالى - في الكون ليروا جميعاً في وقت واحد. . وفي ملايين الأماكن المتفرقة حدثاً يقع في العالم في نفس لحظة وقوعه عن طريق الأقمار الصناعية.

وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن. . فما هي قدرة البشر بعد آلاف السنين في نقل الأحداث بالصوت والصورة إلى كل أجزاء الدنيا، ثم بعد ذلك ما هي قدرة الله - سبحانه وتعالى - في الآخرة؟

بقي المشهد الذي يتم بين الذين عبدوا غير الله عن علم وعن قصد، وهم شياطين الجن والإنس، أولئك الذين أفسدوا في الأرض.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والله - سبحانه وتعالى - يخاطب الجن، أو يخاطب شياطين الجن، فيقول لهم: لقد أخذتم نصيباً كبيراً من الإنس إلى جهنمكم، فأضللتموهم وقُدموهم إلى طريق الفساد، والله - سبحانه وتعالى - حين يخاطب الجن، ويقول لهم: استكثرت من الإنس والجن، لا يردون.

ولكن مَنْ الذي يتكلم؟ الذي يتكلم هم الإنس الذي اتبعوا شياطين الجن، يقولون: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ﴾، أي: المتابعون لهم من شياطين الإنس: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨].

إذن: فالكلام هنا من الإنس عن أنفسهم، وأيضاً عن أوليائهم من الجن، إنهم يدافعون عن شياطين الجن الذين أخذوا كثيراً من الإنس إلى جانبهم. . كيف ذلك؟ لأن الله - سبحانه - أعطى الجن في تكوينهم ما لم يُعطه للإنسان من ناحية التكوين، فجعل الجن يرون الإنس، بينما الإنس لا يرونهم، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وأعطى الله الجن أيضاً قوة أكثر من الإنس، ولذلك طلب سليمان مَنْ يحضر له عرش بلقيس ملك سبأ قبل أن تصل إليه، ومعنى هذا أن سليمان قال هذا الطلب بعد أن غادرت بلقيس ومَنْ معها اليمن في طريقهم إلى بيت المقدس. وكان في مجلس سليمان الإنس والجن وغيرهم.

لم يتكلم إنسي واحد ليقول: إنه يستطيع أن يُحضر عرش بلقيس. . لماذا؟ لأن الإنس مخلوق من طين، إمكانياته محدودة، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه

المهمة، بينما الجن مخلوق من نار، يستطيع أن ينفذ من الجدران والسواتر الحديدية، وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة.

ولذلك، فإن المخلوق من نار، قانونه نافذٌ بطبيعة تكوين النار التي تشع، فيحترق إشعاعها الجدران، بحيث تصل حرارتها إلى مَنْ يجلس وراء الجدار. . هذه بعض قوانين الجن التي تختلف عن قوانين الإنسان.

لذلك عندما قال سليمان عليه السلام: ﴿يَتَأَيَّهَا الْمَلَكُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

سكت الإنس الذين كانوا في مجلس سليمان، لأن نُقِلَ العرش من اليمن إلى مكان سليمان يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة، وهذه لا تتوافر في الإنس بحكم خَلْقهم، ولذلك كان أول مَنْ تكلم هو عفريت من الجن، أما الإنسان فلم يُدخل نفسه في تجربة يعلم أنه لا يستطيعها.

فسليمان قد علم أن ملكة سبأ في طريقها إليه لتعلن إسلامها، وهو يريد من الذي يذهب ليأتي بالعرش من قصر ملكة سبأ. . أن يتميز أولاً بالسرعة التي تتفوق على الإنسان بمراحل كثيرة، لأن هذا الذي سيذهب جالساً مع سليمان، بينما ملكة سبأ في طريقها إلى سليمان.

ولذلك، فلا بدَّ أن يقطع المسافة من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ، ثم يحل العرش، ثم يحمله ويكون حريصاً عليه، ثم يأتي به إلى سليمان، كل هذا في وقت أقل من الذي ستقطع فيه بلقيسُ ملكة سبأ المسافة بينها وبين سليمان، وكانت قد قطعتُ فعلاً جزءاً من الطريق.



كيف ينجو الإنسان يوم القيامة؟

إذا كان العمل الصالح لا ينفع إلا صاحبه، وكان الموقف يوم القيامة أن كل الأعمال الصالحة لا تتساوى مع نِعَمَ الله . . فلماذا الحساب؟ نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - جعل هذه الأعمال الصالحة شرطاً لفضله ورحمته . . فأنت إذا لم تقدم هذا العمل الصالح في الدنيا فإنك لا تستحق، ولا تدخل ضمن مَنْ يستحقون فَضْلَ الله ورحمته في الآخرة .

ولذلك فَلَيْكِي تحصل على الْفَضْل، ولكي تستحق الرحمة لا بُدَّ أن تقدم العمل الصالح أولاً، فإذا لم تقدمه منع عنك هذا كله . . وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ: « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله » .

أي: أن هذه الأعمال الصالحة عندما تُوضَع في الميزان لا تُدْخِل صاحبها الجنة، ولكنها شرطٌ لكي يشملهُ الله برحمته فيدخل الجنة، ويفيض الله من فضله عليه ما يشاء .

على أننا لا بُدَّ أن نتنبه إلى أن الله - سبحانه وتعالى - قد بيّن لنا هذا الفضل في الدنيا، فجعل الحسنه عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وجعل السيئة بمثلها، ووضع معها المغفرة والرحمة والتوبة ليمحو منها الكثير، ولو أننا كنا نُحاسب بعَدَل الله وحده لكانت السيئة تساوي الحسنه، ولَمَّا تَدَخَّلَت مغفرة الله ورحمته لتمحو السيئات وتزيلها .

ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يلفتنا ونحن في الدنيا إلى أنه يعاملنا بفضله . . ولو عاملنا بعَدْلِهِ لَهْلَكَ كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ بذنوبهم، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ مِنْ دَابَكَةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥] .

إذن: فالحق - سبحانه وتعالى - ونحن في الدنيا يعاملنا بالفضل . . فإذا كنا في الآخرة كان فضله أعم وأشمل، فكلُّ نعمة من نِعَمِ الله في الجنة هي من فضل الله علينا، وليست حقاً مُكْتَسَباً لنا .

وإذا كان رسول الله ﷺ، وهو قمة الإيمان، وقمة العمل الصالح والمعصوم

من الله - سبحانه وتعالى - يقول: «حتى ولا أنا».. فهو تشبيه يريد رسول الله ﷺ أن يعطيه لنا لتؤكد أنه مهما بلغت الأعمال الصالحة، فالإنسان محتاج لفضل الله ليدخل الجنة.

فرسول الله ﷺ أكثرنا عملاً، وأقلنا ذنباً، وأقربنا إلى الله - سبحانه وتعالى - فإذا كان الرسول بكل هذه الصفات سيدخل الجنة برحمة الله، فمن باب أولى ألا يدعي عبد أو يقول إنه سيدخل الجنة بعمله، فكلنا محتاجون لفضل الله، ذلك الفضل الذي يمحو السيئات، ويضاعف الحسنات أضعافاً مضاعفة.

على أننا لكي نكمل الصورة لا بد أن نتحدث عن مشهد من مشاهد القيامة.. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

هل هذا القضاء حساب؟ وهل سيحاسب النبيون يوم القيامة؟ إذا أخذنا الآية فإنها تجمع بين الشهداء والنبيين، والمعروف أن الشهداء يدخلون الجنة بلا حساب.. وفي سورة يس جاء العبد الصالح ليدعو الناس إلى الإيمان ويطالبهم باتباع المنهج الذي نزل على الرسول.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَرُونَ أَتَبْعُوا الْمُرْسَلِينَ أَتَبْعُوا مَنْ لَا سَبْطَ لَهُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].. إلى آخر ما جاء في الآيات.

عندما قال الرجل الصالح ذلك، ودعا الناس إلى اتباع النبيين قتله الكفار.. فماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

أي: أن الله - سبحانه وتعالى - قسم له دخول الجنة ساعة استشهاده.. ولم يُنظره إلى يوم القيامة، والدليل على ذلك أن الآية تقول: ﴿يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

ولو كان هذا القضاء في الآخرة لما قال الرجل: ﴿يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، لأنه في هذه الحالة وفي يوم الحساب سيعلم قومه جميعاً بدخوله الجنة.. إذن: فالله - سبحانه وتعالى - قسم الجنة ساعة الاستشهاد، وإذا كان الشهداء يتخطون مرحلة الموت مصداقاً، لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وما داموا أحياء عند ربهم، والحياة عند الله هي الحياة الخالدة التي لا موت

بعدها، وما داموا هم يُنعمون في هذه الحياة فقد قسم الله لهم الجنة ساعة استشهدوا. . بينما أُجل باقي خلق الله إلى يوم القيامة.

هذه هي منزلة الشهداء عند الله - سبحانه وتعالى - والنيون منزلتهم أعلى من الشهداء، لأنهم في الآية الكريمة: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

أي: أنهم يسبقون الشهداء. . ولكن النبيين يحضرون يوم القيامة لا ليحاسبوا على أعمالهم، ولكن ليكون كل نبي شهيداً على أمته، وتكون الأمة شاهدة على أن الرسول قد بلغ الرسالة، وبذلك يحضر الشاهد والمشهود. . وفي هذا يكون هناك تقريع للعاصين حتى لا يستطيعوا أن ينكروا أن الرسول قد بلغ، وحتى يكون هذا التقريع أمام خلق الله كلهم.



سؤال عيسى عليه السلام

الأنبياء معصومون . فكيف يكون هناك حساب لمن عصمهم الله من المخالفات والذنوب والمعاصي . . وإنما شهادة على أن الرسول قد بلغ . . وتقريع لأولئك الذين حرّفوا المنهج أو خالفوه .

ولذلك، فإنك لو التفت لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

[المائدة: ١١٦] .

يأتي هذا السؤال من الله - سبحانه وتعالى - إلى عيسى ابن مريم عليه السلام، حتى لا يستطيع أحد من الذين اتخذوا عيسى ابن مريم إلهاً، أن يأتي ويدّعي يوم القيامة أن عيسى عليه السلام هو الذي أمر الناس أن يعبدوه، ولذلك يأتي الله جلّ جلاله بعيسى ابن مريم أمام مشهد الخلق جميعاً ليسأله:

﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] .

ويرد عيسى عليه السلام ليكذب أولئك الذين اتخذوه إلهاً، ويُقرّعهم فيقول:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] .

وهكذا يكون عيسى عليه السلام شاهداً على أولئك الذين اتخذوه إلهاً بأنهم كافرون . . وهكذا يأتي الأنبياء جميعاً . كل نبي يكون شهيداً على أمته بالمنهج الذي بلغه . . حتى لا يستطيع أحد أن يجادل ويقول: إن الرسول قد قال هذا.

﴿يَوْمَ يُذِىرُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾

[النساء: ٤٢] .

هكذا يجعل الله سبحانه العصاة والكافرين يشهدون على أنفسهم بأنهم كاذبون .

هذا هو حسابُ النبيين والشهداء . . فهؤلاء لا يُحاسَبون، لأن الله قد كتب لهم أن يدخلوا الجنةَ بغير حساب، بل إن هؤلاء يشفعون لغيرهم يوم القيامة، فرسول الله ﷺ يقول: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، لذلك فإن كل من ينكر شفاعته الرسل نقول له: اقرأ قول الحق - سبحانه وتعالى:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَى﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة (إلا) معناها أن هناك استثناء.. . فإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد كتب على نفسه أنه يستثني من خلقه مَنْ يشاء ليكونوا شفعاء، فإن أجدر الناس بهذا الاستثناء هم أنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليلبغوا منهجه إلى البشر.

ورسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والمُرسل إلى الناس كافة.. . تكون له الشفاعة الأولى، لأنه لم يُرسل إلى قوم معينين كباقي الرسل.. . وإنما أُرسل إلى البشرية جمعاء، ولذلك فإن أمته هي أكثر الأمم عدداً، وشفاعته هي أكثر الشفاعات اتساعاً.. . إذن: فالشفاعة مثبتة لرسول الله ﷺ بنص القرآن الكريم.

على أن هناك صوراً أخرى أخبرنا الله - سبحانه بها في القرآن الكريم.. . تأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْيَحْيَى وَالْإِسْحَاقَ نَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

أي: أن الذين كفروا بالله سيأتون يوم القيامة ويؤمنون.. . طبعاً ما داموا قد رأوا كل شيء بعين اليقين.. . ماذا يقول الذين كفروا؟

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْيَحْيَى وَالْإِسْحَاقَ نَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

وهكذا تكون العداوة سافرة بين الإنسان وبين شياطين الجن والإنس يوم القيامة.. . ويعلم الإنسان علم اليقين أن أولئك الذين كانوا يُزينون له المعصية.. . الذين اتخذهم أخلاء في الدنيا كانوا أعدى أعدائه، وكانوا يريدون به السوء والهلاك، وكانوا يدفعونه دفعاً إلى المعصية والعذاب.. . وهؤلاء يُطلق الله - سبحانه وتعالى - عليهم في القرآن الكريم اسم القرين.

ولقد سمعنا أشياء كثيرة تُقال عن القرين.. . فهناك مَنْ يقول: إنه خُلِقَ مثل الإنسان، على نفس شكله وله صوته، ويلتزم الإنسان طول حياته بحيث يعرف كل شيء عنه، ولكنه يعيش مدة أطول منه.

ولذلك يقولون: إن الذين يمارسون تحضير الأرواح، إنما يقومون بتحضير هذا القرين الذي يأتي ليتكلم بنفس صوت الميت، ويحكي كل شيء عن حياته، لأنه

كان يلزمه فيها، حتى ليعتقد الحاضر أن روح الميت هي التي تتكلم .
والحقيقة أن الناس قد أخطأوا في فهم معنى القرين . مع أن الله - سبحانه
وتعالى - قد شرح لنا في آيات كثيرة معنى القرين، فقال تعالى :

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِفَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينُ﴾
[الزخرف: ٣٦ - ٣٨] .

وقوله عز وجل :

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧] .

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥] .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم قد بيّن لنا بما لا يدع مجالاً للشك والتأويل أن
القرين هو من شياطين الجن والإنس، وأن مهمته هو أن يبعد الناس عن منهج الله،
وأن يزين لهم المعصية، وأن يوسوس لهم بالسوء .



من مشاهد يوم القيامة الطلب من الله رؤية الشيطان الذي أغوانا

هذه مهمة القرين كما وضحها لنا القرآن الكريم . . ولكل إنسان منا قرين، يحاول أن يدفعه إلى النار، وأن يُدخلَ في قلبه الشكَّ في الإيمان، ويُزين له عبادة المال والدنيا، فإذا جاء يوم القيامة تبرأ القرين، وقال: يا رب ما أطغيته ولكن قلبه كان فاسداً.

وبعض الناس يستمعون إلى هذا القرين فيقودهم إلى النار، وبعض الناس يعصمهم إيمانهم من ذلك فيفوزون بالجنة، ولذلك فإن قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْغَيِّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا نَحْتَأْفَدَامَنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

معناه أن هؤلاء الكفار يريدون أن يروا رؤية العين والمشاهدة . . القرناء الذين زينوا لهم السوء .

وحيث إننا لا نرى في الدنيا شياطين الجن لأنهم محجوبون عنا، فكأن كل كافر يريد أن يرى شيطان الجن الذي وسوس له بالسوء، وقاده إلى الكفر، ليضعه تحت قدميه في النار حتى يذوقا العذاب معاً، وهي شهوة انتقام ودليل على الندم .

فالإنسان في الآخرة، وفي هذا الموقف العصيب، يريد أن يفتك بكل قوته بكل من قاده إلى العذاب، سواء كان جنياً أو إنسياً، وهذه العداوة الرهيبة تظهر في الآخرة في أكثر من مشهد من مشاهد يوم القيامة، أشدها عنفاً وقوة . . وهو مشهد اللقاء مع القرين، لأن هذا القرين هو الذي زين له المال الحرام، وأغراه بالدنيا حتى استجاب .

وألوان العذاب كثيرة في الآخرة، فجهم فيها منازل كثيرة، والله سبحانه وتعالى قد صوّر لنا الهول الأكبر في مشاهد يوم القيامة . . ليس فقط في الحوار الذي سيجري وهو كثير . . ولكن أيضاً فيما سيحدث للكافرين . . ولكي نستكمل صورة الحوار قبل أن ندخل في المشاهد الأخرى . . نأتي إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٧-٢٩].

وبعض الناس قد يتساءلون: فاليمين عند الناس هو الصراط المستقيم . . والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُ الْيَمِينِ﴾ [الإسراء: ٧١]، فكيف يأتونهم عن اليمين، ثم يقودونهم إلى النار؟

نقول لهم: إن اليمين هي جهة الابتداء إلى الأعمال، فالإنسان يأكل بيمينه، ويفعل معظم شؤونه حياته بيمينه، فهو يبدأ كل شيء باليمين، لأنها مركز القوة، فإذا احتاج إلى جهد أكبر استعان بشماله.

ونحن هنا نتحدث عن الإنسان العادي، ولا نتحدث عن الإنسان الأشول الذي تكون قوته في ذراعه اليسرى، فتلك حالات قليلة. إذن: فاليمين هي بداية الخير للإنسان في كل شيء، وهي التي تعينه في حياته في كل أموره.

فإذا قالوا: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨].

أي: إذا كنتم تزينون لنا الباطل على أنه حق . . تقولون افعل كذا وكذا . . فإذا قلنا لكم مثلاً: إن هذا حرام. حاولتم تزيينه لنا، تماماً كالذي يغريك بكأس من الخمر، فإذا قلت له إن الخمر حرام قال لك: إننا سنتناول الخمر في الجنة، ونسي أن هذا قانون . . وهذا قانون . . وأن ما سنتناوله في الجنة ليس كمثاله شيء في هذه الدنيا، لأنه صنعة الله خالصة للمؤمنين.

وبعض الناس يجادلون في هذه النقطة جداً كبيراً، ونحن لن ندخل في جدل في أن الخمر ليست لذة للشاربين، وطعمها مُرُّ حتى أن الإنسان يتجرعها بسرعة حتى لا يذوق طعمها، ولكنها في الآخرة: ﴿بِضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]، كما قال الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإنها تختلف اختلافاً ميبناً.

ولكننا نقول لهؤلاء جميعاً: إنكم لم تفهموا معنى العبودية لله ومعنى الإيمان . . معنى العبودية هو أن أطيع الله فيما قال . . فإذا قال: افعل فعلت، وإذا قال: لا تفعل امتنعت.

ومن هنا فإننا نتجه إلى القبلة وهي الكعبة في صلاتنا، لأن الله - سبحانه وتعالى - أمرنا أن نتجه إليها . . ولو قال الله سبحانه: اتجهوا إلى مكان آخر لاتجهنا إليه دون مناقشة، لأن الله المعبود هو الذي يختار وليس المخلوق العابد.

ومن هنا فإن منهج السماء قد نزل إلينا باختيار الله، وأطعناه طاعة عبودية لله، ونحن نُقَبِّلُ الحجر الأسود في الحج، ونرجم الأحجار التي تمثل

إبليس . . وهذا حجر وهذا حجر . . ولكن الذي يفرق بينهما في التقبيل أو الرجم هو أمر الله بأن نفعل هذا .

ولعل تغيير القبلة في ليلة النصف من شعبان كان اختياراً إيمانياً للمسلمين . . والله - سبحانه وتعالى - موجود في كل مكان، وله المشرق والمغرب، ولكن حين نزل الوحي بتغيير القبلة، وأن يتجه المسلمون إلى البيت الحرام بدلاً من اتجاههم إلى بيت المقدس .

لم يكن هذا إضافة للتكليف الإيماني، ذلك أن اتجاهي إلى الكعبة المشرفة، أو اتجاهي إلى المسجد الأقصى . . كلاهما يأخذ مني نفس الجهد، ولذلك لم تكن هناك إضافة لجهد إيماني جديد بحيث يُقال: إن زيادة في التكليف قد حدثت .

ولكن الله - سبحانه وتعالى - حين أمر بتغيير القبلة كان في ذلك حكمة، هي الاختبار الإيماني للناس، ولقد كان الله قادراً أن يجعل المسلمين يتجهون إلى الكعبة المشرفة من أول صلاة، ولكنه سبحانه أرادنا أن نفهم أنه لا شيء في هذا الكون مقدس لذاته، أو له منزلة أعلى من خصائصه الذاتية، ولكن التقديس يأتي من اختيار الله لهذا الشيء .

فإذا اختار الله مكاناً لِقِبلة الصلاة اتجهنا إليه، فإذا أمرنا أن نتجه إلى مكان آخر اتجهنا إليه دون نقاش . . لماذا؟ لأنه لا المكان الأول ولا المكان الثاني لهما قدسية في ذاتهما بعيدة عن الله، بل إن القدسية تأتي من اختيار الله مكاناً فلا بُدَّ أن نخضع لهذا الاختيار . . فإذا أمرنا بأن ننصرف عنه إلى مكان آخر . . فإننا نطيع الأمر، لأننا لا نخضع للمكان نفسه، لكننا نخضع لاختيار الله له . . ولذلك كان تغيير القبلة امتحاناً إيمانياً للمسلمين .

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] .

لماذا وصف الله - سبحانه وتعالى - هؤلاء الناس بالسفهاء؟ لأنهم لم يفتنوا إلى المنطق الإيماني في عبادة الله . ذلك المنطق الذي يجعل اختيار الله هو المفضل والمميز لمكان عن آخر . . وليس المكان نفسه .

لذلك فإن الجدل في الآخرة حول قولهم:

﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ نَافِرِينَ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٢٨] .

أي: تلبسون المعصية ثوب الحلال زيفاً، فيرد عليهم أولئك الذين أضلوهم: ﴿ بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ٢٩] .

أي: أنه لو كان الإيمان في قلوبكم لاتبعتم منطق الإيمان، وما استمعتم إلينا، وكنتم تأخذون علة تنفيذ الأمر أو سبب تنفيذ الأمر أنه صادر من الله دون أن تبحثوا عن أسباب أخرى، فيكفي أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنطيع ولا نفعل.

والذين مثلاً يحاولون الآن أن يبرروا تحريم لحم الخنزير بأنه يأتي بالدودة الشريطية، وبأنه يسبب السرطان وغيره، نقول لهم: لو أخذنا هذا المنطق ما كنا مؤمنين، ولكننا لا نأكل لحم الخنزير لأن الله قد حرّمه، ولو كان لحم الخنزير يشفي كل أمراض الدنيا ما أكلناه، لأنه ما دام الله قد حرّمه فنحن نطيع أمر الله، ولا نتنظر حتى نعرف الحكمة من التحريم لكي نمتنع.

فالمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون تلك الأمراض القاتلة التي يسببها لحم الخنزير، ولكنهم امتنعوا عنه لأن الله حرّمه، وكان كافياً جداً في منطق الإيمان أن يكون الامتناع بتحريم الله له.. دون أن نُجهد أنفسنا في معرفة العلة من التحريم.

ولو أخذنا كل شيء بمنطق أننا لا بُدَّ أن نعرف العلة والسبب لكان هذا منطقاً دنيوياً، وليس عبادة لله، ولا يدخل في منطق الإيمان، والله - سبحانه وتعالى - يريدنا مؤمنين به إلهاً، ويكفي أن يقول افعل لكي نفعل.

إذن: فهؤلاء الذين يطيعون منطق الإيمان المعكوس من بعض الناس، ليحلوا ما حرّم الله تحت أي ادعاء من الادعاءات، نقول لهم: إن هذا المنطق هو الذي يتخذه بعض مُدّعي النبوة وبعض المذاهب الخارجة عن الدين، فهم يُحلون ما حرّمه الله تحت ادعاءات مختلفة.

ومن الذي يتبعهم؟ هم أولئك الذين في داخل نفوسهم مَيْلٌ للمعصية، وحبٌ لاتباع الشهوة، لذلك لا تجد مذهباً من هذه المذاهب المنحرفة، إلا وهو قائم على تحليل ما حرّمه الله، وبمنطق الإيمان المزيف.

فنجد مثلاً البهائية والقاديانية وغيرهما من المذاهب التي تريد إباحة الزنا أو زواج المتعة، أو تريد أن تُحرّم ما أحله الله من تعدد الزوجات.. تقوم بذلك بادعاءات زائفة وتفسيرات منحرفة بالنسبة لآيات القرآن الكريم.

ولذلك فهي تحاول أن تُوهم الناس بأنها أكثر فهماً للقرآن من رسول الله ﷺ الذي نزل عليه هذا القرآن، أو من المسلمين الأوائل، ولا نجد مذهباً من هذه المذاهب يجاهر بالكفر أو يعلن أنه ابتعد عن الإيمان، بل كلها تدّعي زيفاً أن خطئها هو الإيمان الصحيح.

وهذا معنى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾
[الصفات: ٢٨]. أي: كنتم تدخلون إلينا بمنطق الإيمان والنبوة الكاذبة.

ويوضح الله - سبحانه وتعالى - أتباع هؤلاء في قوله: ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾
[الصفات: ٣٠]. أي: أن الميل للمعصية والكفر كان في قلوبكم، فلما قلنا ما قلناه لم
تتبعونا بمنطق الإيمان، بل اتبعتمونا لأن كلامنا صادف هوى نفوسكم، ولولا أنكم
طاغون منذ البداية ما كنا استطعنا أن نستميلكم تحت أي شكل من الأشكال.



وهذا هو الطريق

بعد هذا الحديث الطويل عن النار وأصحابها، وعن جهنم ودركاتها، يجدر بنا أن ننير طريق الجنة للناس فهدف المصلحين والدعاة دائماً هو إرشاد الناس إلى طريق الخير الموصل إلى جنة رب العالمين . . لذلك كان لا بد من الحديث عن طريق الأنبياء والصالحين والشهداء لنكون في موكبهم المبارك إلى نعيم الله عز وجل .

هذا هو الطريق أيها السائرون . . فإلى الجنة دار النعيم التي عرّفها لكم . . هذا هو طريقها واضحاً مُعَبِّداً، عليه أعلامه، وفوقه أنواره . . وها أنتم في مبتداه، فسيراً حثيثاً إلى منتهاه، حيث أبواب الجنة مُفْتَحَةٌ أيها السالكون!! .

إليكم الطريق كما رسمه رسول الله ﷺ في قوله: «تركتمكم على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك» .

وقال ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا مَنْ أْبَى، قيل: وَمَنْ يَأْبَى يا رسول الله؟ فقال: مَنْ أَطَاعَنِي دخل الجنة، وَمَنْ عَصَانِي فقد أْبَى» .

إنه ﷺ في هذين الحديثين قد بيّن الطريق ورسمه واضحاً لكل ذي بصيرة، فهلّم أيها الإخوان لنسير سوياً، إخواناً مُتَحَابِّين وأصدقاء متعاونين، فهيا بنا . . واسمحوا لي أن أتقدمكم رائداً لكم لأصف طريقكم إلى جنة ربكم، ودار إقامتكم وكرامتكم .

إن الطريق أيها الإخوة السائرون بين أربع كلمات: اثنتان سالتان، واثنتان موجبتان. فالسالتان: الشرك والمعاصي، والموجبتان: الإيمان والعمل الصالح. ومن هذه الكلمات الأربع يتكوّن الطريق القاصد إلى الجنة دار الإقامة والكرامة .

وها هو ذا قد أشير إليه بكلمتي لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إذ الأولى تعني أنه لا معبودَ بحق إلا الغفور الودود، فليُعبَد وحده بالإيمان واليقين، والطاعة له ولرسوله بالصدق والإخلاص الكاملين .

والثانية تعني أن النبي محمداً هو الرسول الخاص ببيان كيف يُعبَد الله وحده في هذه الأكوان، وأنه لا يتأتّى لأحد أن يعبد الله بدون إرشاده ﷺ وبيانه . .

فلنسلك الطريق مسترشدين بإشارة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .

فلنعتقد جازمين أن خالقنا هو الذي خلق هذه العوالم ودبرها بقدرته وعلمه، ومشيئته وحكمته، وفيها تجلّت صفاته العلى وأسماءه الحسنى، فبقدرته تعالى كانت هذه الأكوان، وبعلمه تعالى اتحد وجودها وانتظم شأنها، وسارت إلى غاياتها في نظام مُحكم بديع .

ولنعتقد جازمين أنه لا وجود لمشارك لله تعالى في خلق هذه العوالم ولا مُدبر لها معه سواه؛ إذ لو كان ذلك لَظهر في العوالم التضارب والتناقض، ولأسرعَ إليها الفناء والزوال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْنَا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] .

ولنعتقد جازمين أنه متى لم يَكُنْ لله تعالى شريك في الخلق والتدبير، فإنه لا يكون له شريك في الطاعة والعبادة، فلا ينبغي أن يعبد معه أحد أبداً سواء كان ملكاً مُقرباً، أو نبياً مرسلأ، أو دون ذلك من سائر المخلوقات. وسواء كانت العبادة صلاة أو دعاء، أو صوماً أو ذبحاً، أو زكاة أو نذراً، ولا طاعة في معصيته تعالى بتحريم ما أحل، أو تحليل ما حرّم، أو ترك ما أوجب، أو فعل ما حرّم .

ولنعتقد جازمين أن حاجة الناس إلى الرسل في بيان الطريق إلى الجنة اقتضت إرسالهم، وإنزال الكتب عليهم، ومن هنا وجب تصديق كافة الرسل واتباعهم، ووجب الإيمان بالكتب والعمل بما فيها، مما لم ينسخه الله تعالى بغيره من الشرائع والأحكام، كما وجب الإيمان بالملائكة، والقدر والمعاد والحساب والجزاء. بهذه النقاط الأربع المشتملة على الإيمان الصحيح نكون قد قطعنا ربع الطريق إلى الجنة .

فلنقم الصلاة بأن نتطهر لها طهارةً كاملة، ونؤديها في أوقاتها في جماعة أداءً وافياً مُستوفين كافة الشروط والفرائض والسنن والآداب، فنوافق بها صلاة رسول الله ﷺ، حيث قال: « صَلُّوا كما رأيتموني أصلي » .

ولنؤت زكاة أموالنا أهلها من الفقراء والمساكين والغارمين والمجاهدين، ولنتحرر في إخراجها الجودة والكمال والإخلاص الكامل فيها لله تعالى .

ولنصُم رمضان بالإمساك عن المُفطرات والبُعد عن المتشابهات والمحرمات في: الأقوال والأفعال والخواطر والنيات .

ولنحج بيت الله حجاً كحج رسول الله ﷺ موسوماً بالبرور، وذلك بأدائه أداءً صحيحاً خالياً من الرّفث والفسق والجدال، محفوفاً بالخيرات، مفعماً بالصالحات .

ولنبزّ الوالدين بطاعتهم في غير معصية الله، وبالإحسان إليهما ببذل المعروف

وإسداء الجميل من القول والفعل، مع كَفِّ الأذى عنهما، ولو كان ضجراً منهما .
ولنصل أرحامنا ببرّهم وزيارتهم، والسؤال عنهم، والتعرّف إلى أحوالهم
ومساعدتهم بما في القدرة، وما هو مستطاع .

ولنحسن إلى الجيران بإكرامهم المتمثل في الإحسان إليهم وكَفِّ الأذى عنهم .
ولنُكرم الضيف إكرامه الواجب له بإطعامه وإيوائه .

ولنكرم المؤمن بتحقيق أخوته القائمة على أساس أداء حقوقه من : السلام عليه
عند ملاقاته، وتشميته عند عطاسه، وتشيع جنازته عند مماته، وعيادته إذا مرض،
وإبرار قسمه إذا أقسم .

ولنعدل في القول والفعل والحكم، إذ العدل في الكل واجب مُحْتَم، وبه
يستقيم أمر الدين والدنيا، ويصلح شأن العباد والبلاد .

وإلى هنا تَمَّ نصف الطريق أيها السائرون، ولم يبقَ إلا نصفه الآخر، وهو ترك
الشرك والمعاصي . فلنواصل السير في غير كلل ولا ملل، ولنترك الشرك وذلك :

١ - بأن لا نعتقد أن مخلوقاً من المخلوقات كائناً مَنْ كان يملك لنفسه أو لغيره ضراً
أو نفعاً بدون مشيئة الله وإذنه، وعليه فلتكُنْ رغبتنا في الله فلا نرغب في أحد
سواه، فلا نسأل مخلوقاً، ولا نستشفع أو نستغيث بآخر، إذ لا معطي ولا مغيث
إلا الله . فلنقصر رغبتنا فيه، ورهبتنا وخوفنا منه .

٢ - بأن لا نصرف شيئاً من عبادة الله تعالى إلى أحد سواه؛ فلا نحلف بغير الله ولا
نذبح على قبر وليٍّ من أولياء الله، ولا ننذر نذراً لغير الله، ولا ندعو غير الله،
ولا نستغيث بسواه .

٣ - وبأن لا نعلق خيطاً أو عظماً أو حديداً، نرجو بها دَفْعَ العين أو كشف الضر،
فإنه لا يدفع العين ولا يكشف الضر إلا الله .

٤ - وبأن لا نُصدّق كاهناً أو عَرّافاً أو مُنْجِماً فيما يخبر به ويدّعيه من علم الغيب؛ إذ
لا يعلم الغيب إلا الله .

٥ - وبأن لا نطيع حاكماً أو عالماً أو أباً أو أمّاً أو شيخاً في معصية الله، إذ طاعة
غير الله بتحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرّم، شرك في ربوبية الله .

بهذه الخطوات الخمس أيها السائرون نكون قد قطعنا نصف المسافة المتبقية
ولم يبقَ إلا نصفها الآخر وهو تَرْكُ المعاصي، وبعدها نصل إلى باب الجنة وندخلها
إن شاء الله مع الداخلين . . فهيا بنا نواصل سيرنا أيها السالكون .

فلنحفظ الدماغ فلا نفكر فيما يضر، ولا ندبر ما يسوء من فساد أو شرّ.
ونحفظ السمع فلا نسمع باطلاً من سوء أو فُحش أو كذب أو غناء أو غيبة أو
نميمة أو هجر أو كفر.
ونحفظ البصر، فلا نسرحه في النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه من أجنبية غير
محرمّة مسلمة أو كافرة، عفيفة أو فاجرة.
ونحفظ اللسان، فلا ننطق بفحش أو بذاء، ولا سوء أو كذب أو زور، أو غيبة
أو نميمة، أو سب أو شتم، أو لعن من لا يستحق اللعنة.
ونحفظ البطن، فلا ندخل فيه حراماً، طعاماً كان أو شراباً، فلا نأكل ربا ولا
ميتة ولا خنزيراً، ولا نشرب مُسكرأ، ولا ندخن.
ونحفظ الفرج، فلا نطأ غير زوجة شرعية.
ونحفظ اليد، فلا نوذي بها أحداً بضرب أو قتل، ولا نأخذ بها مالاً حراماً،
ولا نلعب بها ميسراً، ولا نكتب بها زوراً أو باطلاً.
ونحفظ الرّجل، فلا نمشي بها إلى لهو أو باطل، ولا نسعى بها إلى فتنة أو
فساد أو شر.
ونحفظ العهد والشهادة والأمانة فلا نخفر ذمة ولا ننكث عهداً ولا نخلف
وعداً ولا نشهد زوراً ولا نخون أمانة.
ونحفظ المال فلا نبذره ولا نسرف فيه كما لا نهمله ولا نضيعه أو نتركه بدون
إنماء أو صلاح.
ونحفظ الأهل والولد في أبدانهم وعقولهم وعقائدهم وأخلاقهم، فندفع عنهم
ما يؤذيهم أو يضرهم أو يفسد أرواحهم أو عقولهم، وندراً عنهم كل ما يُردي أو
يُهلك ويُشقي.
إلى هنا. انتهى الطريق، فدُونكم الجنة دار السلام، فتهيؤوا للدخول منتظرين
رسل ربكم متى تصل إليكم حاملّة استدعاء ربكم المنعم الكريم لتفدوا عليه وتحطّوا
الرّحال بساحته. . ويومها يفرح المتقون. وسلام على المرسلين والحمد لله رب
العالمين.

فهرس المحتويات

٥	 مقدمة
٧	 أصحاب الجحيم
٧	 أولاً: النار حق
٧	 رؤية الجحيم
٨	 الزحزحة عن النار
٢٤	 ثانياً: أهل الخلود في النار
٢٤	 ناس خلقوا للنار
٢٦	 دركات النار وأصحابها
٣٠	 الكافرون والظالمون
٣١	 تبديل جلود الكافرين في النار
٣٢	 جزاء الكافرين النار
٤٠	 عدم قبول الفداء ممن كفر
٤٤	 تبشير المنافقين
٤٧	 البشارة بالعذاب
٤٩	 اتخاذ الدين لهواً ولعباً سبب للخلود في النار
٥١	 الاستهزاء بآيات الله جزاؤه جهنم
٥٧	 ثالثاً: أهل العذاب في النار
٥٧	 السعي في الأرض فساداً
٥٧	 وكيف يحاربون الرسول؟
٦٦	 التولي عند الزحف
٦٨	 جزاء من قتل مؤمناً متعمداً
٧١	 مصير المكذّبين والمستكبرين
٧٦	 جزاء اكتناز الذهب والفضة

- ٧٩ حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا
- ٧٩ عبادة وخشية
- ٨٠ واعظُ الله في القلب
- ٨١ أقوال في محاسبة النفس
- ٨٣ أَفْسَامُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ
- ٨٣ الأسباب المعينة على محاسبة النفس
- ٨٤ كيفية محاسبة النفس
- ٨٥ فوائد محاسبة النفس
- ٨٥ قطار العمر
- ٨٧ شهادة أعضاء جسم الإنسان على نفسه
- ٨٨ كَيْفَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْجِلْدَ وَالْعَيْنَ وَاللِّسَانَ؟
- ٩٢ مَعْنَى السَّاعَةِ
- ٩٣ رؤية الظالم للملائكة عند الاحتضار
- ٩٤ رؤية المؤمن لملائكة الرحمة
- ١٠١ الجحيمُ . . رؤية من الداخل
- ١٠٦ المؤاخذة بالمعصية
- ١٠٦ آدم عليه السلام . . ومعصيته للأمر الإلهي
- ١٠٦ نوح عليه السلام ووعظ الله له
- ١٠٧ يونس عليه السلام والسجن في بطن الحوت
- ١٠٨ الوعيد بالعذاب لقبول الفداء من الأسرى
- ١١٠ ازدياد الخوف من الله مع زيادة الإيمان ونقص الخوف مع نقص الإيمان
- ١١٠ ألوان وأنواع العقوبات لعصاة المؤمنين
- ١١٣ حال المؤمن بين الخوف والرجاء
- ١١٦ رسل الله وأنبياءه يخافون العذاب
- ١١٨ خوف المؤمنين الدائم من عذاب الله
- ١١٩ نماذج رائعة من المؤمنين الخائفين من عذاب الله
- ١١٩ عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- ١٢٠ عمرو بن العاص رضي الله عنه
- ١٢١ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها
- ١٢٢ جولة في النار تُبدد الغرور
- ١٢٣ اطلاع النبي ﷺ في النار
- ١٢٤ عبد الله بن عمر يرى النار مناماً
- ١٢٥ وَصَفُ النار في القرآن والسنة
- ١٢٦ سِعة النَّارِ
- ١٢٨ في النار: كُلُّ أسباب الموت ولا موت!!
- ١٢٨ عذاب النَّارِ في ازديادٍ أبداً
- ١٢٨ طعامُ أهل النَّارِ عَذَابٌ وَشَرَابُهُمْ عَذَابٌ
- ١٣٠ ألوانُ أُخْرَى من الأَشْرِبَةِ الحَبِيبَةِ
- ١٣٠ العَذَابُ النَّفْسِي أَشَدُّ مِنَ العَذَابِ الجَسْمَانِي
- ١٣٣ أعظمُ عَذَابِ النَّارِ هُوَ الخُلُود
- ١٣٤ مَنْ هُمْ عَصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ؟
- ١٣٤ الذَّنْبُ وَالْوَعْدُ مُتَحَقِّقَانِ ، التَّوْبَةُ وَالْمَغْفَرَةُ مَطْنُونَتَانِ
- ١٣٦ الموتُ آتٍ لَا مَحَالَةَ
- ١٣٦ هل يُعاني المؤمنُ سكراتِ الموت؟
- ١٣٧ اللِّحَظَاتُ الْآخِرَةُ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ
- ١٣٩ عصاة المؤمنين
- ١٤٠ الْقَبْرِ . . بَغِيرِ عَذَابٍ عَذَابٌ
- ١٤١ الموقف والحشر
- ١٤٢ مانعُ الزَّكَاةِ يُعَذَّبُ خمسين ألف سنةٍ
- ١٤٣ مُؤْمِنُونَ فِي ظِلِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
- المروء على الصِّراطِ هو الكَرْبُ الأعظمُ لأهل الإيمان!! السَّابِقُونَ يَجُوزُونَ،
- ١٤٤ وَالْعَصَاةُ يَسْقُطُونَ
- ١٤٦ الَّذِينَ حَبَسَهُمُ الْقُرْآنُ
- ١٤٧ السُّقُوطُ عَنِ الصِّراطِ

- ١٤٧ لحظة واحدة في النار تُنسي المعذب كل نعيم رآه
- ١٤٧ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون
- ١٥١ اتقاء النار
- ١٥٥ دركات العذاب في النار
- ١٥٨ عبدونا ونحن أعبد لله من المستغفرين بالأسحار
- ١٥٩ علامات الساعة الصغرى والكبرى
- ١٦٤ علامات صغرى لم تقع بعد
- ١٦٦ علامات الساعة الكبرى
- ١٦٦ فتنة الدجال أعظم فتنة على الأرض
- ١٦٧ الوصف الدقيق للدجال
- ١٦٨ مدة مكوث الدجال في الأرض
- ١٧٠ هل سيقتل الدجال؟! ومن الذي سيقتله؟
- ١٧١ نزول عيسى عليه السلام
- ١٧٥ ترعى الأسود مع الإبل . . والنمور مع البقر . . والدئاب مع الغنم
- ١٧٥ الفوائد التي تعود علينا من ذكر علامات الساعة
- ١٧٦ اختلال الموازين وانقلاب المبادئ من علامات الساعة الصغرى
- ١٧٩ إسناد الأمر لغير أهله
- ١٨٠ ضياع الأمانة
- ١٨١ استحلال الكذب
- ١٨٣ علامات أخرى
- ١٨٥ مشاهد يوم القيامة
- ١٩٢ التفخ في الصور
- ١٩٥ البعث يوم العرض على خالق الأرض
- ١٩٧ مثال للتقريب إلى الأذهان
- ١٩٨ ماذا يتم عند تبديل الأرض؟
- ١٩٩ الكل قادمون إلى الله
- ٢٠٠ الكتاب شاهد على الإنسان

- ٢٠٢ تصوير البعث . . . وشِدَّة الهول
- ٢٠٣ انشغال الإنسان بنفسه
- ٢٠٣ الحوار بين كلٍّ من المؤمن والكافر
- ٢٠٥ تذكير الكافر بظلمه في الدنيا
- ٢٠٨ ضَرْب الأمثال للناس . . للمؤمن والكافر
- ٢٠٩ كيفية حَمْل الأوزار يوم القيامة
- ٢١٠ كل هذا قبل الحساب؟ أم بعد الحساب؟
- ٢١٢ البراءة من المشركين
- ٢١٥ الحوار الذي دار بين شياطين الإنس والجن
- ٢١٧ كيف الميزان؟
- ٢٢٠ شهادة الإنسان على نفسه
- ٢٢١ حساب أئمة الكفر
- ٢٢٣ الدُّلُّ والهَوَان يوم القيامة
- ٢٢٤ القوانين عند الله
- ٢٢٧ كيف ينجو الإنسان يوم القيامة؟
- ٢٣٠ سؤال عيسى عليه السلام
- ٢٣٣ من مشاهد يوم القيامة الطلب من الله رؤية الشيطان الذي أغوانا
- ٢٣٨ وهذا هو الطريق